http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً } ؛ أي خَلَقَ من النُّطفةِ إنساناً وخَلْقاً كثيراً ، فجعلَ مِن هؤلاء البَشَرِ أنسَاباً وأصهاراً ، { وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً } ؛ على ما أرادَ.

(٠/٠)

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ } ؛ إن عَبَدُوهُ ، { وَلاَ يَضُرُّهُمْ } ؛ إنْ تركُوا عبادتَهُ ، وتركُوا عبادةَ اللهِ الذي خلقَهم ورزقَهم ، { وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً } ؛ أي وكان الكافرُ عَوْناً للشَّيطانِ على رَبِهِ بالمعاصِي ؛ لأنه تابعُ الشيطان ويعاونهُ على معصيةِ الله ، لأنَّ عبادتَهم للأصنامِ معلومةٌ للشَّيان. والظَّهِيرُ هو الْمُعِيْنُ. قال المفسِّرون : أرادَ بالكافرِ أبا جَهْلٍ.

(٠/٠)

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً } ؛ أي مُبَشِّراً بالجنَّة ونذيراً من النَّارِ ، { قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ } ؛ أي على القُرْآن وتبليغِ الوَحي ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ مَن شَآءَ } ؛ أي لكن مَن شَاءَ ، { أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً } ؛ إنفاقَ المال في طلب مرضَاةِ الله وجنَّتِه.

(٠/٠)

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ } ؛ أي فَوِّضْ أمورَكَ إليه ، { وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ } ؛ أي احْمَدْهُ مُنَزِّهاً عن ما لا يجوزُ في صفاتِهِ ، وذلك نحوَ أن يقولَ : الحمدُ للهِ رب العالَمين ، والحمدُ للهِ حَمداً يُوافِي نِعَمَهُ ويكافئُ مزيدَهُ ، ويجوز أن يكون : صَلِّ بأمرِهِ هو المحمودُ في توفيقِهِ إياكَ ، كما يقالُ : افْعَلْ هذا بحمدِ الله ، { وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً } ؛ فهو أولَى مَن يراقِبُ غيرَهُ.

(٠/٠)

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً } ؛ أي فاسأَلْ لسُؤالِكَ إياهُ خَبيراً ، والخبيرُ ها هنا هو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، ويقالُ : معناهُ : فاسألِ الخبيرَ بذلك ، يعني : ما ذُكِرَ من خَلْقِ السَّمواتِ والأرض والاستواءِ على العرش. وَقِيْلَ في معناهُ : فاسأَلْ عالِماً بمَ تسألهُ عنه ، ولا تسأَلْ غيرَهُ ، وإذا سألتَ حاجتَكَ ؛ فاسأَل عالِماً بما يصلحُكَ ، وإنك إذا سألتَهُ أخبركَ بالحقِّ في صفاتِهِ ، وفي كلِّ ما سألتَ عنهُ.

(٠/٠)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ } ؛ أي إذا قِيْلَ لكفَّارِ مكَّة : { اسْجُدُواْ لِلرَّحْمَانِ قَالُواْ وَمَا الرَّحْمَانُ } ؛ قالُوا : ما نعرفُ إلاّ رَحْمَانَ اليَمَامَةِ ؛ يعنونَ مُسَيْلَمَةَ. وقولهُ تعالى : { أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً }

؛ استفهامُ إنكارٍ ؛ أي لا نسجدُ للرَّحمنِ تَباعداً من الإيْمانِ ، كما قالَ تعالى في قصَّة نوحٍ : { فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِي إِلاَّ فِرَاراً }[نوح : ٦].

(٠/٠)

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً } ؛ البُرُوجُ : منازلُ الكواكب السَّبعةِ : الشَّمسُ ؛ والقمَرُ ؛ والمشتَرِي ؛ فالْمِرِّيخُ ؛ وزُحَلُ ؛ وعُطَارِدُ ؛ والزُّهرَةُ ، وهي اثنى عشرَ بُرجاً ؛ فالْحَمَلُ والعَقْرَبُ بَيْتَا المرِّيخِ ، والثَّورُ والميزانُ بيتا الزُّهرةِ ، والْجَوزَاءُ والسُّنبلة بيتَا عُطَارِدَ ، والْجَدْيُ والدَّلْوُ بيتا زُحَلٍ. وقولهُ تعالى : { وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً } ؛ يعني الشَّمسَ ، { وَقَمَراً مُّنِيراً }. وقرأ حمزة (سُرُجاً) أراد الشِّمسَ والكواكبَ معها. والمعنى : وجعلَ في السَّماء شَمساً تضيءُ بالنهارِ. ويقطعُ كلَّ شهر بُرجاً من البروج الاثني عشرَ ، وجعلَ فيها قمراً يضيءُ بالليل ، ويقطع كلَّ بُرج في يومٍ وثُلُثٍ.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الَّيلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً } ؛ أي يخلفُ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَهُ ، يذهبُ أحدُهما ويجيءُ الآخر ، فهو عِظَةٌ لِمَن اتَّعَظَ ، وأرادَ أن يشكُرَ أنعَامَ اللهِ. قال أبو عُبيدة : (الْخِلْفَةُ كُلُّ شَيْءٍ : اللَّيْلُ خِلْفَةٌ لِلنَّهَارِ ، وَالنَّهَارُ خِلْفَةٌ لِلَّيْلِ ؛ لأنَّ أحَدَهُمَا يَخْلُفُ الآخَرَ وَيَأْتِي بَعْدَهُ). وقال مجاهدُ : (جَعَلَ النَّهَارَ خِلْفَةً مِنَ اللَّيْلِ لِمَنْ نَامَ باللَّيْلِ ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ خِلْفَةً لِمَنِ اشْتَغَلَ بالنَّهَارِ) فَمَنْ فَاتَهُ الْعَمَلُ باللَّيْلِ قَضَاهُ بالنَّهَارِ ، وَمَنْ فَاتَهُ بِالنَّهَارِ قَضَاهُ باللَّيْلِ.

(٠/٠)

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً } ؛ أي عبادهُ الذين رَضِيَهم وأثنَى عليهم هم الذين يَمْشُونَ على السَّكينةِ والوَقَارِ الْهُوَيْنَا ، متواضِعين من مخافةِ الله ، حُلَمَاءَ عُقلاءَ لا يجهَلُون وإنْ جُهِلَ عليهم ، وإن كَلَّمَهم الكفارُ والفُسَّاقُ بالسَّفَهِ والفُحْشِ ؛ قالُوا سَداداً مِن القولِ. وَقِيْلَ : يقولون في جواب السَّفيهِ : سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ. وقال قتادةُ : (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً } ؛ أيْ كَانُوا لاَ يَجْهَلُونَ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ). وقال مقاتلُ : (قَالُوا سَلاَماً ؛ أيْ قَوْلاً يَسْلَمُونَ فِيْهِ مِنَ الإثمِ).

قال الحسنُ : (هَذِهِ صِفَةُ نَهَارِهِمْ إذا انْتَشَرُواْ فِي النَّاسِ ، وَلَيْلُهُمْ خَيْرُ لَيْلٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً } ؛ أي يصَلُّون باللَّيلِ طَلباً للثواب). وعن ابنِ عبَّاس قَالَ : (مَنْ صَلَّى بَعْدَ الْعِشَاءِ رَكْعَتَيْنِ أوْ أكْثَرَ فَقَدْ بَاتَ للهِ سَاجِداً أوْ قَائِماً).

(٠/٠)

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤)

(٠/٠)

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً } ؛ لاَزماً دَائماً. والغَرَمُ : اللُّزُومُ ، يقالُ لصاحب الدَّين : غَرِيْمٌ ؛ لأنَّهُ يلازمُ الْمَدْيُونَ ، ويقالُ للمَدْيُونِ : الغَرِيْمُ ؛ لأنَّ اللُّزُومَ يثبتُ عليهِ ، والْمُغْرَمُ بالنِّساءِ الْمُلاَزمُ لَهُنَّ. قال الزجَّاجُ : (إنَّ عَذابَهَا كَانَ غَرَاماً ، الْغَرَامُ أشَدُّ الْعَذاب). { إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً } ؛ أي إنَّ جهنَّم بئسَ موضعٍ قَرَاراً وإقامةً هي. قال الحسنُ : (كُلُّ غَرِيْمٍ يُفَارِقُ غَرِيْمَهُ إلاَّ غَرِيْمَ جَهَنَّمَ).

(٠/٠)

وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً } ؛ الإسْرَافُ : هو الإنفاقُ في معاصِي اللهِ تعالى ، والْمُقَتِّرُ : مَانِعُ حقِّ اللهِ تعالى ، والقَوَامُ : هو الوسطُ بين الإسرافِ والتَّقتيرِ. قرأ أهلُ المدينةِ والشام بضمِّ الياءِ وكسر التاء ، وقرأ الكوفيُّون (يُقَتَّرُواْ) بفتح التاء وضم الياء ، وقرأ الباقون (يَقْتِرُواْ) بفتح الياء وكسر التَّاء ، وكلُّها لغاتٌ صحيحة. فالإسرافُ : نفقةٌ في معصيةِ الله تعالى وإنْ قَلَّتْ ، والإقْتَارُ : منعُ حقِّ الله.

وعن الحسنِ أنَّ مَعناهُ : (لَمْ يُنْفِقُواْ فِي مَعَاصِي اللهِ ، وَلَمْ يُمْسِكُواْ عَنْ فَرَائِضِ اللهِ). وَقِيْلَ : معناهُ : لَم يضَيِّقُوا في الإنفاقِ ، وكان إنفاقُهم بين الإسرافِ والإقتَارِ ، لا إسْرَافاً يدخلُ به في حدِّ التبذيرِ ، ولا تضيْيقاً يضرُّ به في حدِّ المانع لِمَا يجبُ ، وهذا هو الْمَحمودُ مِن النفقةِ.

وعن عمرَ رضي الله عنه : (مِنَ الإسْرَافِ أنْ لاَ يَشْتَهِيَ الرَّجُلُ شَيْئاً إلاَّ أكَلَهُ) وقال : (كَفَى بالْمَرْءِ سَرَفاً أنْ يَأْكُلَ مَا يَشْتَهِي). وقال قتادةُ : (الإسْرَافُ : النَّفَقَةُ فِي الْمَعْصِيَةِ ، وَالإقْتَارُ : الإمْسَاكُ عَنْ حَقِّ اللهِ ، وَالْقَوَامُ مِنَ الْعَيْشِ : مَا أقَامَكَ وَأغْنَاكَ).

(٠/٠)

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـاهًا آخَرَ } ؛ قِيْلَ : " إنَّ رَجُلاً جَاءَ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أيُّ الذنْب أكْبَرُ ؟ قَالَ : " أنْ تَجْعَلَ للهِ نَدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ " قَالَ : ثُمَّ أيُّ ؟ قَالَ : " أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أنْ يَطْعَمَ مَعَكَ " قَالَ : ثُمَّ أيُّ ؟ قَالَ : " أنْ تَزْنِي بحَلِيْلَةِ جَارِكَ " فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هذِهِ الآيةَ تَصْدِيقاً لذلكَ : { وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـاهًا آخَرَ } { وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ } ؛ في الحديثِ " لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلاَّ بأَحَدِ ثَلاَثِ مَعَانٍ : زَنَى بَعْدَ إحْصَانٍ ، وَكُفْرٌ بَعْدَ إيْمَانٍ ، وَقَتْلُ نَفْسٍ بغَيْرِ حَقٍّ ". { وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثَاماً } ؛ أي مَن يفعلُ شيئاً ممَّا تقدَّم ذِكره { يَلْقَ أَثَاماً } أي يَلْقَ عقوبةَ فعلهِ ، ويقالُ : الآثَامُ وادٍ في جهنَّم من دمٍ وَقَيْحٍ.

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : " لَوْ أنَّ صَخْرَةً عَسْرَاءَ قُذِفَ بهَا فِي جَهَنَّمَ مَا بَلَغَتْ قَعْرَهَا سَبْعِيْنَ خَرِيْفاً ، ثُمَّ يَنْتَهِي إلَى غَيٍّ وَأثَامٍ " قِيْلَ : وَمَا غَيٌّ وَأثَامٌ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : " بئْرَانِ يَسِيْلُ فِيْهِمَا صَدِيْدُ أهْلِ النَّارِ ، وَهُمَا اللَّتَانِ قَالَ اللهُ تَعَالَى : { فَسَوْفَ يَلْقَونَ غَيّاً } [مريم : ٥٩] ". ورُوي أنَّ أثَاماً وادٍ في جهنَّم فيه حيَّاتٌ وعقاربُ في فَقَار إحداهنَّ مقدار ستِّين قُلَّةً من السُّمِّ ، كلُّ عقرب منهنَّ مثل البغلةِ الموكفة.

(٠/٠)

يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً } ؛ تفسيرُ الغيِّ الأثَامُ بقولهِ { يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ } الآيةُ ، ومَن رفعَ (يُضَاعَفْ ، وَيَخْلُدْ) وهو ابنُ عامر فهو على الاستئنافِ والقطع عما قبله.

(٠/٠)

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَائِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً } ؛ قال ابن عباس : (نزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ بمَكَّةَ ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَالُواْ : مَا يُغْنِي عَنَّا الإِسْلاَمُ وَقَدْ عَدَلْنَا باللهِ وَقَتَلْنَا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ وَأَتَيْنَا الْفَوَاحِشَ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ).

ومعناها : إلاّ مَن تَابَ عن الكفرِ والمعصية وآمَنَ باللهِ وَعَمِلَ عَمَلاً صالحاً بعدَ الإيْمَانِ والتوبةِ ، فأُولَئِكَ يَمحُو اللهُ سيِّئاتِهم بالتوبةِ ويُثْبتُ لَهم مكانَها حسناتٍ ، وهذا هو معنى التَّبديلِ ، لا تصيرُ السَّيئةُ بعينها حسنةً.

وعن ابنِ عباس أنهُ قال : (قَرَأنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم{ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَاهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ }[الفرقان : ٦٨-٦٩] الآيَةُ ثُمَّ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً } الآيَةُ ، فَمَا رَأيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَرِحَ بشَيْءٍ مِثْلَ فَرَحِهِ بهَا وَبقَوْلِهِ{ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً }[الفتح : ١]).

قال قتادةُ : (وَمَعْنَاهَا : إلاَّ مَنْ تَابَ مِنْ ذنْبِهِ وَآمَنَ برَبِهِ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فِيْمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِهِ). وَقال أيضاً في معنى قوله { فَأُوْلَائِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } : (التَّبْدِيْلُ فِي الدُّنْيَا طَاعَتُهُ بَعْدَ عِصْيَانِهِ ، وَذِكْرُ اللهِ بَعْدَ نِسْيَانِهِ). وقال الحسنُ : أبْدَلَهُمْ اللهُ بالْعَمَلِ إلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ بالشِّرْكِ إخلاَصاً وَإسْلاَماً ، وَبالْفُجُورِ إحْصَاناً ، وَبقَتْلِ الْمُؤْمِنِيْنَ قَتْلَ الْمُشْرِكِيْنَ).

(٠/٠)

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً } ؛ أي مَن تاب من الشِّرك وعَمِلَ صالحاً ، ولَم يكن من القبيلِ الذين قَتَلُوا وزَنَوا ، فإنهُ يتوبُ اللهُ ؛ أي يعودُ عليه بعد الموتِ مَتَاباً حَسَناً يفضَّلُ على غيرهِ بمن قَتَلَ وزَنَى ، فالتوبةُ الأُولى رجوعٌ عن الشِّرك ، والثانيةُ رجوعٌ إلى اللهِ للجزاءِ والمكافأة.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ } ؛ قال أكثرُ المفسِّرين : الزُّورُ ها هنا بمعنى الشِّركِ. قال الزجَّاجُ : (الزُّورُ فِي اللُّغَةِ الْكَذِبُ ، وَلاَ كَذِبَ فَوْقَ الشِّرْكِ باللهِ). وقال قتادةُ : (وَلا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ، لاَ يُسَاعِدُونَ أهْلَ الْبَاطِلِ عَلَى بَاطِلِهِمْ). وقال محمَّدُ بنُ الحنفيَّة : (لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ : اللَّهْوَ وَالْغِنَاءَ وَاللَّعِبَ وَأعْيَادَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ). وقال عليُّ بن أبي طلحةَ : (شَهَادَةُ الزُّورِ). وَكَانَ عُمَرُ رضي الله عنه (يَجْلِدُ شَاهِدَ الزُّورِ أرْبَعِيْنَ جَلْدَةً ويُسَخِّمُ وَجْهَهُ وَيَطُوفُ بِهِ فِي الأَسْوَاقِ). وعن عمرَ بن المنكدرِ أنه قالَ : بَلَغَنِي (أنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أيْنَ الَّذِيْنَ مَانُواْ يُنَزِّهُونَ أنْفُسَهُمْ عَنْ سَمَاعِ اللَّهْوِ وَمَزَامِيْرِ الشَّيْطَانِ ؟ أدْخِلُوهُمْ رِيَاضَ الْمِسْكِ. ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ : اسْمِعُوا عَبِيْدِي تَحْمِيْدِي وَثَنَائِي وَتَمْجِيْدِي ، وَأعْلِمُوهُمْ أنْ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً } ؛ أي إذا مَرُّوا بالقولِ والفعل الذي لا فائدةَ منه مرُّوا

مُكرِمين صَائِنين أنفسَهم عن الخوضِ في ذلك ، آمِرين بالمعروفِ ناهينَ عن المنكرِ بما قَدِرُوا عليه من قولٍ إذا عَجِزُوا عن الفعلِ ، ومِن إظهار كرامةِ وتَعْبيْسٍ وجهٍ إذا عَجِزُوا عن القولِ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً } ؛ معناهُ : والذين إذا وُعِظُوا بآياتِ ربهم ؛ أي بالقُرْآنِ ؛ لَم يعامِلُوا فيها معاملةَ الأصَمِّ الذي لا يسمعُ ، والأعمَى الذي لا يُبْصِرُ ، ولكنَّهم سَمعوا وبَصروا وانتفعوا بها وخَرُّوا ساجدينَ سامعين باكينَ مبصرين فيما أُمِرُوا به ونُهُوا عنهُ.
والْخَرُّ هو السُّقوطُ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ } ؛ الذُّرِّيَّةُ تكونُ واحداً وجَمعاً ، فكونُها الواحد : قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً }[آل عمران : ٣٨] ، وكونُها للجمعِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذُرِّيَّةً ضِعَافاً }[النساء : ٩]. وقوله تعالى { قُرَّةَ أَعْيُنٍ } : { رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا } أرادَ أتقياءَ. وقال مقاتلُ : (مَعْنَاهُ : اجْعَلْهُمْ صَالِحِيْنَ فَنُقَرُّ أعْيُناً بذلِكَ). وقال الحسنُ : (مَا مِنْ شَيْءٍ أقَرَّ لِعَيْنِ الْمُسْلِمِ مِنْ أنْ يَرَى وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ مُطِيْعِيْنَ للهِ).
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً } ؛ أي يُقتدَى بنا في الخيرِ ، والمعنى : اجعلنَا صالِحين نأتَمُّ بمن قَبْلَنَا من المسلمينِ حتى يأتَمَّ بنا مَن بعدَنا. قال الفرَّاءُ : (إنَّمَا قَالَ (إمَاماً) وَلَمْ يَقُلْ : أئِمَّةً كَمَا قَالَ : (إنَّا رَسُولُ رَب الْعَالِمِيْنَ) لِلاثْنَيْنِ ، يَعْنِي : إنَّهُ مِنَ الْوَاحِدِ الَّذِي يُرِيْدُ بِهِ الْجَمِيْعَ). وفي الحديثِ : " مَنْ رُزِقَ إيْمَاناً وَحُسْنَ خُلُقٍ فَذاكَ إمَامُ الْمُتَّقِيْنَ "

(٠/٠)

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ } ؛ أي أهلُ هذه الخِصَالِ همُ الذين يُجزَوْنَ الْغُرْفَةَ في الجنَّة بصَبْرِهم على الطاعةِ وعن المعصيةِ وعلى مَكَارِهِ الزَّمان ومِحَنِ الدُّنيا. والغُرْفَةُ هي البناءُ العالِي المرتفعُ ، قال مقاتلُ : (يَعْنِي غُرَفَ الْجَنَّةِ). وقال مقاتلُ : (هِيَ غُرْفَةٌ مِنَ الزُّبُرْجَدِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً } ؛ أي وتتلقَّاهمُ الملائكة في تلك الغُرَفِ بالتحيَّة والسَّلامِ مِن اللهِ تعالى. قرأ أهلُ الكوفة (يَلْقَوْنَ) بفتح الياءِ والتخفيف. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً } ؛ أي حَسُنَتْ تلك الغُرَفُ في المستقرِّ والْمُقَامِ.

(٠/٠)

قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ } ؛ أي قُلْ لَهم : ما يصنعُ بكُمْ ربي وهو لا يحتاجُ إليكم لولا دعاؤهُ إيَّاكم إلى الإسلامِ وإلى الطاعةِ لتنتَفِعُوا أنتم بذلكَ. وَقِيْلَ : معناهُ : أيُّ وَزْنٍ وقَدْرٍ لكم عند ربي لولا دعاؤُكم وعبادتُكم إياه. وَقِيْلَ : معناهُ : ما يفعلُ بكم يا أهلَ مكَّة لولا عبادتُكم غيرَ اللهِ ، { فَقَدْ كَذَّبْتُمْ } ؛ يا أهلَ مكة ، { فَسَوْفَ يَكُونُ } ؛ جزاءُ تكذيبهم ، { لِزَاماً } ؛ أي أُسِروا وأُخِذُوا بالأيدِي. وَقِيْلَ : أراد به يومَ بدرٍ.
واللِّزَامُ بنصب اللام مصدراً أيضاً. والخطابُ بقوله { فَقَدْ كَذَّبْتُمْ } يا أهلَ مكَّة ؛ أي إنَّ الله دعَاكم بالرَّسُولِ إلى توحيده وعبادتهِ ، فقد كَذبْتُمُ الرسولَ ، ولَم تُجيبوا دعوتَهُ ، فسوفَ يكون تكذيبُكم لِزَاماً يلزمكم فلا تعطونَ التَّوبةَ ، فقُتِلُوا يومَ بدرٍ واتَّصَلَ بهم عذابُ الآخرةِ.

(٠/٠)

طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)

{ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } ؛ أولُ السورة قَسَمٌ ؛ وهو من أسماءِ الله تعالى. قال الْقَرَظِيُّ : (أقْسَمَ اللهُ بطَوْلِهِ وَسَنَائِهِ وَمُلْكِهِ) ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } أي هذه آياتُ الكتاب المبينِ أنزَلَها على رسولِهِ.

(٠/٠)

لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } ؛ أي لعلَّكَ مُهْلِكٌ نفسَكَ ؛ أي قائلٌ بأنْ لا يكونُوا مؤمنينَ ، وكان صلى الله عليه وسلم حَريصاً على إيْمانِهم ونَجاتِهم من عذاب الله ، وذلكَ أنهُ لَمَّا كذبت قريشٌ النبيَّ صلى الله عليه وسلم شُقَّ عليهِ ذلك ، وكان يحرصُ على إيْمانِهم ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ : لعلَّكَ قاتلٌ نفسَكَ لتركِهم الإيْمانَ.

(٠/٠)

إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَآءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } ؛ إعلامٌ مِن الله تعالى أنهُ لو أرادَ أنْ يُنَزِّلَ آيةُ تضطَرُّهم إلى الطاعةِ لقَدِرَ على ذلكَ ، ولكنهُ لَم يفعلْ ؛ لأنه أرادَ منهم إيْمَاناً فيستحقُّون عليه المدحَ والثوابَ ، فإذا جاءَ الإلْجَاءُ ذهَبَ الْمَدْحُ وَالثَّوَابُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } أي أذِلاَّءَ مُنقادِين لا يَلْوُونَ أعناقَهم إلى معصيةٍ. قال قتادةُ : (الْمَعْنَى : لَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ آيَةً يُذلُّونَ بهَا ، فَظَلَّتْ جَمَاعَتُهُمْ لَهَا خَاضِعِيْنَ). وَالأعْنَاقُ : الْجَمَاعَاتُ ، يقالُ : جاءَنِي عُنُقٌ من الناسِ ؛ أي جماعةٌ ، ولو كان المرادُ الأعناقُ التي هي الخارجةُ لقال : خَاضِعَاتٌ.

(٠/٠)

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَانِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ } ؛ أي ما يأتي جبريلُ عليه السلام النبيَّ صلى الله عليه وسلم بشيءٍ بعدَ شيءٍ من القُرْآنِ إلاّ كانوا مُعْرِضِيْنَ عن ذلكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَدْ كَذَّبُواْ } ؛ أي بالقُرْآنِ ، { فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } ؛ أي فسيأتِيهم خبرُ ذلك في القيامةِ.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧)

وقولهُ تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ } معناهُ : أولَمْ يرَ أهلُ مكَّةَ إلى الأرضِ كم أخرَجنا فيها مِن كلِّ صِنْفٍ حَسَنٍ في الْمَنْظَرِ من النَّباتِ بعد أن كانت مَيْتَةً لا نَبَاتَ فيها. والزَّوْجُ : هو صِنْفٌ وأضْرُب الْحُسْنِ ، (والمعنَى : مِن كلِّ زَوْجٍ نَافِعٍ لا يقدرُ على إنباتهِ إلاّ ربُّ العالَمين) ، من أسْوَدٍ وأحمرٍ وأصفرٍ وأخضرٍ ، وحُلْوٍ وحَامضٍ مما يأكلُ الناسُ والأنْعَامُ. (والكريْمُ في اللُّغة : هو الْمَحْمُودُ فيما يُحْتَاجُ إليهِ) ، يقالُ : نخلةٌ كَرِيْمَةٌ إذا طابَ حَمْلُهَا أو كَثُرَ ، وناقةٌ كَرِيْمَةٌ إذا كانت غَزِيْرَةَ اللَّبَنِ.

(٠/٠)

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً } ؛ إنَّ في اختلافِ ألوان النبات للدلالةً على وحدانيَّة اللهِ وكمال قُدرته ، { وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ } ؛ في عِلْمِ اللهِ ؛ أي قد سَبَقَ في عِلْمِ الله أنَّ أكثرَهم لا يُؤمنون ، { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } ؛ أي الْمُنْتَقِمُ من أعدائهِ الرَّحِيْمُ بأوليائهِ.

(٠/٠)

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } ؛ أي أتْلُ على قومِكَ أو اذكُرْ لقومِكَ : { وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى } حين رأى الشجرةَ والنارَ ، وقال لَهُ : يا مُوسَى ائْتِ القومَ الظَّالِمين ، يعنِي الذين ظَلَمُوا أنفُسِهم بالكفرِ والمعصية ، وظَلَمُوا بني إسرائيلَ بأنْ سَامُوهم سوءَ العذاب ، { قَوْمَ فِرْعَوْنَ }.

ثُم أخبرَ عنهم فقال : { أَلا يَتَّقُونَ } ، عِقابي في مقامِهم على الكُفْرِ وتركِ الإيْمانِ. { قَالَ } مُوسَى : { رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ } ؛ بالرِّسالةِ ويقولون : لَيْسَتْ مِن عند الله ، { وَيَضِيقُ صَدْرِي } ؛ بتَكْذِيْبِهِمْ إيَّايَ ، { وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي } ؛ للعُقْدَةِ التي فيهِ ، { فَأَرْسِلْ } جبريلَ { إِلَى هَارُونَ } ليكون مَعِي معيناً يُؤَازِرُنِي على إظهارِ الدَّعوةِ وتبليغِ الرِّسالةِ. { وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ } ؛ أي دَعْوَى ذنبٍ ؛ يعني الْوَكْزَةَ التي وَكَزَهَا الْقِبْطِيَّ فماتَ منها ، { فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ } ؛ بوِشايَتِهِ.

(٠/٠)

قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ كَلاَّ } ؛ أي كَلاَّ لا يقتلونَكَ لأنِّي لا أُسَلِّطُهُمْ عليكَ ، { فَاذْهَبَا } ؛ أنتَ وأخُوكَ ، { بِآيَاتِنَآ } ؛ يعني بما أعطَاهُما من المعجزةِ ، { إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ } ؛ وإنَّما قالَ (مَعَكُمْ) لأنه أجْرَاها مجرَى الجماعةِ ، والمعنى : أسْمَعُ ما يقولونَهُ وما يُجِيبُونَكَ به.

وَقِيْلَ : إنَّ معنى قولِهِ (كَلاَّ) أي قالَ اللهُ لِمُوسَى : إرتَدِعْ عَنْ هذا الظَّنِّ وهذا الخوفِ ، { فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَآ } أي بدلاَئِلنا { إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ } أي شَاهِدُونَ بحفْظِكُم ونَصرِكُمْ.

(٠/٠)

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ أي { رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } إليكَ لَتُؤْمِنَنَّ باللهِ وَتُطْلِقَ بَنِي إِسْرَائِيْلَ عن الاستعبادِ ، وتُرْسِلَهم معنَا إلى الأرضِ المقدَّسةِ ، والرَّسُولُ يُذْكَرُ ويرادُ به الجمعُ ، كما تقولُ العرب : ضَيْفٌ وَعَدُوٌّ ، ومنهُ قولهُ{ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ }[الكهف : ٥٠] ، وَقِيْلَ : إنَّما قالَ { رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ولَم يقُلْ رَسُولاَ ؛ لأنَّهُ أرادَ المصدرَ ؛ أي رسَالَةَ ، وتقديرهُ : ذوُو رسالةِ رَبِ العالمينَ ، كقولِ الشَّاعرِ : لَقَدْ كَذبَ الْوَاشُونَ مَا بُحْتُ عِنْدَهُمْ بسِرٍّ وَلاَ أرْسَلْتُهُمْ برَسُولِأي برسالةٍ ، وَقِيْلَ : معناهُ : وكلُّ واحد مِنَّا رسولُ رب العالَمين.

(٠/٠)

أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } ؛ أي بأَنْ أرْسِلْ معنا بَنِي إسرائيلَ إلى فِلَسْطِيْنَ ولا تَسْتَعْبِدْهُمْ. وكان فرعونُ استعبَدَهم أربعمائة سَنة ، وكانُوا في ذلك الوقتِ ستُّمائة ألفٍ وثلاثين ألفاً ، فانطلقَ موسَى وهارونُ بالرِّسالةِ إلى مِصْرَ ، فلمَّا بلَغُوا دارَ فرعون لَم يُؤْذنْ لَهم بالدُّخولِ عليه إلاّ بعدَ مدَّةٍ ، فدخلَ البوَّابُ ؛ وقالَ لفرعونَ : هذا إنسانٌ يدَّعِي أنه رسولُ رب العالَمين ، فقالَ فرعَونُ : إئْذنْ لهُ لعلَّنا نضحَكُ منه. فدخَلاَ عليه وأدَّيَا رسالةَ اللهِ تعالى.

فعرَفَ موسى ؛ لأنهُ نشأ في بيته ، فـ { قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً } ؛ أي صبيّاً صغيراً ، { وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ } ؛ وهي ثلاثونَ سَنة ، { وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ } ؛ يعني قَتْلَ قِبْطِيٍّ ، { وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } ؛ أي مِن الْجَاحِدِيْنَ لِنعمَتي ، وحقِّ تربيَتي ، فربَّيناكَ فِينَا ولِيداً ، فهذا الذي كافَأْتَنا به أن قَتَلْتَ منَّا نَفْساً ، وكفَرْتَ بنعمَتِنا.

ويروَى أنَّ موسَى لَمَّا انطلقَ إلى مصر لتبليغِ الرِّسالةِ ، وكان هارونُ يومئذٍ بمصْرَ ، التقَى كلُّ واحدٍ منهُما بصاحبِهِ ، فانطلَقَا كلاهُما إلى فرعونَ ، أدَّيَا جميعاً الرسالةَ ، وعَرَفَ فرعونُ موسَى ، قال لهُ فرعونُ : { أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً } أي صَغِيْراً ، ومكثتَ عندنا سِنيناً من عُمُرِكَ ، { وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ } أي قتلتَ القبطيَّ { وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } أي الجاحدينَ لِنعمَتي وتربيتي.

(٠/٠)

قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠)

{ قَالَ } موسَى : { فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضَّآلِّينَ } ؛ أي فعلتُ تلك الفعلةَ وأنا من الْجَاهِلِينَ ، لَم يأتِنِي من اللهِ شيءٌ ، ولا يجوزُ أن يكون المرادُ بهذا الإضلال عنِ الْهُدَى ؛ لأن ذلك لا يجوزُ أن يكون على الأنبياءِ. وَقِيْلَ : معناهُ : وأنَا من الْمُخْطِئِيْنَ ، نظيرهُ{ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ }[يوسف : ٩٥]. وَقِيْلَ : مِن النَّاسِينَ ، نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى }[البقرة : ٢٨٢].

(٠/٠)

فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ } ؛ أي هَرَباً منكم إلى مِدْيَنَ لَمَّا خِفْتُكُمْ على نفسِي أن تقتلُونِي بالذي قتلهُ ، { فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً } ؛ أي نُبُوَّةً ، وَقِيْلَ : فَهْماً وعِلْماً ، { وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ } ؛ وإنِّي لأُبَلِّغُكم التوحيدَ والشَّرائعَ.

(٠/٠)

وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ } ؛ قال المفسِّرون : هذا إنكارٌ مِن موسى أن يكونَ ما ذَكَرَ فرعونُ نعمةً على موسى ، واللفظُ لفظ خبَرٍ وفيه تبكيتٌ للمخاطَب على معنى : إنَّكَ لو كنتَ لَمْ تقتُلْ بنِي إسرائيل كانت أُمِّي مُسْتَغنِيةً عن قذفِي في أليَمِّ ، فكأنَّكَ تَمُنُّ عليَّ بما كان بلاؤُكَ سبباً لهُ. وَقِيْلَ : معناهُ : إنَّ فرعونَ لَمَّا قالَ لِمُوسى : أَلَمْ نُرَبكَ فِيْنَا وَلِيْداً ؟ قالَ لهُ موسى : تلكَ نِعْمَةٌ تعدُّها عليَّ لأنَّكَ عَبَّدْتَ بَنِي إسرائيلَ ؛ أي استعبَدْتَهم ، ولو لَم تعبدْهم لكفَلَني أهلِي فلم يُلْقُونِي في

اليَمِّ. يقالُ : استعبدتُ فلاناً وأعْبَدْتُهُ وَتَعَبَّدْتُهُ وَعَبَّدْتُهُ ؛ أي اتَّخَذْتُهُ عَبداً.

وَقِيْلَ : معنَى الآيةِ : أتَمُنُّ عليَّ بذلكَ وأنتَ استعبدتَ بني إسرائيلَ ، فأبطلْتَ نعمتَكَ عليَّ بإساءتِكَ إليهم باستعبادِكَ إيَّاهم ؟ وبأنْ أخَذْتَ أموالَهم وأنفقتَ على موسى منها ؟ وكانت أُمِّي هي التي تربيني ، فأيُّ نعمةٍ لكَ عليَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنْ عَبَّدتَّ } في موضِعها وجهان ؛ أحدُهما : النصبُ بنَزعِ الخافضِ ، والثاني : الرفعُ على البدلِ مِن (نِعْمَتِي).

(٠/٠)

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } ؛ أي قالَ له فرعونُ : وَمَا رَبُّ الْعَالَمِيْنَ ؟ أي قالَ له فرعونُ : أيُّ شَيْءٍ رَبُّ العالَمين الذي تدعُوني إليهِ ، { قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ } ؛ بأنَّ المستحِقَّ للربوبيَّة مَن يكون هذه صفتهُ ، وأنَّ هذه الأشياءَ التي ذكرتُ ليست مِن فِعْلِكم.

فلما قالَ موسى ذلك تَحَيَّرَ فرعونُ ولَم يَرُدَّ جَواباً ينقضُ به القولَ. { قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ } ؛ مقالةَ موسَى؟! وَ { قَالَ } موسَى : { رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الأَوَّلِينَ } ؛ بَيَّنَ أنَّ المستحقَّ للربوبية من هو ربُّ أهلِ كلِّ عصرٍ وزمان ؛ أي الذي خَلَقَ آباءَكم الأوَّلين ، وخلَقَكم من آبائِكم.

فلم يَقْدِرْ فرعونُ على جوابِهِ ، فـ { قَالَ } فرعونُ لجلسائِهِ : { إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } ؛ أي ما هذا بكلامٍ صحيح إذ يزعمُ أن لَهُ إلَهاً غَيْرِي.

فلم يَشْتَغِلْ موسَى بالجواب عن ما نَسَبَهُ إليه من الجنونِ ، ولكن اشتغلَ بتأكيدِ الْحُجَّةِ والزِّيادةِ ، { قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ } ؛ توحيدَ اللهِ ، فإن كنتم ذوي عقولٍ لَمْ يَخْفَ عليكم ما أقولُ.

فلم يُجِبْهُ فرعونُ بشيء ينقضُ حجَّته ، بل هدَّدَهُ و { قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَـاهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ

الْمَسْجُونِينَ } ؛ أي لأَحْبسَنَّكَ مع مَن حبستهُ في السِّجنِ. ظَنَّ بجهلهِ أم يخافَهُ ويتركَ عبادةَ الله ويتخِذ فرعونَ إلَهاً. وكان سجنُ فرعونَ أشدُّ من القتلِ ؛ لأنه كان إذا حَبَسَ الرجلَ طَرَحَهُ في مكانٍ وحدَهُ لا يسمعُ فيه شيئاً ، ولا يُبْصِرُ فيه شيئاً ، وكان يُهْوَي به في الأرضِ. و { قَالَ } موسَى لفرعونَ حين توعَّدَهُ بالسِّجنِ : { أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيءٍ مُّبِينٍ } ؛ يعني لو جِئْتُكَ بأمرٍ ظاهر تعرفُ فيه صِدْقِي وكَذِبَكَ. و { قَالَ } ؛ فرعونُ على وجهِ التهزِئَةِ { قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }. { فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ } أي حَيَّةٌ صفراءُ ، ذكَرٌ عظيمٌ أعظمُ ما يكون من الحيَّاتِ ، قال فرعونُ : فَهَلْ غَيْرُ هَذِهِ! { وَنَزَعَ يَدَهُ } ؛ مِن جيبهِ ، { فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ } ؛ بيَاضاً نُورِيّاً لَها شعاعُ الشَّمسِ ، { لِلنَّاظِرِينَ }.

فإنْ قِيْلَ : كيف سَمَّى العصا ثُعباناً في هذه الآيةِ ، وسَماها جَاناً في آيةٍ أُخرَى حيثُ قال{ كَأَنَّهَا جَآنٌّ }[القصص : ٣١] والجانُّ الخفيفةُ ؟ قُلْنَا : إنَّما سَمَّاها ثُعباناً لعِظَمِ حسِّها ، وسَمَّاها جَاناً لسُرعَةِ مِشْيَتِهِ وحركتهِ ، وفي ذلك ما يدلُّ على عِظَمِ الآيةِ.

فلم يكن لفرعونَ دفعٌ لِمَا شاهدَ إلاَّ أنْ قَالَ : هَذا " سِحْرٌ " سَحَرْتُمُوهُ ، فأوهَمَ أصحابَهُ أنه لا صِحَّةَ لهُ ، وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَاذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَكَانَ الْمَلأُ حَوْلَهُ خَمْسُمِائَةٍ مِنْ أشْرَافِ قَوْمِهِ ، عَلَيْهِمْ الأَسْوِرَةُ) فَقَالَ لَهُمْ : إنَّ هَذا لَسَاحِرٌ حَذِقٌ بالسِّحْرِ ، { يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ } ؛ يُلقِي الفرقةَ والعداوة بينَكم فيُخرِجَكم من بلادكم ، { بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } ؛ أي ماذا تُشِيرُونَ عَلَيَّ في أمرِهِ ، ولو تَفَكَّرَ هؤلاء الْجُهَّالُ في قولهِ ذلكَ لعَلِمُوا أنه ليس بإلهٍ لافتقارِهِ إلى رأيهم ، ولكنَّهم لفَرْطِ جهلِهم مَوَّهَ عَلَيْهِمْ.

(٠/٠)

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ } ؛ أي قال له الملأُ : أخِّرْ أمرَهُ وأمرَ أخيهِ لا يُناظِرُهما إلى أن يبعثَ إلى المدائنِ الشُّرَطَ يحشرونَ السَّحرةَ ، ليصنعَ السَّحرةُ مثلَ ما صنعَ موسى ، ولا يثبتُ له عليكَ حجَّةً.

(٠/٠)

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ } ؛ أي لِميعاد يومِ زِيْنَتِهِمْ وهو يومُ عيدِهم ، { وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُمْ مُّجْتَمِعُونَ } ؛ اجتَمِعُوا لتَنْظُرُوا إلى السَّحرةِ ، { لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ } ؛ أي نتَّبعُ دِينَهم ، { إِن كَانُواْ هُمُ الْغَالِبِينَ } ؛ لِمُوسَى ، ويقالُ : أرادُوا بالسَّحرةِ موسى وهارون { إِن كَانُواْ هُمُ الْغَالِبِينَ } على سِحْرِهم.

(٠/٠)

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً } ؛ أي جُعْلاً ، { إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ } ؛ لِمُوسَى. { قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ } ؛ مع ما أعطَيْتُكم من الأموالِ ، { إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ } ؛ في المرتبةِ والمنْزِلة وللدخُولِ عَلَيَّ.

(٠/٠)

قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ لَهُمْ مُّوسَى أَلْقُواْ مَآ أَنتُمْ مُّلْقُونَ } ؛ أي اطْرَحُوا من أيديكم ما تريدونَ طَرْحَهُ من الحبالِ والعصيِّ ، وهذا أمرُ تَهديدٍ لا أمرُ تحقيقٍ ، { فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ } ؛ أي بمَنَعَتِهِ ، { إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ } ؛ لِمُوسَى ، فامتلأَ الوادِي حيَّاتٍ ، فهابَهُ ذلكَ ، فقيلَ لِمُوسَى : ألقِ عصاكَ ، { فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ } ؛ فألقَاها فصارَتْ حيَّةً عظيمةً تَلْقَفُ ما صَنَعُوا من السِّحرِ ، ثُم أخذها موسى فعادت عَصَا كما كانت ، ولو لَم يوجد لِمَا تلقَفُهُ أثرٌ.

(٠/٠)

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ } ؛ فسجدَتِ السَّحرةُ عندَ ذلك للهِ تعالى لِمَا عَلِمُوا أن ذلك ليس بسِحْرٍ ، وإنَّما هو من عندِ الله ، و { قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ قال لَهم فرعونُ : إيَّايَ تَعْنُونَ ؟ قالُوا : { رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ } ؛ أي صدَّقتُم به قَبْلَ أنْ آمُرَكم بذلكَ ، { إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ } ، وكان فرعونُ أوَّلَ من قَطَعَ وَصَلَبَ. قال ابنُ عبَّاس : (إنَّهُمْ مِنْ سُرْعَةِ سُجُودِهِمْ للهِ كَأَنَّهُمْ أُلْقُواْ).

(٠/٠)

قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ لاَ ضَيْرَ إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ } ؛ أي قالَتِ السَّحرةُ : لا يضُرُّنا ما تصنعُ بنا في الدُّنيا في جَنْب ثواب الله في الآخرةِ ، إنَّا إذا رجَعْنا إلى ربنا مؤمنينَ لنأخذ حقَّنا من الظالِمِ ، { إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَآ } ؛ شِرْكَنا أي يتجاوزُ تأخُّرَنا ، { أَن كُنَّآ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي بأن كُنَّا أوَّلَ المؤمنينَ لِمُوسَى مِن أهلِ الجمع اليومَ ، فكانوا سحرةً في أوَّل النهار شُهَدَاءَ في آخره.

(٠/٠)

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي } ؛ أي بَنِي إسرائيلَ لَيْلاً ، { إِنَّكُم مّتَّبَعُونَ } ؛ وأخبرْهم أنَّ فرعونَ وقومه يتَّبعونَهم ويُنجِيهم اللهُ من ضرَرِهم ، فأسْرَى بهم مُوسى ليلاً إلى البحرِ ، { فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ } ؛ يحشرونَ النَّاسَ ويجمعون لَهُ الناس الجيشَ ، ثُم قال فرعونُ لقومهِ : { إِنَّ هَاؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ } ؛ يعني مُوسَى وأصحابه ، والشِّرْذِمَةُ : الْفِئَةُ الْقَلِيْلَةُ ، والشِّرْذِمَةُ في كلام العرب : القليلُ مِن كلِّ شيءٍ من الناسِ والأموالِ.
رُوي أنَّ هؤلاء الذين اشغَلَهم فرعونُ يومئذٍ سِتُّمائةِ ألفٍ وسبعون ألفاً ، وكان هَامَانُ على مقدِّمةِ فرعونَ ومعه ألْفَا ألفٍ ، وفرعونُ في أكثرِ من خَمسة عشرَ ألفِ ألفٍ.

(٠/٠)

وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ } ؛ أي لفاعِلُونَ ما يُغِيْظُنَا لإظهارِهم خلافَ دِيننا ، وأخْذِهم حُبَلَنا وقَتْلِهم أبكارَنا. وذلك أنَّ اللهَ تعالى أوحَى إلى موسى أنِ اجْمَعْ أولادَ بَنِي إسرائيلَ كلُّ أهلِ أربعةِ أبياتٍ في بيت ، ثُم اذْبَحُوا الأولادَ واضْرِبُوا بدمائِها على أبوابكم ، فإنِّي سَآمُرُ الملائكةَ لا يدخلون بَيتاً على بابِهِ دَمٌ ، وسَآمُرُهم بقتلِ أبكارِ آل فرعونَ ، ثُم أسْرِ بِعِبَادِي ، ففعلَ ذلك ، فلما أصبَحُوا ، قال فرعونُ : هذا عملُ موسَى وقومهِ ، قَتَلُوا أبكارَنا وأخذُوا أموالَنا ، فأخذ في طلبهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ } ؛ قرأ الكوفيُّون وابنُ عامر (حَاذِرُونَ) بالألفِ ؛ أي شَاكُّونَ في السِّلاحِ ، ذوُو أداةٍ وقوَّةٍ وكِرَاعٍ ، وبَنُوا اسرائيلَ لا سلاحَ لَهم. وقرأ الباقون (حَذِرُونَ) أي مُسْتَقْطُونَ خائفونَ شرَّهُم.

(٠/٠)

فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } ؛ يعني فرعونَ وقومَهُ مِن بساتينَ وعُيونٍ جارية ، { وَكُنُوزٍ } ؛ أي وخزائنَ مدَّخَرة من الذهب والفضَّةِ ، { وَمَقَامٍ كَرِيمٍ } ؛ أي مجالسَ رفيعةٍ من مجالسِ الملوك والرؤساء ، { كَذَلِكَ } ؛ فعلنا بهم ، { وَأَوْرَثْنَاهَا } ؛ وأورثنا أرضَهم وديارَهم وأموالهم ، { بَنِي إِسْرَائِيلَ

} ؛ وذلك أنَّ الله ردَّ بني إسرائيلَ إلى مِصْرَ بعدما أُغْرِقَ فرعونُ وقومه ، وأعطاهم جميعَ ما كان لفرعونَ من الأموالِ والعَقَارِ والمساكنِ.

(٠/٠)

فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ } ؛ يعني قومَ فرعون أدركُوا موسى وقومه حين أشْرَقَتِ الشمسُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ } ؛ أي فلَمَّا تَوافى الفريقانِ ، وتقابَلاَ بحيثُ يرى كلُّ فريقٍ صاحبه ، وعايَنَ بعضُهم بعضاً ، قال أصحابُ موسَى : سَيُدْرِكُنَا قومُ فرعونَ ، ولا طاقةَ لنا بهم! { قَالَ } لَهم موسى : { كَلاَّ } ؛ أي لن يُدْرِكُنَا ، ارتَدِعُوا وانزَجِرُوا عن هذه المقالةِ ، { إِنَّ مَعِيَ رَبِّي } ؛ نَاصِري وحَافِظِي ، { سَيَهْدِينِ } ؛ إلى طريقِ النَّجاةِ منهم.

(٠/٠)

فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ } ؛ فصارَ اثنا عَشَرَ طريقاً ، لكلِّ سِبْطٍ طريقٌ ، ووقفَ الماءُ لا يجري ، وكان بين كلِّ طريقين قطعةٌ من الماءِ ، { فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ } ؛ كالجبلِ العظيم ، وهذا البحرُ بحرُ القَلْزَمِ ، تسلكُ الناسُ فيه من اليمنِ ومكَّة إلى مصرَ.

(٠/٠)

وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ } ؛ يعني قومَ فرعون ؛ أي قرَّبناهم إلى الهلاكِ ، وقذفْنَاهم في البحرِ

، وأدْنَيْنَا بعضَهم من بعضٍ ، وجمعنَاهُم فيه بما يسرُّنا لبنِي إسرائيل من سُلوكِ البحرِ ، فكان ذلك سببُ قُرْبِهِمْ من البحرِ حين اقتحموهُ. وسُمِّي (الْمُزْدَلِفَةُ) مزدلفةً لاجتماعِ الناس فيها ، فلمَّا تكاملَ جنودُ فرعونَ في البحرِ انطبقَ عليهم فغرقُوا جميعاً ، { وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ } ؛ مِن الغرقِ ، { ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ } ؛ أي فرعونَ وقومه.

(٠/٠)

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً } ؛ أي إنَّ في ذلك الانْفِلاَقِ الذي صارَ نجاةَ بني اسرائيل ، وفي الانطباق الذي كان سببَ غَرَقِ آلِ فرعونَ لآيةً على توحيدِ اللهِ وصدق نبوَّة موسى ، { وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ } ؛ أي لَم يكن قومُ فرعونَ مع وُضُوحِ الأدلةِ على وحدانيَّة اللهِ مصدقين ، { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ } ؛ أي القاهرُ المنتقم من الكفَّار ، { الرَّحِيمُ } ، بعبادهِ ، ولَم يكن آمَنَ مِن أهلِ مصر غيرُ آسْيَةَ بنت مُزاحم ، وحِزقيل الْمُؤمِنُ ، ومريَمُ بنتُ ناموثية التي دَلَّتْ على عظامِ يُوسُفَ ، فلذلكَ قال { وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ }. وَقِيْلَ : معنى قوله { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ } أي العزيزُ في انتقامهِ من أعدائه حين أغرَقَهم ، الرَّحِيْمُ بالمؤمنينَ حين أنْجَاهُمْ.

(٠/٠)

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ } ؛ أي إقرَأ يا مُحَمَّدُ على قومِك ، { إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ } ؛ أي فنُقِيمُ عليها عابدينَ ، مُقيمين على عبادتِها ، قال بعضُ العلماءِ : إنَّمَا { فَنَظَلُّ لَهَا } لأنَّهم كانوا يعبدونَها بالنَّهارِ دون الليلِ ، { قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ } ؛ أي هَلْ يسمعونَ دُعاءَكم إن دعَوتُموهم أو ينفَعُونكم إن دعَوتُموهم ، أو يضرُّونكم إن لَم تدعوهم. وقال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : أوْ يَرْزُقُونَكُمْ أوْ يَكْشِفُونَ عَنْكُمُ الضُّرَّ).

(٠/٠)

قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } ؛ فنحنُ نَقْتَدِي بهم ، { قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ } ؛ أي قال لَهم إبراهيمُ : أفَرَأيْتُمْ هذا الذي تعبدونَهُ أنتم وآباؤُكم الْمُتَقَدِّمُونَ ، { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ } ؛ أي فإنَّني أُعادِيهم ، أتبرَّأُ منهم. وقولهُ تعالى : { إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ }. رُوي أنَّهم كام يعبدونَ اللهَ مع الأصنامِ ، فَتَبَرَّأ إبراهيمُ مِن جميعِ ما يعبدونَهُ إلاّ من عبادةِ الله. وإنَّما قال { عَدُوٌّ لِي } على التوحيدِ في موضع الجمعِ على معنى : أنَّ كلَّ واحدٍ منهم عَدُوٌّ لِي. ويقالُ : إنَّ قولَهُ تعالى { عَدُوٌّ } في موضعِ المصدر ، كأنَّهُ قالَ ذوُو عداوةٍ ، فوقعت الصفةُ موقعَ المصدرِ ، كما يقعُ المصدرُ موقعَ الصفةِ في رَجُلٍ عَدْلٍ ، ويجوزُ أن يكونَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ } استثناءٌ منقطعٌ ، معناهُ : ولكنَّ ربَّ العالَمين الذي خَلَقَنِي ليس بعدُوٍّ لِي هو يهدينِ ؛ أي يُرشِدني إلى الحقِّ ، وذلك أنَّهم كانوا يزعمُونَ أن أصنامَهم هي التي تَهديهم ، فقالَ إبراهيمُ ردّاً عليهم : { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } ؛ إلى الدِّين والرُّشدِ لا ما تعبدون.

(٠/٠)

وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } ؛ أي هو رَازِقي ، فِمن عنده طَعَامِي فهو الذي يُشبعني إذا جِعْتُ ، ويَرْوِيني إذا عطشتُ ، { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } ؛ أي يُعافِيني من المرضِ ، وذلك أنَّهم كانوا يقولونَ : المرضُ من الزَّمانِ ، والأغذيةُ والشِّفاء من الأطبَّاءِ والأدويةِ ، فأخبَرَ إبراهيمُ أنَّ الذي أمْرَضَ هو الذي يُشْفِي وهو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، ولَم يقُلْ إبراهيمُ فأَمْرَضْتَنِي ؛ لأنه يقالُ مَرِضْتُ ، وإنْ كان المرضُ بخَلْقِ الله وقضائِهِ ، ولا يقالُ أمْرَضَنِي اللهُ.

(٠/٠)

وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ } ؛ أي هو الذي يُمِيتُني في الدُّنيا ثُم يُحيِيْنِي في الآخرةِ للبعثِ ، { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي } ؛ معناهُ : والذي أعلمُ وأرْجُوا أن يغفرَ لِي يومَ الحساب. وذكرَهُ بلفظِ الطَّمعِ ؛ لأن ذلكَ أقربُ إلى حُسْنِ الأدب. وقال بعضُ المفسِّرين : يَعْنِي الكذباتِ الثلاث ، قولهُ : إنِّي سقيمٌ ، وقولهُ : بَلْ فَعَلَهُ كبيرُهم هذا ، وقولهُ لسارةَ : هي أُخْتِي. وزاد الحسنُ والكلبيُّ قولَهُ أيضاً للكواكب : هَذا رَبي.
قال الزجَّاجُ : (إنَّ الأَنْبِيَاءَ بَشَرٌ يَجُوزُ أنْ تَقَعَ مِنْهُمُ الْخَطِيْئَةُ ، إلاَّ أنَّهُمْ لاَ تَكُونُ مِنْهُمُ الْكَبِيْرَةُ ؛ لأنَّهُمْ مَعْصُومُونَ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ الدِّينِ } ؛ أي يومَ الجزاء والحساب.

(٠/٠)

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً } ؛ يريدُ به النبوَّةَ بعد نُبُوَّةٍ ، وإنَّما أرادَ : زِدْنِي عِلْماً إلى علمٍ وفِقْهاً إلى فقهٍ ، { وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } ؛ أي بالنبيِّين مِن قَبْلِي في الدرجة والمنْزِلة والثواب. والصلاحُ هو الاستقامةُ على ما أمَرَ اللهُ بهِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ } ؛ أرادَ به الثناءَ الحسَنَ ؛ أي اجعَلْ لِي ثناءً حسناً في الدِّين يكونُ بعدي إلى يومِ القيامة. وقد استجابَ اللهُ دعاءَهُ حين أحبَّهُ أهلُ الأديان كلُّهم. وَقِيْلَ : واجعَلْ لِي في ذرِّيتي مَن يقومُ بالحقِّ ويدعو إليه ، وهو مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ومَنِ اتَّبَعَهُ ، فإنَّهم هم الذين أظْهَرُوا شرائعه وفضائلَهُ.

(٠/٠)

وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ } ؛ أي أدخِلْنِي الجنَّةَ واجعلني مِن الذين يَرِثُونَ الفردوسَ ،

{ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ } ؛ أي مِن المشركين ، وإنَّما دَعَا إبراهيمُ لأبيه لِمَوْعِدَةٍ وعَدَها إياهُ ، فلما تَبَيَّنَ له أنه عدوٌّ لله تَبَرَّأ منهُ ، وكان هذا الدعاءُ قَبْلَ أن يَتَبَرَّأ منهُ. والضَّالُّ هو الذاهبُ عن طريقِ الحقِّ.

(٠/٠)

وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ } ؛ أي لا تَفْضَحْنِي ولا تُهْتِكْ سَتْرِي يومَ القيامةِ ، يوم تبعثُ الخلقَ. وَقِيْلَ : معناهُ : ولا تعذِّبْني يومَ تبعثُ الخلائقَ ، وإنَّما قال ذلكَ مع علمهِ أنه لا يخزيهِ ، إمَّا على طريق التَّعَبُّدِ وإنا حَثّاً لغيرهِ على أن يقتدي بهِ في مِثْلِ هذا الدُّعاء.
ثُم فَسَّرَ ذلكَ اليوم ؛ فقال : { يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ } ؛ أي لا ينفعُ ذا المالِ مالهُ الذي كان في الدُّنيا ، ولا ينفعهُ بَنُوهُ ولا يواسُونَهُ بشيءٍ مِن طاعتِهم ، ولا يحملونَ شيئاً من معاصيهِ ، وقولهُ تعالى : { إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } ؛ يعني من الشِّرْكِ والنفاقِ ، فإنه ينفعهُ سلامةُ قلبهِ. وَقِيْلَ : القلبُ السَّليمُ هو الصحيحُ وهو قلبُ المؤمنِ ، وقلبُ الكافرِ المنافقِ مريضٌ.
وقال أهلُ الْمَعَانِي في تفسيرِ هذه الآياتِ أقوالاً غيرُ هذه ، فقال بعضُهم : معنى{ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ }[الشعراء : ٧٨] أي الذي خلَقَني في الدُّنيا على فطرتهِ فهو يهدينِ في الآخرة إلى جنَّتِهِ ، وقولهُ تعالى{ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ }[الشعراء : ٧٩] أي يُطعِمُني أيَّ طعامٍ شاءَ ، ويسقينِي أيَّ شرابٍ شاءَ.
قال محمَّدُ بن كثير : (صَحِبْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ بمَكَّةَ ، فَكَانَ يَأْكُلُ مِنَ السَّبْتِ إِلَى السَّبْتِ كَفّاً مِنَ الرَّمْلِ). وعن الحجَّاج بن عبدِالكريم قالَ : (خَرَجْتُ مِنْ بَلَخَ فِي طَلَبِ إِبْرَاهِيْمَ بْنَ أَدْهَمٍ فَوَجَدْتُهُ بِحِمْصَ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَلَبِثْتُ مَعَهُ يَوْمِي ذلِكَ ، فَقَالَ : لَعَلَّ نَفْسَكَ تُنَازِعُكَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الطَّعَامِ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ ، فَأَخَذ رَمَاداً وَتُرَاباً وَخَلَطَهُمَا وَأَعْطَانِيَهُ فَأَكَلْتُهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ وَأَنْشَأَ يَقُولُ : اخْلِطِ التُّرَابَ بالرَّمَادِ وَكُلْهُ وَازْجُرِ النَّفْسَ عَنْ مَقَامِ السُّؤَالِوقال أبو بكرٍ الورَّاقُ : (مَعْنَى يُطْعِمُنِي بلاَ طَعَامٍ ، وَيَسْقِينِي بلاَ شَرَابٍ) يُشْبِعُنِي رَبي وَيَرْوِيْنِي مِنْ غَيْرِ علاقة ، كَمَا قَالَ صلى الله عليه وسلم : " إِنِّي أبيْتُ يُطْعِمُنِي رَبي وَيَسْقِينِي ". وقال عليُّ بن قادمٍ : (كَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ أبي نُعَيْمٍ لاَ يَأْكُلُ فِي شَهْرٍ إلاَّ مَرَّةً! فَبَلَغَ ذلِكَ الْحَجَّاجَ ، فَدَعَاهُ فَأَدْخَلَهُ بَيْتاً وَأَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً ، ثُمَّ فَتَحَهُ ، وَلَمْ يَشُكَّ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ ، فَوَجَدَهُ قَائِماً يُصَلِّي ، فَقَالَ : يَا فَاسِقُ أتُصَلِّي بغَيْرِ وُضُوءٍ؟! فَقَالَ : يَا حَجَّاجُ ؛ إِنَّمَا يَأْكُلُ الطَّعَامَ مَنْ يُخْرِجُ وَيَشْرَبُ ، فَأَنَا عَلَى الطَّهَارَةِ الَّتِي أَدْخَلْتَنِي عَلَيْهَا هَذا الْبَيْتَ) ، وقال ذُو النُّونُ : (مَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى

: { يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ }[الشعراء : ٧٩] أيْ يُطْعِمُنِي طَعَامَ الْمَعْرِفَةِ ، وَيَسْقِيْنِي شَرَابَ الْمَحَبَّةِ. ثُمَّ أنْشَأَ يَقُولُ : شَرَابُ الْمَحَبَّةِ خَيْرُ شَرَاب وَكُلُّ شَرَابٍ سِوَاهُ سَرَابُوقال أبو يزيدٍ البُسطَامِيُّ : (إنَّ للهِ شَرَاباً يُقَالُ لَهُ شَرَابَ الْمَحَبَّةِ ، إدَّخَرَهُ لأَفَاضِلِ عِبَادِهِ ، فَإذا وَصَلُواْ اتَّصَلُواْ ، فَهُمْ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيْكٍ مُقْتَدِرٍ).
وقال الْجُنَيْدُ : (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُرَاةً إلاَّ مَنْ لَبسَ لِبَاسَ التَّقَوَى ، وَجِيَاعاً إلاَّ مَنْ أكَلَ طَعَامَ الْمَعْرِفَةِ ، وَعَطَاشَى إلاَّ مَنْ شَرِبَ شَرَابَ الْمَحَبَّةِ), وقولهُ تعالى{ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ }[الشعراء : ٨٠] قال جعفرُ الصَّادِقُ : (إنِّي إذا مَرِضْتُ بالذُنُوب فَهُوَ يَشْفِيْنِي بالتَّوْبَةِ). وقال بسطامُ بن عبدِالله : (إذا أمْرَضَتْنِي مُقَاسَاةُ الْخَلْقِ شَفَانِي بذِكْرِهِ وَالأُنْسِ بهِ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ }[الشعراء : ٨١] ، قال أهلُ المعرفةِ : يُمِيتُنِي بالعدلِ ويُحييني بالفضلِ ، يُمِيتُني بالمعصيةِ ويُحييني بالطاعةِ ، يُمِيتُني بالفراقِ ويُحييني بالتَّلاقِ ، يُمِيتُني بالجهلِ ويُحييني بالعقلِ ، يُمِيتُني بالخذلانِ ويُحييني بالتوفيقِ.

(٠/٠)

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ } ؛ أي قَرُبَتْ وأدنيتُ لَهم حتى نَظَرُوا إليها ، { وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ } ؛ أي أُظْهِرَتْ وكُشِفَتْ للضَّالين عن الْهُدَى ، { وَقِيلَ لَهُمْ } ؛ للضَّالِّين في ذلكَ اليومِ على وجه التَّوبيخِ : { أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ } ؛ أي أينَ آلِهتُكم التي تعبدونَها مِن دون اللهِ ؟ هل يدفعونَ العذابَ عنكم ، { هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ } ؛ هل { يَنتَصِرُونَ } ؛ لأنفُسِهم ؛ أي يدفعونَ عن أنفسِهم.
ثُم يُؤْمَرُ بهم فيُلْقَوْنَ في النارِ ، فلذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ } ؛ وقال الزجَّاجُ : (طُرِحَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) ، وقال ابنُ قتيبةَ : (أُلْقُواْ عَلَى رُؤُوسِهِمْ) ، وقال مقاتلُ : (قُذِفُواْ فِيْهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ) ، قال السديُّ : (يَعْنِي الآلِهَةَ وَالْمُشْرِكِيْنَ) ، وقال عطاءُ : (هُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَجُنُودُ إبْلِيْسَ أجْمَعُونَ ، يَعْنِي ذُرِّيَّةَ إبْلِيْسَ كُلَّهُمْ).
وَقِيْلَ : معنى (كُبْكِبُوا) : أُجْمِعُواْ وهم كُفَّارُ مكَّة ، وكفارُ الجنِّ والإنسِ وآلِهتُهم وذريَّةُ إبليسَ حتى صَارُوا كُبَّةً واحدةً وطُرِحُوا في النارِ.

(٠/٠)

وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥)

(٠/٠)

قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦)

(٠/٠)

تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ } ؛ أي في النارِ مع آلِهتهم ورُؤسائِهم : { تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } ؛ وقولهُ تعالى { إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ أي تَاللهِ ما كُنَّا إلاّ فِي ضلالٍ مُبين حيثُ سوَّيناكُمْ برَبِّ العالَمين ، فأَعْظَمْنَاكُمْ وعَبَدْنَاكم وعَدَلْنَاكم به ، يُقِرُّونَ على أنفسِهم بالخطأ ، { وَمَآ أَضَلَّنَآ } ؛ عنِ الْهُدَى ، { إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ } ؛ يعني الشَّياطينَ. وَقِيْلَ : أضَلُّونا الذين اقْتَدَيْنَا بهم ، { فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ } ؛ يشفعُ لنا مِن الملائكةِ والنبيِّين والمؤمنينَ حين يَشْفَعُونَ لأهلِ التوحيدِ ، { وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ } ؛ أي ولا ذِي قرابةٍ يهمُّهُ أمرُنا. والْحَمِيْمُ : القريبُ الذي تَوَدُّهُ وَيَوَدُّكَ.

قال ابنُ عبَّاس : (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْمُؤْمِنِ الْمُذْنِب وَالصَّدِيْقِ الصَّاحِب الَّذِي يَصْدُقُ فِي الْمَوَدَّةِ). وفي الحديثِ : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ : " إِنَّ الرَّجُلَ يَقُولُ فِي الْجَنَّةِ : مَا فَعَلَ صَدِيْقِي فُلاَنٌ ؟ وَصَدِيْقُهُ فِي النَّارِ ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَخْرِجُواْ لَهُ صَدِيْقَهُ إِلَى الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُ مَن بَقِيَ : فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِيْنَ ، وَلاَ صَدِيْقٍ حَمِيْمٍ ".

ثُم قالوا : { فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً } ؛ أي رَجْعَةً إلى الدُّنيا ، { فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ المصدِّقين بالتوحيدِ ليحِلَّ لنا الشفاعةَ كما حَلَّتْ لأهلِ التوحيدِ.

(٠/٠)

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً } ؛ أي فيما أخبرَ من قصَّة إبراهيمَ واختصامِ أهل النَّار ، وتَبَرُّؤِ بعضِهم من بعضٍ لَعِبْرَةٌ للعُقلاءِ مِن بعدِهم ، { وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } ؛ أي الغالبُ على تعجيلِ الانتقامِ بالإمهالِ إلى أن يُؤمِنوا ، والْمُنْعِمُ عليهم بعدَ التوبةِ.

(٠/٠)

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ } ؛ قال الزجَّاجُ : (دَخَلَتِ التَّاءُ هَا هُنَا ، وَ(قَوْمُ) مُذكَّرٌ ؛ لأنَّ الْمُرَادَ الْجَمَاعَةُ) أي كذبَتْ جماعةٌ قومُ نوحٍ ومَن قبلَهُ من الرُّسل ، { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ } ؛ عذابَ اللهِ بتوحيده وطاعتِهِ ، وكان أخوهُم من النَّسب لا من جهةِ الدِّين ، { إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ } ؛ على الرِّسالةِ فيما بَيني وبين ربكم.
وَقِيْلَ : معناهُ : كنتُ أمِيناً فيكم قبلَ اليومِ ، فكيفَ تتَّهمُوني اليومَ ، { فَاتَّقُواْ اللَّهَ } ؛ فيما أمَرَكم به ، { وَأَطِيعُونِ } ؛ فيما أدعُوكم إليه وأطيعوني فيما أمُرُكم به من الإيْمان والتوحيد. { وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ } ؛ أي على الدُّعاء إلى التَّوحيدِ ، { مِنْ أَجْرٍ } ؛ مَا ، { إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ وَقِيْلَ : ما أسألُكم على تبليغِ الوحي والرِّسالةِ مَالاً فيصدُّكم عن القَبولِ منِّي ، وتعتقدون فِيَّ الطمعَ. وقولهُ تعالى : { فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ } ؛ أي اتَّقُوا عقابَ اللهِ ، وأطِيعُوا أمْرِي ، وتكريرُ { فَاتَّقُواْ اللَّهَ } : لأنَّ الأول (اتَّقُوا اللهَ وَأطِيْعُونِ) لأنِّي رسولُ رب العالَمين أمينٌ ، والثاني (اتَّقُواْ اللهَ وَأطِيْعُونِ) لأنِّي مَا أسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ.
ف { قَالُواْ } له : { أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ } ؛ أي أنُقِرُّ بكَ ونصدِّقُكَ وقد اتَّبَعَكَ سَفَلَتُنَا وهم الأرْذلُونَ الأقَلُّونَ ، وكان قد آمَنَ بنوحٍ ضُعفاءُ قومهِ وبنُوهُ ، وكان أكثرُ مَن اتَّبعَهُ يخصُّون بصناعاتٍ خَسِيسَةٍ مثل الْحُوَكِ والأسَاكِفَةِ ، فلذلك قال لهُ أشرافُ قومهِ : { وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ } ، ويقرأُ :

(وَأتْبَاعُكَ الأَرْذلُونَ) وهي قراءةُ يعقوبَ ؛ أي أشْيَاعُكَ وأهلُ دِينك. قال الزجَّاج : (وَالصِّنَاعَاتُ لاَ تَضُرُّ فِي بَاب الدِّيَانَاتِ) ، وقال عطاءُ : (يَعْنُونَ بالأَرْذلُونَ : الْمَسَاكِيْنَ الَّذِيْنَ لَيْسَ لَهُمْ مَالٌ).

(٠/٠)

قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ أي قال نوحُ : ما أعلَمُ أعمالَهم وصنائِعَهم ، ولَم أكَلَّفْ ذلكَ ، وإنَّما كُلِّفْتُ أن أدعُوَهم ، ولا أسألُ عمَّا كانوا يعملونَ ، ولا أطلبُ عِلْمَ صنائِعِهم ، وإنَّما العيبُ في المعاصِي لا في خسَاسَةِ الصِّناعة.

(٠/٠)

إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ } ؛ أي ما حسَابُهم فيما يعملونَ { إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ } لو تعلَمُون ما عاقبتموهم بصنائِعِهم. وَقِيْلَ : إنَّهم نَسَبُوا قومَهُ الذين آمَنُوا به إلى النِّفاقِ وإضمارِ الكُفْرِ ، فقالَ : { إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي } أي ما جزاؤُهم إلاَّ على رَبي { لَوْ تَشْعُرُونَ }.

(٠/٠)

وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي لا أطْرُدُهُمْ مِن عندي مع إظهارِهم الإيْمانِ بسبب فَقْرِهم ، وطعنِكُم عليهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } ؛ أي ما أنَا إلاَّ معكم بموضِعِ المخافة لتحذرُوها ، فمَن قَبِلَ قَرَّبْتُهُ ، ومَن رَدَّ باعدتهُ ؛ ولَم أُكَلَّفْ عِلْمَ ما في الضمائرِ.

(٠/٠)

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يانُوحُ } ؛ أي لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ عما تقولُ ، { لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ } ؛ الْمَقْتُولِيْنَ بالحجارةِ ، { قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي فاقضِ بيننا قضاءً يكون بنَجَاتِنا وهلاكِ عدُوِّنا.

(٠/٠)

فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ } ؛ في السَّفينةِ المملوءَةِ من الناسِ والبهائم والسِّباع والطيرِ ، فذلك قوله تعالى : { فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ } ؛ أي الذي قد مُلِئَ مما ذكرنا من جميعِ الحيوان ، وقولهُ تعالى : { ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ } ؛ أي بعد نَجَاةِ نُوحٍ ومَن معه أغْرَقْنَا الآخرينَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً } ؛ أي في إغْرَاقِ الكافرينَ ونَجَاةِ المؤمنين في السَّفينة لعلامةً تدلُّ على وحدانيَّة اللهِ وكمالِ قُدرتهِ ، { وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم } ؛ أكثرُ قومِ نُوحٍ ، { مُّؤْمِنِينَ } ؛ مع قيامِ الْحُجَّةِ ، { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ } ؛ أي القادرُ على أخذِ الأعداء ، الْمُنْتَقِمُ منهم ، { الرَّحِيمُ } ، بالأولياءِ ، الْمُنْعِمُ عليهم.

(٠/٠)

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ } ؛ التأنيثُ بمعنى القبيلةِ ، أريد بعَادٍ القبيلةُ ، والمعنى : كذبَتْ عَادٌ هوداً وجَماعة المرسلينَ ، { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ } ؛ في النَّسب : { أَلاَ تَتَّقُونَ } ؛ عبادةَ غيرِ الله ، { إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ } ؛ أرسلنِي اللهُ إليكم وائتَمَنَنِي على الرِّسالةِ ، { فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ } ؛ على تَبليغِ الرِّسالة ، { مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ }.

(٠/٠)

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ } ؛ الرِّيْعُ : هو المكانُ المرتفعُ. قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : أَتَبْنُونَ بِكُلِّ شَرْفٍ) ، وقال مقاتلُ والكلبي والضحَّاك : (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ طَرِيْقٍ آيَةً ؛ أيْ بُنْيَاناً وَعَلَماً مُتَمَيِّزاً عَنْ سَائِرِ الأَبْنِيَةِ ، تَعْبَثُونَ بِمَنْ يَمُرُّ فِي الطَّرِيْقِ).
والمعنى : بكلِّ طريقٍ ، بالموضعِ المرتفع بُنياناً لتُشْرِفُوا على المارَّةِ فتَسْخَرُوا منهم ، وتعبَثُوا بهم. وَقِيْلَ : معنى قولهِ (تَعْبَثُونَ) أي تَبْنُونَ ما تستغْنُون عنهُ ولا تسكنونَهُ عَبَثاً منكم ، يسمَّى بناؤُهم عَبَثاً ؛ لأنَّهم كانوا يُسْرِفُونَ في البناءِ ، فيَبْنُونَ فوقَ الحاجة ، ويقصُدون بذلك التفاخرَ والتكاثر ، ومن ذلك سُمِّيَ كلُّ لَعِبٍ لا لذةَ فيه عَبَثاً ، والذي يكونُ فيه لَذةٌ لَعِباً. وقال الوالبي عن ابنِ عبَّاس : (بِكُلِّ رَيْعٍ ؛ أيْ بِكُلِّ شَرْفٍ) ، وقال قتادةُ والضحَّاك : (بِكُلِّ طَرِيْقٍ) ، وعن مجاهد : (الرَّيْعُ : الثَّنْيَةُ الصَّغِيْرَةُ) ، وَقِيْلَ : المنظرةُ ، وقال عكرمة : (بِكُلِّ وَادٍ).

(٠/٠)

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (هِيَ الأَبْنِيَةُ) ، وقال مجاهدُ : (الْمَصَانِعُ قُصُورٌ مُشَيَّدَةٌ) ، وَقِيْلَ : هي الْحُصُونُ. وقال عبدُالرزاق : (الْمَصَانِعُ عِنْدَنَا بِلُغَةِ الْيَمَنِ : الْقُصُورُ ؛ وَاحِدَتُهَا مَصْنَعَةٌ). وقال الكلبيُّ : (هِيَ الْقُصُورُ وَالْحُصُونُ). وَقِيْلَ : هي الْمَبَانِي التي يصنَعُها الناس من البساتينِ وغيرها. وَقِيْلَ : هي مَجَامِعُ الماءِ وهي الْحِيَاضُ ، وواحدُ المصانعِ مَصْنَعَةٌ.

وقولهُ تعالى : { لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ } ؛ أي كأنَّكُم تَخْلُدُونَ ؛ أي سَتَبْقُونَ في بناءِ المصانع ، كأنَّهم يخلُدون فيها فلا يَموتُون. و(لَعَلَّ) تأتِي في الكلامِ بمعنى (كَأَنَّ) مِن قولهِ{ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ }[الشعراء : ٣] أي كأنَّكَ قاتلٌ نفسَكَ إن لَم يُؤْمِنُوا وَقِيْلَ : معناهُ : تتَّخِذُونَ ذلك رجاءَ أن تَخلُدوا وأنتم لا تَخلُدون.

(٠/٠)

وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ } ؛ أي إذا بَطَشْتُمْ بمن دُونَكم بَطَشْتُمْ متكبرين ومتجَبرين ، ضَرباً بالسَّوط وبالسَّيفِ ، تقتلُونَ على الغَضَب. والمعنى : إذا عَاقَبْتُمْ قَتَلْتُمْ. والبَطْشُ : هو الأخْذُ بالشِّدَّةِ ، والْجَبَّارُ : هو العَالِي بالقُدرةِ ، يقالُ : نَخْلَةٌ جَبَّارَةٌ إذا كانت مرتفعةً لا تنالُها الأيدي ، وهي صِفَةُ مَدْحِ الله تعالى ؛ لأن هذا المعنَى حقيقةٌ فيهِ ، وهو صِفَةُ ذمٍّ لغيرهِ لأنه كَذِبٌ فيهِ.

(٠/٠)

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ } ؛ أي اتَّقُوا عذابَ الله بإصرَارِكم على ما أنتُم عليه ، { وَاتَّقُواْ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ } ؛ مِن النِّعمة والخيرِ ، { أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } ؛ فيه بيانُ بعضِ النِّعم ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } ؛ أي إنِّي أعلمُ أنه سيَنْزِلُ بكم عذابٌ عظيمٌ إنْ لَم تؤمِنُوا ، يريدُ به العذابَ الذي أُهْلِكُوا بهِ.

(٠/٠)

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨)

وقولهُ تعالى : { قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الْوَاعِظِينَ } ؛ أي سواءٌ علَينا أوَعَظْتَنا أم لَم تعِظْنا فلا نتركُ هذه العبادةَ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ هَاذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ } ؛ أي ما هذا الذي تقولُ يا هودُ إلاَّ كَذِبُ الأوَّلين ، وهذا قولُ ابنِ مسعودٍ ومجاهد. والْخُلُقُ والاخْتِلاَقُ هو الكَذِبُ. ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً }[العنكبوت : ١٧].
قُرئ (خُلُقُ الأَوَّلِيْنَ) بضمِّ الخاء واللام ؛ أي عَادَةُ الأوَّلِيْنَ ، والمعنى : ما هذا الذي نحنُ فيه إلاّ عادةُ الأوَّلين مِن قبلِنا يَعْبَثُونَ ما عاشُوا ثُم يَموتون ولا بَعْثَ ولا حسابَ ، { وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } ؛ على ما نفعلُ.

(٠/٠)

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكَذَّبُوهُ } ؛ بالعذاب في الدُّنيا ، { فَأَهْلَكْنَاهُمْ } ؛ بالرِّيحِ. وقولهُ تعالى { فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ } أي كذبُوا هُوداً بعد وُضُوحِ الْحُجَّةِ فأهْلَكْنَاهُمْ بريْحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً } ؛ أي إنَّ في إهلاكِنا إياهم مع شِدَّةِ قوَّتهم لآيةً بأضْعَفِ الأشياءِ وهي الريحُ للدلالةِ على وحدانيَّتنا وصدقِ نبوَّةِ هُودٍ ، { وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ } ؛ باللهِ ، فإنه لَم يُؤْمِنْ منهم إلاّ قليلٌ ، { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }.

(٠/٠)

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ ظاهرُ المعنى.

(٠/٠)

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَآ آمِنِينَ } ؛ أي قالَ لَهم صَالِحُ : أَتُتْرَكُونَ في الدُّنيا آمِنين من الموتِ والعذاب تأكلُونَ وتشربون وتَمتَّعون ولا تُكَلَّفُونَ. وقولهُ تعالى : { فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } ؛ أي أتَظُنُّونَ أنَّكم تُترَكُونَ في بساتين ومياهٍ ظَاهرة ، { وَزُرُوعٍ } ، وحُرُوثٍ ، { وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ } ؛ أي ثَمرها نَضِيْجٌ مُدرَكٌ نَاعِمٌ ، والنَّضِيْجُ : هو الرَّخوُ اللَّيِّنُ اللطيفُ البالِغُ ، { وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ } ؛ أي تَنْقُبُونَ في الجبالِ { بُيُوتاً فَارِهِينَ } ؛ أي أشِرِيْنَ بَطِرِيْنَ.
وقرأ ابنُ عامر والكوفيُّون : (فَارِهِيْنَ) بالألفِ أي حَاذِقِيْنَ بنَحْتِهَا ، مأخوذٌ مِن قولِهم : فَرِهَ الرجلُ فَرَاهَةً فهو فَارِهٌ ، ويقالُ : الفَرِهُ وَالْفَارِهُ بمعنى واحد. وَقِيْلَ : إنَّ الهاء من قولهِ (فَرِهِيْنَ) بدلٌ من إلْحَاقِ الفَرَحِ في كلامِ العرب : الأشَرُ والبَطَرُ ، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ }[القصص : ٧٦] ، { فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ }.

(٠/٠)

وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تُطِيعُواْ أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ } ؛ أي أمرَ رُؤسَائِكم وكُبَرَائِكم الذين يُفْرِطُونَ في الشِّرك والمعاصِي ، { الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ } ؛ قال مقاتلُ : (هُمْ التِّسْعَةُ الَّذِيْنَ عَقَرُواْ النَّاقَةَ ، وَهُمُ الَّذِيْنَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ بالْمَعَاصِي) { وَلاَ يُصْلِحُونَ } ؛ أي ولا يُطيعون اللهَ فيما أمَرَهم.

(٠/٠)

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا } ؛ أي قالَ له قومهُ : إنَّما أنتَ مِمَّنْ سُحِرَ مرَّةً بعد مرةٍ ، فلا نؤمنُ بكَ. ويقال : الْمُسَحَّرُ هو الْمُعَلَّلُ بالطعامِ والشَّراب ، والسِّحْرُ مَجرَى الطعامِ ، يقال : انتفخَ سِحْرُهُ ؛ أي رئَتهُ والمعنى : لستَ بمَلَكٍ ، إنَّما أنتَ بشرٌ مثلُنا لا تَفْضُلُنَا في شيءٍ ، لستَ بملَكٍ ولا رسولٍ ، { فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } ؛ إنكَ رسولُ اللهِ إلينا.

قال ابنُ عبَّاس : (سَأَلُوهُ أنْ يُخْرِجَ لَهُمْ نَاقَةً حَمْرَاءَ عَشْرَاءَ مِنْ صَخْرَةٍ مَلْسَاءَ ، فَتَضَعُ وَنَحْنُ نَنْظُرُ ، وَتَرِدُ هَذا الْمَاءَ فَتَشْرَبُ. فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى تِلْكَ الصَّخْرَةِ الَّتِي ذكَرُوهَا ، ثُمَّ دَعَا اللهَ تَعَالَى فَتَمَخَّضَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ كَمَا تَتَمَخَّضُ الْمَرْأَةُ الْحَامِلُ عِنْدَ الْوِلاَدَةِ ، فَخَرَجَتْ مِنْهَا نَاقَةٌ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي سَأَلُوهَا لاَ نَظِيْرَ لَهَا فِي النُّوقِ ، وَكَانَ يَسُدُّ جَنَبَاهَا مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ مِنْ عِظَمِهَا).

ف { قَالَ } لَهم صالِحُ : { هَاذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ } ؛ أي اجْعَلُوا الشِّرْبَ بينها وبينَكم مُنَاوَبَةً ، لَها نَوْبَةٌ يوم لا تحضُرون معها ، ولكُم نوبةٌ يوم لا تحضرُ معَكُم. قال قتادة : (فَكَانَ يَوْمُ شِرْبِهَا تَشْرَبُ مَاءَهُمْ كُلَّهُ أوَّلَ النَّهَارِ وَلاَ يَبْقَى لَهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَتَسْقِيهِمُ اللَّبَنَ حَتَّى تَمْلأَ جَمِيْعَ آنِيَتِهِمْ ، فَإِذا كَانَ يَوْمَ شِرْبِهم كَانَ الْمَاءُ لَهُمْ وَلِمَوَاشِيهِمْ لاَ تُزَاحِمُهُمُ النَّاقَةُ فِيْهِ). والشِّرْبُ في اللغة : هو النَّصِيْبُ مِن الماءِ ، والشُّرْبُ بضمِّ الشين المصدرُ ، والشَّرْبُ بفتح الشينِ جماعةُ الشَّرَاب.

(٠/٠)

وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ } ؛ أي تعقِرُوها ولا تؤذُوها ، وذرُوها تأكلُ في أرضِ الله ، فإنَّكم إنْ تَمسُّوها بسوءٍ ، { فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ }.

(٠/٠)

فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَادِمِينَ } ؛ فعَقَرُوها واقتَسَمُوا لَحْمَهَا ، فبلغَ ألْفاً وثمانمائةِ منْزِلٍ ، ثُم

أصبَحُوا نادمينَ على قَتْلِهَا ، { فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ } ؛ في اليومِ الثالث وهو يومُ السَّبت ، صاحَ بهم جبريلُ فمَاتُوا أجمعينَ ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ } ؛ أي في إخراجِ النَّاقة من الصَّخرةِ ، وفي إهلاكِهم بعَقْرِهَا علامةً وعِبْرَةً لِمن بعدهم ولَم يكن أكثرُهم مؤمنينَ ، { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }.

(٠/٠)

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ إلى قوله تعالى { أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ } ، ظاهرُ المعنى.

(٠/٠)

وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ } ؛ معناه : أتَنْكِحُونَ الذُّكورَ حَرَاماً في أدبارِهم ، وتتركون ما أحَلَّ اللهُ لكم من فروجِ نسائكم ، { بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ } ؛ أي مُتَجَاوِزُونَ الحدَّ في الظُّلم والحرامِ.

(٠/٠)

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ } ؛ أي لَئِنْ لَم تَسْكُتْ يا لوطُ عن الإنكار علينا وتَقَبْيحْ أفعالِنا لنُخْرِجَنَّكَ من أرضِنا.

(٠/٠)

قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠)

{ قَالَ } ؛ لوطُ : { إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ الْقَالِينَ } ؛ أي لَمِنَ الْمُبْغِضِيْنَ ، والقالِي : هو البَاغِضُ للشَّيءِ التارِكُ له غايةَ الكَرَاهَةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبِّ نَّجِنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ } ؛ أي خلِّصنِي وأهلِي من عقوبةِ أعمالِهم الخبيثة حتى لا نراهُم ولا نرَى أعمالَهم الخبيثةَ ، { فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ } ؛ أي خلَّصنَاهُم من العذاب الذي وقعَ بهم ، وقولهُ تعالى { فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ } أي نَجَّينَاهُ وبناتَهُ.

(٠/٠)

إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢)

وقولهُ تعالى : { إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ } ؛ يعني امرأتَهُ فإنَّها كانت مِن الغابرينَ ؛ أي مِن الباقينَ في موضعِ العذاب فهلكَتْ معَهم ، وكانت تدلُّ المشركينَ على أضيافهِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ } ؛ أي أهلكنَاهُم بالَخَسْفِ والحصب ، وهو أنَّ اللهَ تعالى خَسَفَ بقُرَاهُمْ ، كما رُوي " أنَّ جِبْرِيْلَ رَفَعَهُمْ ببلاَدِهِمْ حَتَّى بَلَغَ بهِمْ إلَى السَّمَاءِ ، فَقَلَبَهُمْ وَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ".

(٠/٠)

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً } ؛ أي أمطَرْنا على ساكنهم ومُسافِريهم حجارةً ، { فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ } ؛ أي فبئْسَ مطرُ الذين أُنْذِرُوا فلم يُؤمِنوا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ } ؛ أي فِي إهلاكِنا إيَّاهم لدلالةً وعبرةً لِمن بعدَهم ، { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }.

(٠/٠)

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ } ؛ اختلَفُوا في الأَيْكَةِ ، قال بعضُهم : هو اسمُ مَدْيَنَ ، وقال بعضُهم : الأَيْكَةُ اسمٌ لِمدينة أُخرى غيرُ مَدْيَنَ ، وكان شعيبُ مبعوثاً إلى كلِّ واحدةٍ من المدينَتين ، غير أنَّهُ كان أخَا مَدْيَنَ ، ولَم يكن أخَا الأَيْكَةِ ، فلذلك لَم يقُلْ في هذه الآيةِ : إذْ قَالَ لَهُمْ أخُوهُمْ ، وإنَّما قالَ : { إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ وَقِيْلَ : الأَيْكَةُ الغَيْطَةُ ذاتُ الشَّجر الكثيفِ ، وجَمعُهُ إيْكٌ. وَقِيْلَ : الأَيْكُ : شجرُ الدَّومِ وهو الْمُقْلُ ، وكان أكثرُ شجرِهم الدَّوم. وتقرأُ : لَيْكَةِ ، بغير ألف وتفتح.

(٠/٠)

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْفُواْ الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ } ؛ أي أتِمُّوا الكيلَ إذا كِلْتُمْ ، ولا تكونُوا مِن الذين يَبْخَسُونَ حقوقَ الناسِ في الكَيْلِ والوَزْنِ ، { وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ.

(٠/٠)

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّقُواْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ } ؛ أي اتَّقُوا اللهَ الذي خلقَكم وخَلَقَ (الْجِبلَّةَ الأَوَّلِيْنَ) أي وخَلَقَ الْخَلْقَ الذين مِن قبلِكُم ، والْجِبلَّةُ بكسر الجيم والباء وبضمهما : الْخَلْقُ الْكَثِيْرُ.

(٠/٠)

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ } ؛ أي من الْمُخَوَّفِيْنَ مِثلَنا مِمَّنْ لَهُ سِحْرٌ ، { وَمَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا } ؛ وما أنتَ إلاّ آدَمِيٌّ مثلُنا ، { وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ } ؛ فيما تقولُ.

(٠/٠)

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَآءِ } ؛ أي جَانِباً من السَّماءِ ، { إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } ؛ أنَّكَ مبعوثٌ إلينا ، وأنَّ هذا العذابَ نازلٌ بنا ، وهذا اذا قرأتَ (كِسْفاً) بإسكانِ السِّين ، وأما إذا فتحتَها فهو جمعُ الْكِسْفَةِ وهي القطعةُ.

(٠/٠)

قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ } ؛ أي هو أعلمُ بعمَلِكم ، وبما تستحقُّون مِن العذاب ، وبوقتِ الاستحقاق ، فيُنْزِلُ بكم العذابَ على ما توجِبُ الحكمةُ ، { فَكَذَّبُوهُ } ؛ أي كذبُوا شُعيباً بعد ظهورِ الْحُجَّةِ ، { فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ } ؛ انشأَ اللهُ سحابةً عليهم حتى أظلَّتْهُم في يومٍ حرٍّ شديدٍ ، فاجتمَعُوا تحتَها مُستَجِيرِينَ بها بما نالَهم من الحرِّ ، فأطبقَتْ عليهم وأمطرَتْ عليهم ناراً فأهلَكَتْهم.

قال المفسِّرون : وذلكَ أن اللهَ تعالى كان قد حَبَسَ عليهم الرِّيحَ سبعةَ أيَّامٍ ، وسَلَّطَ عليهم الحرَّ حتى أخذ بأنفَاسِهم ولَم ينفعهم ظِلٌّ ولا ماءٌ ، وكانوا يدخلون الاسراب ليَبْرَدُوا فيها ، فإذا دخَلُوها وجدوها أشَدَّ حَرّاً من الظاهرِ ، فدخَلُوا أجوافَ السِّرب ، فدخَلَ عليهم الحرُّ وأخذ بأنفاسِهم ، فخرَجُوا هاربينَ الى البَرِّيَّةِ ، فبعثَ اللهُ عليهم سحابةً أظلَّتْهُم من الشَّمسِ فوجدُوا لَها بَرْداً ونَسِيماً ، فنادَى بعضُهم بعضاً حتى اجتمَعُوا كلُّهم تحتَها ، فأمطَرَتْ عليهم نَاراً فاحترَقُوا ، فكان مِن أعظمِ يوم في الدُّنيا ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }.

والظُّلَّةُ : هي السَّحَابةُ التي أظلَّتْهم. قال قتادةُ : (بَعَثَ اللهُ شُعَيْباً إِلَى أُمَّتَيْنِ : أصْحَابُ الأَيْكَةِ وَأَهْلُ مِدْيَنَ ، فَأَمَّا أَصْحَابُ الأَيْكَةِ فَأُهْلِكُواْ بالظُّلَّةِ ، وَأَمَّا أَهْلُ مِدْيَنَ فَأُهْلِكُواْ بالصَّيْحَةِ ، صَاحَ بِهِمْ جِبْرِيْلُ فَهَلَكُواْ جَمِيْعاً).

(٠/٠)

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ أي وإنَّ القُرْآنَ لإنْزَالُ ربِّ العَالَمِيْنَ ، { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ } ؛ قرأ ابنُ كثير ونافعُ وأبو عمرٍو وحفص (نَزَلَ) بالتخفيف ورفع الحاء ، يَعنُونَ نَزَلَ جبريلُ بالقُرْآنِ ، وقرأ الباقون بالتشديدِ والنَّصب ؛ أي نَزَّلَ اللهُ جبريلَ بالقُرْآنِ وهو أمِيْنٌ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { عَلَى قَلْبِكَ } ؛ أي نَزَلَ به فأودعَهُ قلبَكَ كي لا تنساهُ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ } ؛ أي مِن الْمُعْلِمِيْنَ بموضعِ الْمَخَافَةِ ، { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ } ؛ أي لِتُنْذِرَ العربَ بلُغَتِهم فيكونُ ذلك أقربَ إلى فَهْمِهم ، وأقطعَ لعُذْرِهم.

(٠/٠)

وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ } ؛ يعني أن ذِكْرَ القُرْآنِ مذكورٌ في كُتُب الأوَّلين ، ولَم يُرِدْ به غيرَ القُرْآنِ ؛ لأنه تعالى خصَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم بإنْزَالِ القُرْآنِ عليه ، فلو كان مَذكُوراً بعينِهِ في الكُتُب لبَطَلَ التخصيصُ ، ولكنَّهُ تعالى ذكرَ في الكُتُب المتقدِّمة أنه سيبعثُ نَبيّاً في آخرِ الزمان صِفَتُهُ كذا ، وسيُنْزِلُ عليه كِتَاباً صفتهُ كذا كما قَالَ اللهُ تَعَالَى{ يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ }[الأعراف : ١٥٧] ، وهذا معنى قولَهُ{ إِنَّ هَاذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى }[الأعلى : ١٨-١٩] أي مذكورٌ في الصُّحف الأُولى أن الناسَ في الغالب يُؤثِرُونَ الدُّنيا على الآخرةِ ، وأنَّ الآخِرَةَ خَيْرٌ وَأبْقَى.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ } ؛ رُوِيَ أن سببَ نُزولِها أنَّ أهلَ مكَّة بَعثوا إلى أهلِ الكتَاب يَسْتَخْبرُونَهُمْ عن مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وعن ما يدَّعِي من الرِّسالةِ وصدقوهم في بَعْثِهِ وصفتهِ ، فأخبَرَهم أهلُ الكتاب أنَّ ذِكْرَهُ عندَنا وأنه مبعوثٌ فَاتَّبعُوهُ. والمعنى : أوَلَمْ يكن لأهلِ مكَّةَ علامةٌ لنبوَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم أن يَعْلَمَهُ علماءُ بني إسرائيلَ مثلُ عبدِالله بن سلام وأصحابهِ.

قال الزجَّاجُ فِي قِرَاءَةِ قَرَأ (آيَةً) بالنَّصْب ، فَقَوْلُهُ { أَن يَعْلَمَهُ } اسْمُ كَانَ ، و(آيَةً) خَبَرُهُ. ومعناهُ : أوَلَمْ يكُن لَهم عِلْمُ علماءِ بني إسرائيل أنَّ مُحَمَّداً نَبيٌّ حَقٌّ ، ودلالةُ نبوَّتهِ. قال عطيةُ : (كَانَ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيْلَ الَّذِيْنَ آمَنُواْ خَمْسَةً : عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ ؛ وَابْنُ يَامِيْنَ ؛ وَثَعْلَبَةُ ؛ وَأَسَدُ ؛ وَأُسَيْدُ) ، وقرأ ابنُ عامر : (أوَلَمْ تَكُنْ) بالتاء (آيَةٌ) رفعاً ، قال الفراءُ : (جَعَلَ { آيَةٌ } بَعْدَ الاْسْمَ و { أَنْ يَعْلَمَهُ } خَبَرُ كَانَ).

(٠/٠)

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ } ؛ أي لو نَزَّلْنَا القُرْآنَ على رُجِلٍ أعجمِيٍّ لا يفصحُ ، { فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم } ؛ بغيرِ لُغة العرب ما آمَنُوا بهِ ، وقالوا : مَا نَفْقَهُ هَذا! فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ } وفي هذا بيانُ معاندَتِهم. والأعْجَمُ والأَعْجَمِيُّ بمعنى واحدٍ ؛ وهو الَّي في لسانهِ عُجْمَةٌ ، ومنه العَجْمَاءُ ؛ وهي الدَّابةُ. فأما العَجَمِيُّ فهو منسوبٌ إلى العَجَمِ أفصَحَ أو لَم يُفْصِحْ.

وعن ابنِ مسعود : أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ وَهُوَ رَاكِبٌ نَاقَتَهُ ، فَأَشَارَ إِلَى نَاقَتِهِ ، فَقَالَ : (هَذِهِ مِنَ الأَعْجَمِيْنَ) كأنه ذهبَ إلى أنَّ معنَى الآيةِ : أنه لو أنْزَلْنَا القُرْآنَ على البهائمِ فأنطَقْنَاها بهِ ، فقرأتْ عليهم ما آمَنُوا بهِ.

ثُم ذكرَ اللهُ سببَ تركِهم الإيْمانَ فقال : { كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ } ، قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : سَلَكْنَا الشِّرْكَ وَالتَّكْذِيْبَ فِي قُلُوب الْمُجْرِمِيْنَ إذا قَرَأهُ عَلَيْهِمْ مُحَمَّدُ صلى الله عليه وسلم).

قال مقاتلُ : (يَعْنِي مُشْرِكِي مَكَّةَ) ، أخبرَ اللهُ تعالى أنه أدخلَ الشِّركَ في قلوبهم ، فلم يُؤمِنُوا إلاَّ عندَ نزُولِ العذاب حتى لَم ينفَعْهُم ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ } ؛ يعني عند الموتِ ، { فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } ؛ بهِ في الدُّنيا فيَتَمَنَّوا الرجعةَ والنَّظِرَةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ } ؛ فنُؤْمنُ ونصدِّقُ.

فلمَّا أوعَدَهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالعذاب قالوا : فَمَتَى العذابُ؟! تَكذِيباً لهُ ، فقَالَ اللهُ تَعَالَى : { أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ } ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ } ؛ معناهُ أفرأيتَ يا مُحَمَّدُ إنْ أمهَلْنا كفارَ مكَّة سنينَ ، يريدُ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ الدُّنيا إلى أن تنقضِي ، وَقِيْلَ : مدَّةَ أعمَارِهم ، { ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ } ؛ من العذاب ، { مَآ أَغْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ } ؛ بهِ في تلك السِّنين.

والمعنى : وإنْ طَالَ تَمتُّعُهم بنعيمِ الدُّنيا ، فإذا أتَاهُم العذابُ لَم يُغْنِ طُولُ التمتُّعِ عنهم شيئاً ، يكون كأنَّهم لَم يكونوا في نَعِيْمٍ قَطْ ، وهذه موعظةٌ ما أبْلَغَهَا! يُحكى أنَّ عمرَ بن عبدالعزيز كان إذا قَعَدَ للقضاءِ كل يومٍ ابتدأ بهذه الآيةِ ، فَوَعَظَ بها نفسَهُ ، ثُم ذكرَ هذه الأبيات : تُسَرُّ بمَا يَفْنَى وَتَفْرَحُ بالْمُنَى كَمَا اغْتَرَّ باللَّذاتِ فِي النَّوْمِ حَالِمُحَيَاتُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَى لَكَ لاَزِمُ

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ } ؛ أي ما أهلَكْنَا من قريةٍ بالعذاب في الدُّنيا إلاّ لَها رُسُلاً ينذرونَهم بالعذاب أنهُ نازلٌ بهم. والمعنى : إلاَّ لَهَا مُنذِرونَ قبلَ الْهَلاكِ ، ونظيرهُ{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً }[الاسراء : ١٥].

(٠/٠)

ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩)

وقولهُ تعالى : { ذِكْرَى } ؛ أي موعظةً وتَذكِيراً ، { ا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ } ؛ فنُعذِّبَ من غيرِ ذنبٍ ونُعاقِبَ من غيرِ تذكيرٍ وإنذار. ويجوزُ أن يكون (ذِكْرَى) في موضعِ نصبٍ على معنَى : إلاَّ لَها مذكِّرُونَ ذِكْرَى ، ويجوزُ أن يكونَ في موضعِ نصبٍ رُفع على معنَى : ذلكَ ذِكْرَى ؛ أي ذلكَ موعظةً لَهم.

(٠/٠)

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)

وقولهُ تعالى : { وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ } ؛ قالَ مقاتلُ : (قَالَتْ قُرَيْشُ : إِنَّمَا يَجِيْءُ بالْقُرْآنِ الشَّيَاطِيْنُ ، فَتُلْقِيهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى { وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ } أي بالقُرْآنِ { وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ } أن يَنْزِلُوا بهِ { وَمَا يَسْتَطِيعُونَ } أي لا يقدِرُون على ذلكَ ، { إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ } ؛ أي أنَّهم عن استماعِ القُرْآنِ لَمحجُوبونَ ؛ لأنَّهم يُرجَمون بالنُّجوم.

(٠/٠)

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَاهاً آخَرَ } ؛ الخطابُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم والمرادُ به غيرهُ ، والمعنى : كلُّ مَن دعَا معَ اللهِ إلهاً آخرَ كان معَ الْمُعذبين. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ } ؛ أي رَهْطُكَ الأدنَين وهم بنُو هاشمٍ وبنو المطَّلب خاصَّة.

فلما نزلَتْ هذه الآيةُ " نَادَى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم " يَا آلَ غَالِبٍ ؛ يَا آلَ لُؤَيِّ بْنِ كَعْبٍ ؛ يَا آلَ مُرَّةَ ؛ يَا آلَ كِلاَبٍ ؛ يَا آلَ قُصَيٍّ ؛ يَا آلَ عَبْدِ مَنَافٍ " فَأَتَوهُ وَقَالُواْ : مَا تُرِيْدُ؟! قَالَ : " أَرَأَيْتُمْ لَوْ حَدَّثْتُكُمْ أنَّ جَيْشاً ظَلَّكُمْ ؛ أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي ؟ " قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : " فَإِنِّي نَذِيْرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذابٍ شَدِيْدٍ ، وَإِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إلاَّ أنْ تَقُولُواْ : لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ".

ثُمَّ قَالَ : " يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ اشْتَرُوا أنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ ؛ فَإِنِّي لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ؛ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِب ؛ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، يَا صَفِيَّةَ عَمَّةَ مُحَمَّدٍ ؛ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ؛ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً ".

وعن ابنِ عبَّاس قال : (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ } ؛ " صَعَدَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى الصَّفَا فَقَال : " يَا صَبَاحَاهُ! " فَاجْتَمَعَتْ إلَيْهِ قُرَيْشٌ ؛ فَقَالُواْ : مَا لَكَ؟! قَالَ : " أَرَأَيْتُمْ إنْ أَخْبَرْتُكُمْ أنَّ الْعَدُوَّ مُصْبِحُكُمْ أوْ مُمَسِّيكُمْ ؛ أمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي ؟ " قَالُواْ : بَلَى ، قَالَ : " فَإِنِّي نَذِيْرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذابٍ شَدِيْدٍ ".

قَالَ أبُو لَهَبٍ : تَبّاً لَكَ! أَلِهَذا دَعَوْتَنَا جَمِيْعاً ؟ " فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى{ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ }[المسد : ١] إلى آخِرِها). ومعنى الآية : عَرِّفْ قرابتَكَ يا مُحَمَّدُ أنَّكَ لا تُغنِي عنهم من اللهِ شيئاً إنْ عَصَوْهُ. والفائدةُ في تخصيصِ الأقربينَ بالإنذارِ : أنَّهم كانوا أقربَ إليهِ ، كما قالَ تعالى{ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ }[التوبة : ١٢٣] وكما أنَّ الأوْلَى بالإنسانِ في البرِّ والصِّلةِ أن يبدأ بالأقرب فالأقرب.

(٠/٠)

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي أكْرِمْ مَنِ اتَّبعَكَ من المؤمنينَ وألِنْ لَهم القولَ ، وأظْهِرْ لَهم الْمَحبَّةَ والكرامةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ } ؛ أي إنْ عصاكَ الأقربونَ مِن عشيرتِكَ ؛ فقُلْ : إنِّي بريءٌ مِمَّا تعملونَ من الكُفْرِ وعبادةِ غير اللهِ ، { وَتَوَكَّلْ

عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ } ؛ أي فوِّضْ أمرَكَ إليه ، وَثِقْ به فإنه العَزِيْزُ فِي نعمتهِ ، الرَّحِيْمُ بهم حين لَم يُعَجِّلْ لَهم العقوبةَ.

(٠/٠)

الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ } ؛ أي توكَّلْ على العَزِيزِ ؛ أي الغالب القادر على أن يكفيكَ كَيْدَ أعدائِكَ ، الرَّحِيْمِ بالمؤمنين خاصَّةً ، فكيفَ لا تُفَوِّضُ أمرَكَ إليه وهو الذي يراكَ حين تقومُ إلى الصَّلاةِ ، ويرى قِيَامَكَ وركوعَكَ وسجودكَ وتضرُّعَك في المصَلِّين مع الجماعةِ.
والمعنى : أنه يراكَ إذا صلَّيتَ وحدكَ ، ويراكَ إذا صَلَّيْتَ في الجماعةِ رَاكِعاً وسَاجِداً وقائماً ، { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } ؛ أي السَّمِيْعُ لقولِكَ ، الْعَلِيْمُ بمَا في قَلْبكَ.

(٠/٠)

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ } ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّةَ : هل أخبرُكم على مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِيْنُ ؟ وهو راجعٌ إلى قولهِ تعالى{ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ }[الشعراء : ٢١٠]. ثُم أخبَرَ فقالَ : { تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ } ؛ أي على كلِّ كَذابٍ فَاجِرٍ. قال قتادةُ : (هُمُ الْكَهَنَةُ) مِثْلُ مُسَيْلَمَةَ وَغَيْرِهِمْ.

(٠/٠)

يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ } ؛ معناهُ : أنَّ الشياطينَ يَسْتَرِقُونَ السَّمعَ من كلامِ

الملائكةِ ، ثُم يُضِيْفُونَ الكَذِبَ إلى ذلكَ ، فيُلْقُونَهُ إلى الكَهَنَةِ ، وقولهُ تعالى { وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ } يعني لأنَّهم يَخْلُطُونَ كَذِباً كثيراً ، وهذا كان قَبْلَ الوَحْيِ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وبَعْدَ ذلكَ فمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ له شِهَاباً رَصَداً.

(٠/٠)

وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيْدُ شِعْرَ الْمُشْرِكِيْنَ). وذكرَ مقاتلُ أسْماءَهم فَقَالَ : (مِنْهُمْ عَبْدُاللهِ بْنُ الزِّبَعْرَى السَّهْمِيِّ ، وَأَبُو سُفْيَانَ بن الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب ، وَهُبَيْرَةُ بْنُ وَهَبٍ الْمَخْزُومِيُّ ، وَشَافِعُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ الْجَمْحِيُّ ، وَأَبُو عَزَّةَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِاللهِ ، كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأُمَيَّةُ ابْنُ الصَّلْتِ الثَّقَفِيُّ ، تَكَلَّمُواْ بالْكَذِب وَالْبَاطِلِ ، وَقَالُواْ : نَحْنُ نَقُولُ مِثْلَ مَا يَقُولُ مُحَمَّداً! وَاجْتَمَعَ إلَيْهِمْ غُوَاةٌ مِنْ قَوْمِهِمْ يَسْتَمِعُونَ أشْعَارَهُمْ ، وَيَرْوُونَ عَنْهُمْ حَتَّى يَهْجُونَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وَأصْحَابَهُ). فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ } يعني الذينَ يَرْوُونَ هِجَاءَ المسلمينَ وسبَبَّ الصَّحابةِ.

وقال قتادةُ ومجاهد : (الْغَاوُونَ هُمُ الشَّيَاطِيْنُ) كما قال تعالى حَاكِياً عنهم { فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ } [الصافات : ٣٢]. وَقِيْلَ : الغَاوُونَ كُفَّارُ الْجِنِّ وَالإنْسِ. وفي الحديثِ : " لَئِنْ مُلِئَ جَوْفُ أحَدِكُمْ صَدِيْداً حَتَّى يَصِيْر جَارِياً أحَبُّ إلَيَّ أنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً " وأراد به الشِّعرَ المذمومَ.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ } ؛ أي في كلِّ فَنٍّ من الكَذِب يتكلَّمُون ، وفي كُلِّ لَغْوٍ يخوضُونَ ، يَمْدَحُونَ بباطلٍ ويستمِعُون لباطلٍ ، فالوَادِي مَثَلٌ لِفُنُونِ الكلامِ ، وهَيَمَانُهُمْ فيهِ : قولُهم على الجميلِ بما يقولون مِن لَغْوٍ وباطلٍ وَغُلُوٍّ في مَدْحٍ أو ذمٍّ. وقولهُ تعالى : { وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ } ؛ أي يقولُون فَعَلْنَا وَفَعَلْنَا وَهُمْ كَذبَةٌ ، ويَصِفُون أنفسِهم بما ليس فيها.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ } ؛ استثناءُ الشُّعراء المسلمينَ حَسَّانُ بْنُ ثَابتٍ ، وعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الذين مَدَحُوا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، كَانَ يَقُولُ لِحَسَّان : [أُهْجُهُمْ وَمَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَذَكَرُواْ اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُواْ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ } ؛ يعني أنَّهم كانوا يذكُرون اللهَ كثيراً في أشْعَارِهم ، ويناضِلون عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم بألسِنَتهم وأيدِيهم من بَعْدِ هجائِهم الكفارَ. والانتصارُ بالشِّعر جائزٌ في الشَّريعة بما يجوزُ ذِكْرُهُ فيها ، لِمَا قالَ تعالى في آيةٍ أُخرى{ لاَّ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ }[النساء : ١٤٨].

ويُروَى : " أنَّ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ مَا تَقُولُ فِي الشِّعْرِ ، فَقَالَ : " إنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ ؛ لَكَأَنَّمَا يَنْضَحُونَهُمْ بالنَّبْلِ ". وقال صلى الله عليه وسلم " إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةٌ ".

وقالت عائشةُ : (الشِّعْرُ كَلاَمٌ ، فَمِنْهُ حَسَنٌ وَمِنْهُ قَبِيْحٌ ، فَخُذُواْ الْحَسَنَ وَدَعُواْ الْقَبِيْحَ). وعن الشعبيِّ قال : (كَانَ أبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَقُولُ الشِّعْرَ ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ الشِّعْرَ ، وَكَانَ عَلِيٌّ أشْعَرَ الثَّلاَثَةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَذَكَرُواْ اللَّهَ كَثِيراً } لَم يَشْغَلْهُمُ الشِّعْرُ عن ذِكْرِ اللهِ ، ولَم يجعَلُوا الشِّعْرَ هَمَّهُمْ ، وانتَصَرُوا من بعد ما ظلموا أي انتصروا من المشركين لأنهم بدأوا بالهجاء.

ثُم أوعدَ شعراءَ المشركين فقال : { وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ } ؛ أي سَيَعْلَمُ الَّذِيْنَ أشْرَكُواْ وَهَجَوُا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنينَ أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ، قال ابنُ عبَّاس : (إلَى جَهَنَّمَ يَخْلُدُونَ فِيْهَا). والمعنى : سيعلَمُون إلى أينَ مصيرُهم وهو نارُ جهنَّمَ ، فعلى هذا يكونُ قولهُ { أَيَّ مُنقَلَبٍ } منصُوباً بدلاً من المصدرِ ، ولا يجوزُ أن يكون منصوباً بقولهِ (سَيَعْلَمُ) لأن { أَيَّ } لا يعملُ فيه ما قَبْلَهُ ؛ لأنه مِن حروفِ الاستفهامِ ، وموضعُ حروف الاستفهامِ صدرُ الكلامِ ، فكان انتصابُ قولهِ { أَيَّ مُنقَلَبٍ } على معنى المصدرِ ، أو بقولهِ { يَنقَلِبُونَ }.

وعن أبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قَالَ : " مَنْ قَرَأ سُورَةَ الشُّعَرَاءِ ، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ، بعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بنُوحٍ وَكَذبَ بهِ ، وَهُودٍ وَشُعَيْبٍ وَصَالِحٍ وَإبْرَاهِيْمَ وَلُوطٍ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَمُوسَى وَعِيْسَى ، وَبعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ".

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥)

{ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (طس اسْمٌ مِنْ أسْمَاءِ اللهِ ، أقْسَمَ بِهِ أنَّ هَذا الْقُرْآنَ الآيَاتُ الَّتِي وُعِدْتُمْ بهَا) فقال قتادةُ : (هُوَ اسْمٌ مِنْ أسْمَاءِ الْقُرْآنِ). وَقِيْلَ : هو اسمٌ من أسماء السُّورة.
وقولهُ تعالى : { وَكِتَابٍ مُّبِينٍ } معناهُ : وآياتُ الكتاب المبين بالحلالِ والحرام.
وقولهُ تعالى : { هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } ؛ يجوزُ أن يكون (هُدًى) في موضعِ رفعٍ ؛ أي هو هُدًى ، والمعنى : (هُدًى) أي بيانٌ من الضَّلالةِ لِمن عَمِلَ به ، (وَبُشْرَى) بما فيه من الثواب للمصدِّقين به أنهُ من عندِ الله.
ثم عرَّفَهم فقالَ : { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } ؛ ظاهرُ المعنى.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ } ؛ أي زَيَّنَّا لَهم صلاتَهم حتى رأوْها حسنةً ، { فَهُمْ يَعْمَهُونَ } أي يتردَّدُون فيها متحيِّرين ، { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ } ؛ لأنَّهم خَسِرُوا أنفُسَهم وأهلِيهم وصَارُوا إلى النار.

(٠/٠)

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ } ؛ أي إنَّكَ لَتَعِي القُرْآنَ وحياً من عندِ الله تعالى ، أنزلَهُ بعلمهِ وحكمته.

(٠/٠)

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ } ؛ أي واذْكُرْ إذ قَالَ مُوسَى لامرأتِهِ : { إِنِّي آنَسْتُ نَاراً } ؛ أبْصَرْتُهَا ، وكانت امرأتهُ يومئذ ابنة شُعيب عليه السلام ، فقال لَها حين ضَلَّ الطريقَ : أنِّي أبصرتُ ناراً ، فامْكُثوا ها هنا ، { سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ } ، أي حتَّى آتِيكُم من عندِ النار بخبرِ الماء والطريق ، فإن لَم أجِدْ أحداً يُخبرني عن الطريقِ آتيكم بشعلةِ نارٍ ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ } ؛ والشِّهَابُ : خَشَبَةٌ فيها نورٌ ساطعٌ ، { لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } ؛ أي لكي تَصْطَلُوا من البَرْدِ ، وكان ذلك في شدَّةِ الشِّتاء ، يقالُ : صَلَى بالنار وَأصْلَى بها إذا استدفأ ، والمعنى : أو آتِيكُمْ بالشُّعلةِ المقبسَةِ من النار لكي تذودُوا من البردِ.

والشِّهَابُ : هو النارُ الْمُسْتَطَارُ ، ومنه قولهُ{ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ }[الصافات : ١٠] والقبَسُ والْجَذْوَةُ : كلُّ عودٍ أُشْعِلَ في طرفهِ نارٌ. قرأ أهلُ الكوفة (بشِهَابٍ قَبَسٌ) منوَّن على البدل أو النعتِ للشهاب.

(٠/٠)

فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ } ؛ معناهُ : فلما جاءَ موسَى إلى النار التي رَآها نُودِيَ نداءَ الوحي : أنْ بُورِكَ مَنْ فِي طلب النار وهو مُوسَى ، { وَمَنْ حَوْلَهَا } من الملائكةِ. وهذه تحيَّةٌ مِن الله لِموسى بالبركةِ كما حَيَّا إبراهيمَ بالبركةِ على ألْسِنَةِ الملائكةِ حين دخَلُوا عليه ، فقالُوا : رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أهْلَ الْبَيْتِ.

وَقِيْلَ : المرادُ بالنار هو النُّورُ ، وذلك أن موسَى رأى نُوراً عَظِيماً ، ولذلك ذكرهُ بلفظ النار ، ومَن في النار هم الملائكةُ ؛ لأن النورَ الذي رآهُ موسى كان فيه ملائكةٌ لَهُمْ زَجَلٌ بالتسبيحِ والتقديس ، ومَنْ حَوْلَهَا هو موسَى ؛ لأنه كان بالقُرْب منها ولَم يكن فيها. وأهلُ اللغة يقولونَ : بُورِكَ فُلاَنٌ ؛ وَبُورِكَ فِيْهِ ؛ وَبُورِكَ لَهُ وَعَلَيْهِ ، بمَعنى واحدٍ. والمرادُ بالبركةِ ها هنا ما نَالَ مُوسَى من كرامةِ الله له بالنبوَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ كلمة تَنْزِيْهٍ عمَّا تَظُنُّ الْمُشَبِهَةُ أنَّ اللهَ تعالى كان في تلك النار ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيْراً.

(٠/٠)

يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يامُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ؛ أي أنا الدَّاعِي الذي يدعُوكَ ، أنا اللهُ العزيزُ في مُلْكِي ، الحكيمُ في أمرِي وقضائي.

فإن قيلَ : بمَاذا عَرَفَ مُوسَى ؟ قُلْنَا : إنَّما عَرَفَ نبوَّةِ نفسهِ أن ذلكَ النداءَ من اللهِ تعالى حتى جعلَ يدعُو الناسَ إلى نُبُوَّةِ نفسهِ بالمعجزة ، وذلك أنهُ رأى شجرةً أخضرَ ما يكونُ من الشَّجرِ في أنضرَ ما يكون ، لَها شعاعٌ يرتفعُ إلى السَّماء في الهواءِ ، والنارُ تلتَهِبُ في أوراقِها والأغصانِ ، فلا النارُ تُحْرِقُ الأوراقَ ولا رطوبةُ الشجرِ والأغصانِ تُطْفِيءُ النارَ ، فلما رأى ذلكَ بخلافِ العادة ، عَلِمَ أنه لا يكونُ ذلك إلاّ مِن صُنْعِ اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ : { وَأَلْقِ عَصَاكَ } ؛ أي وَقِيْلَ لهُ : أَلْقِ عَصَاكَ من يدِكَ ، فألْقَاهَا فَاهْتَزَّتْ { فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ } ؛ أي تضطربُ كأنَّها جَانٌّ ، والْجَانُّ : الحيَّةُ البيضاءُ الخفيفة السريعةُ ، السريع شدَّة الاضطراب يقال لها الْمِسَلَّةُ. وإنَّما شبَّهَها بالْجَانِّ في خِفَّةِ حركَتِها وسرعةِ انتشارها عن الأعيُنِ ، وشبَّهَها في موضعٍ آخر بالثُّعبان لِعِظَمِهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَّى مُدْبِراً } ؛ أي أعْرَضَ موسى هَارباً من الخوفِ من الحيَّة ، { وَلَمْ يُعَقِّبْ } أي لَم يَرْجِعْ ولَم يَلْتَفِتْ إلى شيءٍ وراءَهُ ، يقال : عَقَّبَ فلانٌ إذا رَجَعَ.

فقالَ اللهُ : { يامُوسَى لاَ تَخَفْ } ؛ مِن ضَرَرها ، { إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ } ؛ أي لا يخافُ عندي وفي حُكْمِي مَن أرسلتهُ ، { إِلاَّ مَن ظَلَمَ } ؛ مِن الْمُرْسَلِيْنَ بارتكاب الصغيرةِ { ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ } ، ثُمَّ تابَ مِن بعد ذلكَ ، { فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؛ به ، فكان السببُ في هذا الاستثناءِ أنَّ موسى كان مُستَشْعِراً حقَّهُ لِمَا كان منه من قِبَلِ القبطيِّ ، فأَمَّنَهُ اللهُ بهذا الكلامِ.

والصغائرُ والكبائر من الذُّنوب تُسمَّى ظُلْماً ؛ ولذلكَ قال مُوسَى{ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي }[القصص : ١٦]. ويقالُ : إن قولَهُ { إِلاَّ مَن ظَلَمَ } استثناءٌ منقطع ، ومعناهُ : لكِنْ مَن ظَلَمَ ، فإنه يَخافُني إلاّ أن يتوبَ ويعملَ صالحاً ، فإنِّي أغفرُ له وأرْحَمهُ. والمعنى : إلاّ من ظَلَمَ نفسه بالمعصيةِ { ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً } أي توبةً ونَدَماً { بَعْدَ سُوءٍ } عملهِ { فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ } كأنه قالَ : لا يخافُ لديَّ المرسلونَ الأنبياءُ والتَّائبُونَ ، وقال بعضُهم : (إلاّ) ها هُنا بمعنى (ولا) كأنهُ قال : { لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ }.

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ } ؛ فيه بيانُ أنَّ الله تعالى أعطاهُ آيةً أُخرى في ذلكَ المكانِ ، ومعنى { تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ } أي بيضاءَ لَها شعاعٌ مِن غير برَصٍ ، والْجَيْبُ جيبُ القَمِيصِ.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فِي تِسْعِ آيَاتٍ } ؛ أظهَرَها بين الآيَتينِ ، والآياتُ التِّسعُ : قَلْبُ العَصَاةِ حَيَّةً ، وجَعْلُ يَدِهِ بيضاءَ ، وما أصابَ فرعونَ من الْجَدْب في بَوادِيهم ، ونقصِ الثَّمرات في مزارِعهم ، وإرسالِ الطُّوفان والجرادِ والقُمَّلِ والضفادعِ والدَّم ، فهذه الآياتُ التِّسعُ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ } ؛ أي خَارجين عن طاعةِ الله.

(٠/٠)

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا } ؛ أي فلمَّا جاءَتْ فرعونَ وقومه الآياتُ التسع ، { مُبْصِرَةً } ؛ أي بَيِّنَةً واضحةً ، { قَالُواْ هَاذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ } ؛ كذبُوا بالآياتِ التسع كلِّها ونَسَبُوا موسى إلى السِّحرِ ، { وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ } ؛ أي جَحَدُوا بألسِنَتهم وأنكَرُوا تلك الآياتِ ، وعَلِمُوا بقلوبهم أنَّ تلك الآياتِ ليست من جنسِ أفعال السِّحر ، وأنَّها من اللهِ تعالى ، أي عَلِمُوا يقيناً أنَّها من عندِ الله لكن جَحَدُوا ذبها تَجَبُّراً وَتَكَبُّراً وذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { ظُلْماً وَعُلُوّاً } ؛ أي شِرْكاً وتَكَبُّراً عن أن يؤمِنُوا ، { فَانْظُرْ } ؛ يا مُحَمَّد ، { كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } ؛ في الأرضِ بالمعاصي ، كيفَ أهلَكَهم اللهُ بالغَرَقِ في اليَمِّ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً } ؛ أي أعطيناهما معرفةَ الدِّين وأحكامِ الشَّريعة ، وَقِيْلَ : عِلْماً بقضاءِ الطَّير والدَّواب وتسبيحِ الجبال ، فقَابَلاَ تلكَ النعمةِ بالشُّكر ، { وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا } ؛ بالنبوَّةِ والكتاب وإلاَنَةِ الحديدِ وتسخير الشَّياطين والجنِّ والإنسِ ، { عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ }.

(٠/٠)

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ } ؛ أي وَرِثَ نُبُوَّتَهُ وعلمَهُ ومُلكَهُ ، وذلك أنهُ كان لداودَ تِسْعَةَ عشرَ إبناً ذكراً ، فوَرِثَ سليمانُ مُلْكَهُ ومجلسَهُ ومقامه ونبوَّته مِن بينهم.

وعن أبي هريرةَ قال : (نَزَلَ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى دَاوُدَ عليه السلام مَخْتُوماً ، فِيْهِ عَشْرُ مَسَائِلَ ؛ أن اسْأَل ابْنَكَ سُلَيْمَانَ عَنْهُنَّ ، فَإِنْ أَخْرَجَهُنَّ فَهُوَ الْخَلِيْفَةُ مِنْ بَعْدِكَ. قَالَ : فَدَعَا دَاوُدُ سَبْعِيْنَ قِسِّيْساً وَسَبْعِيْنَ حَبْراً ، وَأَجْلَسَ سُلَيْمَانَ بَيْنَهُمْ ، وَقَالَ لَهُ : يَا نَبِيَّ اللهِ ؛ إِنَّهُ نَزَلَ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فِيْهِ عَشْرُ مَسَائِلَ ، أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهُنَّ ، فَإِنْ أَنْتَ أَخْرَجْتَهُنَّ فَأَنْتَ الْخَلِيْفَةُ مِنْ بَعْدِي. فَقَالَ سُلَيْمَانُ : لِتَسْأَلْ نَبِيَّ اللهِ عليه السلام عَمَّا اللهُ يَرَاهُ ، وَمَا تَوْفِيْقِي إِلاَّ باللهِ.

قَالَ : أَخْبِرْنِي يَا نَبِيَّ : مَا أَبْعَدُ الأَشْيَاءِ ؟ وَمَا أَقْرَبُ الأَشْيَاءِ ؟ وَمَا آنَسُ الأَشْيَاءِ ؟ وَمَا أَوْحَشُ الأَشْيَاءِ ؟ وَمَا الْقَائِمَانِ ؟ وَمَا الْمُخْتَلِفَانِ ؟ وَمَا الْمُتَبَاغِضَانِ ؟ وَمَا الأَمْرُ الَّذِي إذا رَكِبَهُ الرَّجُلُ حَمَدَ آخِرَهُ ؟ وَمَا الأَمْرُ الّ◌ّ◌َذِي إذا رَكِبَهُ الرَّجُلُ ذمَّ آخِرَهُ؟

فَقَالَ سُلَيْمَانُ : أَمَّا أَقْرَبُ الأَشْيَاءِ فَالآخِرَةُ ، وَأَمَّا أَبْعَدُ الأَشْيَاءِ فَمَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَمَّا آنَسُ الأَشْيَاءِ فَجَسَدٌ فِيْهِ رُوحٌ ، وَأَمَّا أَوْحَشُ الأَشْيَاءِ فَجَسَدٌ لاَ رُوحَ فِيْهِ ، وَأَمَّا الْقَائِمَانِ فَالسّ◌َمَاءُ والأَرْضُ ، وَأَمَّا الْمُخْتَلِفَانِ فَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَأَمَّا الْمُتَبَاغِضَانِ فَالْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ ، وَأَمَّا الأَمْرُ الّ◌ّ◌َذِي إذا رَكِبَهُ الرَّجُلُ حَمَدَ آخِرَهُ فَالْحِلْمُ عَلَى الْغَضَب ، وَأَمَّا الأَمْرُ الَّذِي إذا رَكِبَهُ ذمَّ آخِرَهُ فَالْحِدَّةُ عَلَى الْغَضَب.

قَالَ : فَفَكَّ الْخَتْمَ فَإِذا هِيَ هَذِهِ الْمَسَائِلُ سَوَاءٌ عَلَى مَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. فَقَالَ الْقِسِّيْسُونَ وَالأَحْبَارُ : لَنْ نَرْضَى حَتَّى نَسْأَلَهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ ، فَإِنْ هُوَ أَخْرَجَهَا فَهُوَ الْخَلِيْفَةُ مِنْ بَعْدِكَ. فَقَالَ سُلَيْمَانُ : سَلُونِي وَمَا

تَوْفِيْقِي إلاَّ باللهِ ، قَالُواْ : مَا الشَّيْءُ الَّذِي إذا صَلُحَ صَلُحَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ ؟ وَإذا فَسَدَ فَسَدَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ ؟ قَالَ : هُوَ الْقَلْبُ ؛ إذا صَلُحَ صَلُحَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ ، وَإذا فَسَدَ فَسَدَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ. قَالُواْ : صَدَقْتَ! أنْتَ الْخَلِيْفَةُ مِنْ بَعْدِهِ. وَدَفَعَ إلَيْهِ دَاوُدُ قَضِيْبَ الْمُلْكِ ، وَمَاتَ مِنَ الْغَدِ).

وعن محمَّد بن جعفرٍ عن أبيهِ قال : (أُعْطِيَ سُلَيْمَانُ مُلْكَ مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ، فَمَلَكَ سَبْعَمِائَةِ سَنَةٍ وَسِتَّةَ أشْهُرٍ ، مَلَكَ أهْلَ الدُّنْيَا كُلَّهُمْ مِنَ الْجِنِّ والإنْسِ وَالشَّيَاطِيْنِ وَالدَّوَاب وَالطَّيْرِ وَالسِّبَاعِ ، وَأُعْطِيَ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَنْطِقَ كُلِّ شَيْءٍ).

وقولهُ تعالى : { وَقَالَ ياأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ } ؛ صَوْتٌ منهُ. قال الفرَّاءُ : (مَنْطِقُ الطَّيْرِ : مَعْنَى كَلاَمِ الطَّيْرِ ، جَعَلَهُ كَمَنْطِقِ الرَّجُلِ إذا فُهِمَ). قال مقاتلُ : (كَانَ سُلَيْمَانُ جَالِساً إذْ مَرَّ بِهِ طَائِرٌ ، فَقَالَ لِجُلَسَائِهِ : هَلْ تَدْرُونَ مَا قَالَ هَذا الطَّائِرُ ؟ قَالُواْ : لاَ ، قَالَ : إنَّهُ قَالَ لِي : السَّلاَمُ عَلَيْكَ أيُّهَا الْمَلِكُ الْمُسَلَّطُ عَلَى بَنِي إسْرَائِيْلَ. وَمَرَّ سُلَيْمَانُ ذاتَ يَوْمٍ عَلَى بُلْبُلٍ فَوْقَ شَجَرَةٍ يُحَرِّكُ رَأسَهُ وَيُمِيْلُ ذنَبَهُ وَيَصِيْحُ ، فَقَالَ لأَصْحَابِهِ : هَلْ تَدْرُونَ مَا يَقُولُ هَذا الْبُلْبُلُ ؟ قَالُواْ : اللهُ أعْلَمُ! قَالَ : إنَّهُ يَقُولُ : أكَلْتُ نِصْفَ ثَمَرَة فَعَلَى الدُّنْيَا الْعَفَاءُ).

(٠/٠)

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإنْس وَالطَّيْرِ } ؛ أي جُمِعَ له من كلِّ جهةٍ جماعةٌ من الجنِّ والإنس والطَّيرِ. والْحَشْرُ : جمعُ الْخَلْقِ من موضعٍ إلى موضع ، ومنهُ الْمَحْشَرُ لِعَرَصَاتِ يَوْمَ القيامةِ. قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ مُعَسْكَرُ سُلَيْمَانَ مِائَةُ فَرْسَخٍ ، خَمْسَةٌ وَعُشْرُونَ فَرْسَخاً لِلإنْسِ ، وَخَمْسَةٌ وَعُشْرُونَ فَرْسَخاً لِلجِنِّ ، وَخَمْسَةٌ وَعُشْرُونَ فرْسَخاً لِلسِّبَاعِ ، وَخَمْسَةٌ وَعُشْرُونَ فرْسَخاً لِلطَّيْرِ).

ووجهُ تسخيرِ الطَّير له أنَّ الله زادَ في عقُولِها حتى كانت تفهمُ ما يقالُ ويراد منها ، وتقبلُ الأدَبَ وتخافُ وتحذر ، وكان لسليمانَ عليه السلام ألفُ بيتٍ من قَوَارِيْرَ على الخشب ، فيها ثَلاثُمائة صريحة ، وسَبْعُمائة سَرِيَّةٍ ، فيأمرُ الرِّيحَ العاصفَ فترفعه ، ويأمرُ الرَّخا فتسيرُ به ، فأوحَى اللهُ وهو يسيرُ بين السَّماء والأرضِ : أنِّي قَدْ زِدْتُ فِي مُلْكِكَ أنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ أحَدٌ مِنَ الْخَلاَئِقِ إلاَّ جَاءَتْ بِهِ الرِّيْحُ فَأَخْبَرَتْكَ بِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَهُمْ يُوزَعُونَ } ؛ قال قتادةُ : (كَانَ عَلَى كُلِّ صِنْفٍ مِنْ جُنُودِهِ وَزْعَة تَرِدُ أُوْلاَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ لِيَجْتَمِعُواْ وَيَتَلاَحَقُواْ) وهو من الوَزْعِ الذي هو الكَفُّ ، يقالُ : وَزَعْتُهُ وَزْعاً ، والشَّيْبُ وَازِعٌ ؛ أي مانعٌ. قال الليثُ : (وَالْوَازِعُ فِي الْحَرْب الْمُوَكَّلُ بالصُّفُوفِ يَزَعُ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ).

ومعنى الآيةِ : { فَهُمْ يُوزَعُونَ } أي كان يُحْبَسُ أوَّلُهم على آخرِهم ليتلاَحقُوا ، وكانوا يجتمعونَ ويتفرَّقون

ويقومون في مسِيرِهم على مراتِبهم. وَالإيْزَاعُ هو المنعُ من الذهاب ، والوَازِعُ هو القَيِّمُ بأَمْرِ الْجَيْشِ ، ومن ذلكَ قولُ الحسنِ : (لاَ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ وَزْعَةٍ) أي مِن سُلْطَانٍ يَكُفُّهُمْ ، ويقالُ : لا بدَّ للسُّلطانِ من وَزْعَةٍ ؛ أي مَن يَمْنَعُ الناسَ عنهُ. وأصلُ الوَزْعِ الكَفُّ والْمَنْعُ ، ومنهُ الحديثُ : " إنَّ اللهَ لَيَزَعُ بالسُّلْطَانِ أَكْثَرَ مِمَّا يَزَعُ بالْقُرْآنِ ".

(٠/٠)

حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَآ أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ } ؛ أي سَارُوا جميعاً حتَّى إذا وصَلُوا إلى وادٍ كثيرِ النَّمل ، قال كعبٌ : (هُوَ وَادٍ بالطَّائِفِ) ، وقال قتادةُ ومقاتل : (هُوَ بالشَّامِ) ، { قَالَتْ نَمْلَةٌ } ؛ لأصحابها على وَجْهِ التَّحذيرِ : { ياأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ } ؛ أي منَازلَكم ، { لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ } ؛ أي لا يَكْسِرَنَّكُمْ سليمانُ وجنودهُ ، { وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } ؛ بذلكَ ؛ أي وهم لا يَعْلَمُونَ بحَطْمِكُمْ ووَطْئِكُمْ ، فطارَتِ الريحُ بكلامِ النَّملةِ ، فأدخلتْهُ في أُذُنِ سُليمانَ عليه السلام ليسمَعَها ، { فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا } ؛ وكان أكثرُ ضَحِكِ الأنبياءِ عَلَيْهِمْ السَّلاَمُ التَّبَسُّمُ.

ونُصِبَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { ضَاحِكاً } على الحالِ ، وسببُ ضَحِكِهِ مِن قَوْلِها التعجُّبُ ، وذلك أنَّ الإنسانَ إذا رأى ما لا عَهْدَ له بِهِ عَجِبَ وضَحِكَ. قال مقاتلُ : (ثُمَّ حَمِدَ رَبَّهُ حِيْنَ عَلَّمَهُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ ، وَسَمِعَ كَلاَمَ النَّمْلَةِ) { وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ } ؛ يقالُ : فلانٌ مُوزَعٌ بكَذا ؛ أي مُولَعٌ بهِ ، وَقِيْلَ : معناهُ : وَفِّقْنِي أنْ أشْكُرَ نِعْمَتَكَ ، { الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ } وَ ، وَفِّقْنِي ، { وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } ؛ في الآخرةِ.

فإن قِيْلَ : بَماذا عرفَتِ النملةُ سليمانَ ، وعلى أيِّ سبيلٍ كانت معرفتُها بهِ ؟ قُلْنَا : إنَّها كانت مأمورةً بطاعتهِ ، فلا بدَّ أن تعرفَ مَن أُمِرَتْ بطاعتهِ ، ولا يمنع أنْ تعرفَ الدوابُّ والبهائمُ هذا الضربَ ، كما تعرفُ كثيراً من منافعِها ومضارِّها ، والنملةُ فيها من الفَهْمِ فوقَ هذا ، فإنَّا نشاهدُ صُنْعَهَا في إدخالِ رزْقِهَا وحفظهِ وتعهُّدهِ ، حتى إنَّها تكسرُ ما تجمعهُ من الحبوب نصفَين نصفين لئلاَّ تَنْبُتَ ، إلاَّ اللُّوَيْزَةَ فإنَّها تكسِرُها أربعَ قِطَعٍ ؛ لأنَّها إذا كسرَتْها نِصفَين تنبتُ ، فالذي هَدَاها إلى هذهِ الأمور هو الذي ألْهَمَهَا معرفةَ سُليمانَ عليه السلام.

(٠/٠)

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ } ؛ أي طَلَبَهَا وبحثَ عنها ، والطَّيْرُ اسمٌ جامع للجِنْسِ ، وكانت الطيرُ تَصْحَبُ سليمانَ في سفرِهِ ، تُظِلُّهُ بأجنِحَتها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ } ؛ أي قال : مَا الْهُدْهُدُ لا أراهُ أعْيُناً ؛ أي لَحِظْتُهُ فلم تَرَهُ بين الطيرِ ، { أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ }.

واختلَفُوا في سبب تفقُّدِهِ عن حالِ الْهُدْهُدِ. قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ الْهُدْهُدُ يَرَى الْمَاءَ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ كَمَا تَرَاهُ مِنَ الزُّجَاجِ. وَكَانَ سُلَيْمَانُ إذا احْتَاجَ إلَى الْمَاءِ فِي مَسِيْرِهِ ، أمَرَ الْهُدْهُدَ حَتَّى يَنْظُرَ إلَى أقْرَب مَوْضِعٍ مِنَ الْمَاءِ ، فَاحْتَاجَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ إلَى الْمَاءِ ، فَلِذلِكَ تَعَرَّفَ عَنْ حَالِ الْهُدْهُدِ).

قال عكرمةُ : قُلْتُ : يَا ابْنَ عَبَّاس ؛ كَيْفَ يَرَى الْهُدْهُدُ الْمَاءَ وَإنَّ صَيَّادَتَنَا يَأْخُذُونَهُ بالْفَخِّ فَلاَ يَرَى الْخَيْطَ وَالشَّبَكَةَ؟! قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (مَا أَلْقَى هَذِهِ الْكَلِمَةَ عَلَى لِسَانِكَ إلاَّ الشَّيْطَانُ ، أمَا تَعْلَمُ أنَّهُ إذا جَاءَ الْقَدَرُ ذهَبَ الْبَصَرُ). وعن سعيدِ بن جُبير : (أنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ تَفَقُّدِ سُلَيْمَانَ الْهُدْهُدَ ، فَقَالَ : لأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ مَسَافَةَ الْمَاءِ. وَأنَّ الصَّبيَّ يَضَعُ لَهُ الْفَخَّ فَيُغَطِّي عَلَيْهِ بشَيْءٍ مِنَ التُّرَاب فَيَجِيْءُ فَيَقَعُ فِيْهِ ، فَقَالَ : وَيْحَكَ! أمَا عَلِمْتَ أنَّ الْقَدَرَ يَحُولُ دُونَ الْبَصَرِ). ورُوي أنه قالَ : (إذا نَزَلَ القضاءُ والقَدَرُ ذهَبَ اللُّبُّ وعَمِيَ البصرُ).

وقال وهبُ : (كَانَ سَبَبُ تَفَقُّدِهِ لَهُ لإخْلاَلِهِ بالنَّوْبَةِ ، كَمَا يَتَعَرَّفُ الْوَالِي عَنْ رَعِيَّتِهِ) ، ويقالُ : كانتِ الطيرُ تُظِلُّهُ من الشَّمسِ ، كانت تقفُ في الهواءِ مصطَّفةً موصولةَ الأجنحةِ ومتقاربةً ، فلما أخْلَى الهدهدُ بمكانهِ بَانَ ذلك لوقوعِ الشَّمسِ عليه ، فلذلكَ تعرَّفَ عن حالِهِ.

(٠/٠)

لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً } ؛ قال المفسِّرون : تَعْذِيْبُهُ إيَّاهُ أن ينتفَ ريشَهُ ثُم يلقيهِ في الشَّمسِ فلا يَمنَعُ مِن نَمْلَةٍ ولا مِن هَوَامِّ الأرضِ. ويقالُ : هو قصُّ جناحهِ ، ويجوزُ أن يُعَاقَبَ بأن لا

يجرِي عليه القلمُ على وجهِ التأديب ، كما يؤدِّبُ الأبُ ولده الصغير. وَقِيْلَ : تعذيبهُ أن يَنْتِفَ ريشَهُ ويدعَهُ مُمَعَّطاً في بيتِ النملِ فيلدغوهُ. وَقِيْلَ : معناهُ : لأَشُدَّنَّ رجلَيْهِ وألقيَهُ في الشَّمْسِ ، وَقِيْلَ : لأَطْلِيَنَّهُ بالقَطْرِ وأجعلَهُ في الشَّمسِ. وَقِيْلَ : لأفرِّقنَّ بينَهُ وبين إلْفِهِ. وَقِيْلَ : لأمنعنَّهُ من خدمَتي.

قولهُ تعالى : { أَوْ لأَأْذبَحَنَّهُ } ؛ أي لأقْطَعَنَّ حَلْقَهُ ، { أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } ؛ أي بحجَّةٍ ظاهرة توجبُ عُذْرَهُ في غيبتهِ ، وقصَّتهُ : أنَّ سليمانَ عليه السلام لَمَّا فرغَ من بناءِ بيت المقدسِ عَزَمَ على الخروجِ إلى أرضِ الْحَرَمِ ، فتجهَّزَ للسيرِ واستصحبَ مِن الْجِنِّ والإنسِ والشَّياطينِ والطُّيور والوحوشِ ما بلغَ معسكرهُ مِائَةَ فرسخٍ ، وأمرَ الرِّيحَ فحملَتْهم ، فلما وَافَى الحرمَ أقامَ به ما شاءَ اللهُ أن يُقيمَ ، وكان ينحرُ كلَّ يومٍ مدَّةَ إقامتهِ خمسةَ آلافِ ناقة ، ويذبحُ خمسةَ آلاف ثورٍ ، وعشرون ألفَ شاةٍ ، وأقامَ بمكَّةَ حتى قضَى نُسُكَهُ.

ثُم سارَ إلى أرضِ اليمن فوافَى صنعاءَ اليمنِ وقتَ الزَّوالِ ، فأحبَّ النُّزولَ ليُصَلِّي ويتغدَّى ، فطلَبُوا الماءَ فلم يجدوهُ ، وكان الهدهدُ دليلَهُ على الماءِ ، فلما نَزَلَ سليمانُ قال الهدهدُ : إنَّ سليمانَ قد اشتغل بالنُّزولِ ، فارتفعَ الهدهدُ إلى جهةِ السَّماء ، فنظرَ يَميناً وشِمالاً فرأى خُضْرَةَ بساتين مَأْربَ في أرضِ بلقيسَ ، فمالَ إلى جهةِ الْخُضْرَةِ ، فالتقَى بهُدهُدٍ من هدهُدِ سَبَأ ، فقال لهُ : مِن أينَ أقبلْتَ وأينَ تريدُ ؟ قال : أقبلتُ من الشَّامِ مع نبيِّ الله سُليمانَ عليه السلام ، قال لهُ : ومَن سليمانُ ؟ قال : مَلِكُ الإنسِ والجنِّ والشياطين والوحوشِ والطُّيور. ثُم قال له هدهدُ سُليمانَ : وأنتَ مِن أين أقبلتَ ؟ قال : مِن هذه البلادِ ، قال : ومَن مَلِكُهَا ؟ قال : امرأةٌ يقالُ لها بَلْقِيْسُ ؛ مَلَكَتِ اليمنَ كلَّها وتحتَها اثنا عشرَ ألفَ قائدٍ ، مع كلِّ قائدٍ مائة ألفِ مقاتل ، فهل أنتَ منطلقٌ معي ننظرُ إلى مُلْكِها ؟ قال : أخافُ أن يَفْقِدَنِي سليمانُ في وقتِ الصَّلاة إذا احتاجَ إلى الماءِ ، فقال لهُ هدهدُ بلقيس : إنَّ صاحبَكم يسرُّهُ أن تأتيهِ بخبرِ هذه الملكةِ. فانطلقَ معهُ ونظرَ إلى بلقيسَ ومُلكِها ، وما رجعَ إلاّ وقتَ العصرِ.

قال : فلما نزلَ سليمانُ ودخلَ عليه وقتُ الصَّلاة ، طلب الهدهدَ لأنه نزلَ غير ماءٍ ، فسألَ الإنسَ عن الماءِ فقالُوا : ما نعلمُ هنا ماءً ، فسأل الجنَّ والشياطينَ فلم يعلَمُوا ، ففقدَ الهدهد فلم يجدْهُ ، فدعا بعفريتِ الطير النِّسْر ، فسألَهُ عن الهدهدِ ، فقال : ما أدري أينَ ذهبَ ، فغَضِبَ سليمانُ عند ذلك ، وقالَ { لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَأْذبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } أي بحجَّة.

(٠/٠)

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ } ؛ واسْمُها بلقيسُ بنتُ الشَّرْحِ ، وَقِيْلَ : شِراحيلُ بن ذي

جَدَن ، وكان مَلِكاً عظيمَ الشَّأنِ ، وكان قد مَلَكَ أرضَ اليمنِ كلِّها ، وكان يقولُ لِمُلوكِ الآفاقِ : ليس أحدٌ منكم كُفْؤٌ لِي ، وأبى أن يتزوج منهم ، فزوَّجُوهُ امرأةً من الجنِّ يقالُ لَها : ريحانة بنتُ السكن ، فولدت بَلْقِيْسَ ، ولَم يكن لهُ ولدٌ غيرَها.

وعن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " كَانَ أَحَدُهُمْ يُؤْتَى بَلْقِيْسَ جِنِّيّاً " فَلَمَّا مَاتَ أَبُوهَا وَلَمْ يُخَلِّفْ أَحَداً غَيْرَهَا طَمِعَتْ فِي الْمُلْكِ ، فَطَلَبَتْ مِنْ قَوْمِهَا أَنْ يُبَايِعُوهَا ، فَأَطَاعَهَا قَوْمٌ وَعَصَاهَا قَوْمٌ آخَرُونَ ، وَاخْتَارُواْ عَلَيْهَا رَجُلاً فَمَلَّكُوهُ عَلَيْهِمْ ، فَافْتَرَقُواْ فِرْقَتَيْنِ ، كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ اسْتَوْلَتْ بِمُلْكِهَا عَلَى طَرَفٍ مِنْ أَرْضِ الْيَمَنِ.

ثُمَّ إِنَّ هَذا الْمَلِكَ الَّذِي مَلَّكُوهُ أَسَاءَ السِّيْرَةَ فِي أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ حَتَّى كَانَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى حُرَمِ رَعِيَّتِهِ وَيَفْجُرُ بِهِنَّ ، فَأَرَادَ أَصْحَابُهُ أَنْ يُخْرِجُوهُ فَلَمْ يَقْدِرُواْ ، فَلَمَّا رَأَتْ بَلْقِيْسُ ذلِكَ أَدْرَكَتْهَا الْغَيْرَةُ ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَيْهِ ، فَأَجَابَهَا إِلَى ذلِكَ ، وَقَالَ : مَا مَنَعَنِي أَنْ أَبْدَأَكِ بِالْخِطْبَةِ إِلاَّ الْيَأْسُ مِنْكِ ، فَقَالَتْ : إِنِّي رَاغِبَةٌ إِلَيْكَ لأَنَّكَ كُفْؤٌ كَرِيْمٌ ، فَاجْمَعْ رِجَالَ قَوْمِي فَاخْطِبْنِي إِلَيْهِمْ ، فَجَمَعَهُمْ فَخَطَبَهَا إِلَيْهِمْ فَقَالُواْ : لاَ نَرَاهَا تَفْعَلُ هَذا ، قَالَ : إِنَّهَا هِيَ الَّتِي ابْتَدَأَتْنِي ، فَذَكَرُواْ لَهَا ذلِكَ ، فَقَالَتْ : نَعَمْ ؛ لأَجْلِ الْوَلَدِ ، وَلَمْ أَزَلْ كُنْتُ كَارِهَةً لِذلِكَ ، فَالآنَ قَدْ رَضِيْتُ ، فَزَوَّجُوهَا مِنْهُ.

فَلَمَّا زُفَّتْ إِلَيْهِ خَرَجَتْ فِي نَاسٍ كَثِيْرٍ مِنْ خَدَمِهَا وَحَشَمِهَا ، فَلَمَّا جَاءَتْهُ سَقَتْهُ الْخَمْرَ حَتَّى سَكِرَ ، ثُمَّ حَزَّتْ رَأْسَهُ وَانْصَرَفَتْ مِنَ اللَّيْلِ إِلَى مَنْزِلِهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ رَأوا الْمَلِكَ قَتِيْلاً وَرَأْسُهُ مَنْصُوباً عَلَى رَأْسِ دَارِهَا ، فَعَلِمُواْ أَنَّ تِلْكَ الْمُنَاكَحَةَ كَانَتْ مَكْراً وَخَدِيْعَةً مِنْهَا ، فَاجْتَمَعُواْ إِلَيْهَا وَقَالُواْ لَهَا : أَنْتِ أَحَقُّ بِهَذا الْمُلْكِ مِنْ غَيْرِكِ ، فَقَالَتْ : لَوْلاَ الْعَارُ وَالشَّنَارُ مَا قَتَلْتُهُ ، وَلَكِنْ عَمَّ فَسَادُهُ وَأَخَذَتْنِي الْحَمِيَّةُ حَتَّى فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ ، فَمَلَّكُوهَا فَأَسَّسَتْ أَمْرَهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ } ؛ قال عطاءُ : (مِنْ زِيْنَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْمَالِ وَالْجُنُودِ) ، { وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } ، أي سريرٌ من ذهَبٍ طولهُ ثَمانونَ ذِرَاعاً وعَرْضُهُ أربعونَ ذِراعاً وارتفاعهُ في السَّماء ثلاثونَ ذِراعاً مضروبٌ بالذهب مُكَلَّلٌ بالدُّرِّ والياقوتِ الأحمرِ والزُّبُرْجُدُ الأخضرُ. قال مجاهدُ : (وَكَانَ تَحْتَهَا اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ قَيْلٍ – وَالْقَيْلُ بلُغَةِ الْيَمَنِ – تَحْتَ يَدَي كُلِّ قَيْلٍ أَلْفُ مُقَاتِلٍ). وَقِيْلَ : كان سريرُها له أربعُ قوائمَ : قائمةٌ من ياقوتٍ أخضر ، وقائمةٌ من ياقوتٍ أحمر ، وقائمةٌ من زمُرُّد ، وقائمةٌ من دُرٍّ ، وصفائحُ السريرِ من ذهبٍ ، وعليه سبعةُ أبياتٍ لكلِّ بيتٍ بابٌ مغلَقٌ.

(٠/٠)

وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ } ؛ قال الحسنُ : (كَانَ الْقَوْمُ مَجُوساً وَكَانُواْ يَتَعَطَّفُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ مُوَاجِهِيْنَ لِلشَّمْسِ) ، وقولهُ تعالى : { وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } ؛ أي حَسَّنَ لَهم قبيحَ أعمالِهم ، { فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ } ؛ أي عن الطريقِ ، { فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ } ؛ إلى طريق الحقِّ.

(٠/٠)

أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلاَّ يَسْجُدُواْ لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } يجوزُ أن يكون ابتداءُ خطابٍ من اللهِ ، ويجوزُ أن يكون من قولِ الْهُدْهُدِ أو من قولِ سُليمان.
قرأ الكسائيُّ والأعرجُ ويعقوب وحميدُ وأبو جعفرٍ : (ألاَ يَسْجُدُواْ) بالتخفيف : ألاَ يا هؤلاءِ اسْجُدُوا ، جعلوهُ من أمرِ الله مستأنَفاً ، وحذفُوا (هَؤُلاَءِ) اكتفاءً بدلالةِ (يَا) عليها ، فعلى هذه القراءةِ (اسْجُدُواْ) في موضع جزمٍ على الأمرِ والوقفُ عليه (ألاَ يَا) ، ثُم يبتدئُ (اسْجُدُوا) ، وفي قراءةِ عبدِالله (هَلاَّ يَسْجُدُواْ للهِ). وقرأ الباقونَ (ألاَّ يَسْجُدُواْ) بالتشديدِ على معنى وزَيَّنَ لَهم الشيطانُ ألاَّ يَسْجُدُوا.
وقولهُ تعالى : (يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) ، الْخَبَأُ : كلُّ ما غابَ عن الإدراك ، مصدرٌ وقد وقعَ موقع المفعولِ كالْخَلْقِ بمعنى المخلوقِ والعلمِ بمعنى المعلومِ ، وخبأُ السَّموات : الأمطارُ ، وخبأُ الأرض : النباتُ ، فعلى هذا تكون (فِي) بمعنى (مِن). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } ؛ أي يعلمُ ما يُخفون في قُلوبهم ، وما يُعلِنون بألسنتِهم ، وفي قراءةِ الكسائيِّ بالتاء ، لأنَّ أولَ الآية خطابٌ على قراءتهِ بتخفيف (ألاَ) يا اسجُدوا.

(٠/٠)

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } ؛ أراد بالعرشِ في هذه الآية سريرَ الْمُلْكِ الذي عظَّمَهُ اللهُ ورفعَهُ فوقَ سَموات سبعٍ وجعلَهُ أعظمَ من السَّمواتِ والأرض ، ومِن أعظم كلِّ خلقٍ ، وجعل الملائكة تَحُفُّ به وترفعُ أعمالَ العباد إليهِ ؛ أي هو الذي يستحقُّ العبادةَ لا غيره ، وهو ربُّ العرشِ لا ملكةَ سَبَأ ؛ لأن عرشَها وإن كان عَظِيماً لا يبلغُ عرشَ الله في العِظَمِ.

فلمَّا فَرَغَ الهدهدُ من كلامه ، { قَالَ } ؛ سليمانُ للهدهدِ : { سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ } ؛ فيما أخبَرْتَنا به مِن هذه القصَّة ، { أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } فنعذِّبُك.

ثُم كتبَ سليمانُ كِتاباً خَتَمَهُ بخَاتَمٍ ودفعهُ إلى الهدهدِ ، وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { اذْهَب بِّكِتَابِي هَاذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ } ؛ أي إلى أهل سبأ. وقولهُ تعالى : { ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ } ؛ أي انصرِفْ عنهم ، وهذا على التقديْمِ والتأخيرِ ، تقديرهُ : { فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } ؛ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ؛ لأن التولِّي عنهم بعد الجواب ، ومعنى { فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } أي ماذا يردُّونَ من الجواب. وَقِيْلَ : معناهُ : { ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ } أي انْصَرِفْ عنهم قَليلاً إلى حيث لا يَرَوْنَكَ { فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } أي يقولُون ويردون ويحسبون.

وكان كتابُ سُليمانَ عليه السلام : مِنْ عَبْدِ اللهِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ إِلَى بَلْقِيْسَ مَلِكَةِ سَبَأ ، السَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. أمَّا بَعْدُ : فَلاَ تَعْلُوا عَلَيَّ وأْتُونِي مُسْلِمِيْنَ. وقال ابنُ جريج : (لَمْ يَزِدْ سُلَيْمَانُ عَلَى نَصِّ اللهِ كِتَابِهِ). فلمَّا كَتَبَ الكتابَ طَبَعَهُ بالْمِسْكِ وخَتَمَهُ بخاتَمِهِ ، وقال للهُدهدِ : اذْهَبْ بِهِ ، فأخذ الكتابَ بمنقارِهِ وذهبَ به.

فلما أغلقَتِ المرأةُ الأبوابَ دونَها ونامَتْ على سريرِها ، ووضعت المفاتيحَ تحت وسادَتِها ، فأتَى بها الهدهدُ من الكُوَّةِ وهي نائمةٌ مستلقية على قَفَاهَا ، فألقى الكتابَ على وجهِها ونبَّهَها بمنقارِهِ وصوتِهِ ، فأخذتِ الكتابَ ، وكانت كاتبةً قارئة عربيَّة من تُبَّعٍ سراحيل الْحِمْيَرِيِّ ، فقرأتِ الكتابَ وناخَرَ الهدهدُ غيرَ بعيدٍ ، فدعت بذوي الرَّأيِ من قومِها وهم اثنا عشرَ ألفَ قائدٍ مع كلِّ قائد مائة ألفِ مُقاتلٍ.

وقال قتادةُ : (كَانَ أَهْلُ مَشُورَتِهَا ثَلاَثُمِائَةٍ وَثَلاَثَةَ عَشَرَ رَجُلاً) فجَاؤُا إليها ، و { قَالَتْ } لَهم : { يا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } ؛ أي حَسَنٌ ، وَقِيْلَ : شريفٌ ، وَقِيْلَ : مَخْتُومٌ ، قال صلى الله عليه وسلم : " كَرَامَةُ الْكِتَاب خَتْمُهُ " وقولهُ تعالى : { إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ } ؛ أي الكتابُ مِن سليمانَ ، { وَإِنَّهُ } ؛ المكتوب ، { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُواْ } أي لا تَستَكبِروا ، { عَلَيَّ } ولا ترَفَّعُوا علَيَّ ، { وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } ؛ منقادِين طائعين.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ } بدلٌ من (كِتَابٌ) وموضعهُ على هذا القولِ رفعٌ ، ويجوزُ أن يكون نَصباً على معنى بأن لاَ تَعْلُوا عَلَيَّ. وَقِيْلَ : معنى قوله { وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } أي مُؤمِنين باللهِ ورسولهِ مِن الإسلامِ الذي هو دِينُ اللهِ. وَقِيْلَ : مُستَسْلِمين لأَمْرِي فيما أدعُوكُم إليه ، فإنِّي لا أدعُوكُم إلاّ إلى حقٍّ ، فأطيعُونِي قبلَ أن أكْرِهَكُم على ذلكَ.

(٠/٠)

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)

قَوْلَهُ تَعَالَى : { قَالَتْ ياأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي } ؛ أي قالت لأهلِ مشورَتِها : بَيِّنُوا لِي. ما أعملُ في أمرِي بما هو الصوابُ ، وأشِيرُوا عليَّ ، فإنِّي { مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً } ؛ من الأمور في ما مَضَى ، { حَتَّى تَشْهَدُونِ } ؛ تحضُرونَ فتُشاورُوني ، فأَشِيرُوا عليَّ في هذا الكتاب ، ما أصنعُ فيهِ ؟ { قَالُواْ } ؛ مُجِيبينَ لَها : { نَحْنُ أُوْلُو قُوَّةٍ } ؛ وعُدَّةٍ في القتالِ لَم يبلُغْنا عدوٌّ قط ، وَنحنُ { وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ } ؛ في الحرب ، ذكَرُوا لها قوَّتَهم وشجاعَتَهم ، وهذا تعريضٌ منهم بالقتالِ إن أمرَتْهُم بذلكَ.
ثُم قالُوا : { وَالأَمْرُ إِلَيْكِ } ؛ أي في القتالِ وتَرْكِهِ إن أمَرْتِنا بالقتالِ قاتلناهُ ، وإنْ أمَرْتِنا بغيرِ ذلك فعلناهُ ، وذلك معنى قولهِ : { فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ } أي ماذا تُشِيرِينَ علينا.

(٠/٠)

قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا } ؛ أي قالَتْ مُجيبةً لَهم عن التعريضِ بالقتالِ : إنَّ الملوكَ إذا دخَلُوا قريةً عُنْوَةً عن غفلةٍ وقِتَالٍ أفْسَدُوها ؛ أي خرَّبُوهَا وأهْلَكُوهَا ، { وَجَعَلُواْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً } أي وأهَانُوا أشرَافَها وكُبَراءَها كي يستقيمَ لَهم الأمرُ. وَقِيْلَ : معنى قولهِ { وَجَعَلُواْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً } أي بالقَتْلِ والأسرِ والاستعباد وأخذِ المالِ ، وانتهى الكلامُ ها هنا.
قال اللهُ تصديقاً لَها : { وَكَذالِكَ يَفْعَلُونَ } ؛ أي كما قالَتْ هُم يفعلُونَ. ومعنى الآية : أنَّها حذرَتْهُمْ مسيرَ سُليمانَ إليهم ودخولَ بلادِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ } ؛ وذلك أنَّها لَمَّا تدبَّرَتْ في أمرِها قَوَّتِ الْمُلاطفةَ بالْهَدايَا ، وكانت مِن أولادِ الملوكِ ، تعرفُ عادتِهم وحُسْنَ مواقع الهدايا عندَهم ، فإنَّ ذلك هو الأَولى ، وكانت بلقيسُ امرأةً لَبِيْبَةً أدِيْبَةً ، فقالَت بهذا القولِ اختِبَاراً لسليمانَ : أمَلِكٌ هو أم نَبيٌّ ؟ فإن كان مَلِكاً قَبلَ الْهَدايا وتَرَكَ الوُصولَ إلى بلدِها ، وإنْ

كان نَبيّاً لَم يرضَ بالْهَدِيَّةِ ، ولا يُرضِيه إلاّ أن تَتَّبعَهُ ، فهيَّأَتِ الْهَدايا من الْمِسْكِ والعَنْبَرِ والعُودِ وغيرِ ذلك ، وأهدت له خَمسَمِائَةِ عبدٍ وخَمسَمِائَةِ جَارِيةٍ ، وأهدَتْ له أيضاً صِحَافَ الذهب وخمسَمائة لَبنَةٍ من ذهبٍ وخمسَمائة لَبنَةٍ من فِضَّةٍ ، وتَاجاً مُكَلَّلاً بالدُّرِّ والياقوتِ.

(٠/٠)

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ } أي فلما جاءَ رسولُها إلى سُليمانَ يُهْدِيَهُ ، { قَالَ } ؛ لهُ سُليمانُ : { أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ آتَاكُمْ } وأنا أكثرُ أهلِ الدُّنيا مالاً ولستُ مِمَّن يرغبُ في المالِ ، { بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ } ؛ أي إذا أهْدَى بعضُكم إلى بعضٍ فَرِحُوا بذلكَ ، وأما أنَّا فلا أفرحُ لأنَّكم أهلُ مفاخرة ومكاثرةٍ في الدُّنيا.

وفي الخبر : أنَّ سُليمانَ عليه السلام لَمَّا عَلِمَ بالْهَدايَا قَبْلَ أنْ تَصِلَ إليه أمَرَ أنْ يضرَبَ لَبنَاتٍ مِن الذهَب أحسنَ وأجودَ مما كانَ مع رسُولِها ، وأمَرَ أن تُلْقَى تلك اللَّبنَاتُ بين قوائمِ الدَّواب حتى تَرُوثَ وتَبُولَ عليها ، فلمَّا رأى ذلك الرسولُ استخَفَّ الهديَّةَ التي كانت معهُ ، وكانت بلقيسُ قد قالت لرسُولِها : إذا دخلْتَ عليهِ ، فَإذا نَظَرَ إليكَ نَظَرَ غَضَبٍ ، فَاعْلَمْ أنَّهُ مَلِكٌ يَهُولَنَّكَ منظرهُ ، فأنا أعَزُّ منه ، وإنْ نَظَرَ إليكَ بوجهٍ طَلِقٍ فإنه نَبيٌّ مرسلٌ ، فتَفَهَّمْ قولَهُ ورُدَّ الجوابَ. فَانْطَلَقَ الرسولُ بالْهَدايا ومعهُ الْهُدهُدُ مُسْرِعَين إلى سليمانَ.

فلمَّا وَصَلَ الرسولُ إلى سليمانَ وجَدَهُ قاعداً في مجلسهِ على سريره ، وعلى يَمينه أربعةُ آلاف كرسِيٍّ من ذهبٍ ، وعن يساره مثلُ ذلكَ ، وقد اصطَفَّتِ الإنسُ صُفوفاً وفراسِخَ ، واصطَفَّتِ الجنُّ والشياطينُ والوحوش والسِّباع والْهَوَامُّ والطيرُ كذلك صُفوفاً وفراسخَ ، عن يَمينهِ ويسارهِ.

فلما رَأوا الشياطينَ نظَرُوا إلى منظرٍ فَضِيعٍ ففَزِعُوا منهم ، فقالت لَهم الشياطينُ : جُوزُوا فَلا بأسَ عليكم ، فكانوا يَمرُّونَ على كلِّ كرُوُوسٍ من الجنِّ والإنس والطيرِ والوحوش حتى وقَفُوا بين يدَي سليمانَ ، فنظرَ إليهم نَظَراً حَسَناً بوجهٍ طَلِقٍ ، وقال : ما وراءَكم؟

فأخبَرَهم رئيسُهم بما جَاءُوا به من الْهَدِيَّةِ ، وأعطاهُ كِتَاباً من الملكةِ ، فنظرَ فيه ، ثُم قالَ لرسُولِها : { ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا } ؛ أي بعَسَاكِرَ لا طاقةَ لَهم بها ، { وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ } ؛ مِن بلادِهم ، { أَذِلَّةً } ؛ مغلولةً أيْدِيهم إلى أعناقِهم ، { وَهُمْ صَاغِرُونَ } ؛ أي مُهَانُونَ.

فلمَّا أخبَرَها الرسولُ بذلكَ ، قالت : قد عرفتُ ما هذا بمَلِكٍ ، وما لَنَا من طاقةٍ ولا ينبغِي لنا مخالفتهُ ، فتجهَّزَت للميسرِ إليه ، ثُم عمَدَتْ إلى سريرِها فوضعتْهُ في سبعةِ بيوت مقفلة الأبواب ، بيتٌ فوقَ بيتٍ وجعلته في الطَّبقة السابعةِ ، وجعلتِ الجيوشَ حولَهُ وخرجَتْ متوجِّهة إلى سليمانَ.

فجاءَ جبريلُ عليه السلام إلى سليمانَ وأخبرَهُ بمجيئها إليه ، { قَالَ } سليمانُ : { ياأَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا } ؛ أي سَرِيرِ مُلكِها ، { قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } ؛ أي مُؤمنينَ ، وَقِيْلَ : صَاغِرِين مُستَسْلِمين منقادينَ.

وإنَّما خَصَّ العرشَ بالطلب ؛ لأنه أعْجَبَهُ صِفَتُهُ ، فأحبَّ أن يُعاتِبَها به ، ويختبرَ عقلَها به إذا رأتْهُ ، تعرفهُ أم تُنكِرهُ ، وأحبَّ أن يُرِيَها قدرةَ اللهِ في معجزةٍ يأتِي بها في عرشِها ، وأحبَّ أن يأخُذ عرشَها قَبْلَ أنْ تُسْلِمَ ، فلا يحلُّ أخذُ مالِها بعدَ الإسلامِ ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ }.

(٠/٠)

قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ عِفْرِيتٌ مِّن الْجِنِّ } ؛ يعرفُ بعَمْرٍو ، والجِنِّيُّ والعفريتُ في كلِّ شيءٍ : الْمُبَالِغُ الْحَاذِقُ ، يقالُ : رَجُلٌ عِفْرٌ وَعِفْرِيْتٌ وعِفْرِيَةٌ ، بمعنى واحدٍ ، والجمعُ عَفَاريتُ وَعَفَارَى ، وَقِيْلَ : العفريتُ من الجِنِّ الْمَارِدُ القويُّ الغليظ الشديدُ. وَقِيْلَ : اسمُ العفريتِ الدَّاهِيَةُ.

قِيْلَ : إنَّها سارَتْ إلَى سليمانَ في اثنَى عشرَ ألفَ قِيْل ، تحتَ كلِّ قِيْل ألُوفٌ كثيرةٌ ، فخرجَ سليمانُ ذات يومٍ وإذا هو يَرَى هَرَجاً قريباً منهُ ، فقال : ما هَذا ؟ قالوا : بلقيسُ ، قال : نزلَتْ منَّا بهذا المكانِ.

قال ابنُ عبَّاس : (وَهُوَ مَكَانٌ بَيْنَ الْحِيْرَةِ وَالْكُوفَةِ بُعَيْدَ فَرْسَخٍ) فأقبلَ حينئذ سليمانُ على جنودهِ ، وقال : { أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟ }.

واختلفَ أهلُ العلمِ في السَّبب الذي لأجلهِ أمرَ سليمانُ بإحضار عرشِها ، قِيْلَ : أنْ يَحْرُمَ عليه أخذهُ بإسلامِها. وقال قتادةُ : (إنَّهُ أعْجَبَهُ صِفَتُهُ لَمَّا وَصَفَهُ لَهُ الْهُدْهُدُ ، فَأَحَبَّ أنْ يَرَاهُ) ، وقال ابنُ زيدٍ : (أرَادَ أنْ يَخْتَبِرَ عَقْلَهَا بتَنْكِيْرِ عَرْشِهَا وَلِيَنْظُرَ هَلْ تَعْرِفُهُ إذا رَأتْهُ أوْ تُنْكِرُهُ) ، وَقِيْلَ : لِيُرِيَها قدرةَ اللهِ وعِلْمَ سُلْطانهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ } ؛ أي من مجلسِ قضَائِكَ ، وكان سليمانُ يجلسُ للقضاء من الغَدَاةِ إلى انتصافِ النَّهار ، وقال مقاتلُ : (قَالَ الْعِفْرِيْتُ : أنَا أضَعُ قَدَمِي عِنْدَ مُنْتَهَى بَصَرِي ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أسْرَعُ مِنِّي) { وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ } ؛ أي قَوِيٌّ على حملهِ ، أمينٌ على ما فيهِ مِن الذهب والجواهرِ. فقال سليمانُ : أريدُ أسرعَ مِن ذلكَ.

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ } ؛ وهو آصِفُ بن بَرَخْيَا كان يعلَمُ الاسمَ الأعظمَ الذي إذا دُعِيَ له أجابَ ، وهذا قولُ أكثرِ المفسِّرين. وقال بعضُهم : هو جبريلُ ، وَقِيْلَ : هو مَلَكٌ من الملائكةِ.

وقولهُ تعالى : { أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } ؛ قال ابنُ جبير : (قَالَ لِسُلَيْمَانَ : انْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ ، فَمَا طَرَفَ حَتَّى جَاءَ بِهِ فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ). والمعنى : حتى يعودَ إليك طَرْفُكَ بعد مَدِّهِ إلى السَّماء. وَقِيْلَ : معناهُ : بقدر ما تفتحُ عينَيْكَ ، وهذا الكلامُ عبارةٌ عن المبالغةِ في السُّرعةِ.

قال محمَّدُ بن اسحق : (انْخَرَقَ مَكَانُ عَرْشِهَا حَيْثُ هُوَ ، ثُمَّ نَبَعَ بَيْنَ يَدَي سُلَيْمَانَ) ومثلُ هذا رُوِيَ عن ابنِ عبَّاس. وقال الكلبيُّ : (خَرَّ آصِفُ سَاجِداً وَدَعَا بالاسْمِ الأَعْظَمِ ، فَغَارَ عَرْشُهَا تَحْتَ الأَرْضِ حَتَّى نَبَعَ عِنْدَ كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ).

قال أهلُ المعاني : لا يُنْكَرُ من قدرةِ الله " نقله " من حيث كانَ ، ثُم يوجدهُ حيث كانَ سليمانُ بالأفضلِ ، لدعاءِ الذي عندَهُ علمٌ من الكتاب ، ويكونُ ذلك كرامةً للوليِّ ومعجزةً للنبيِّ.

واختلَفُوا في ذلكَ الدُّعاءِ الذي دعَا به آصِفُ ، فقال مقاتلُ ومجاهد : (يَا ذا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ) ، وقال الكلبيُّ : (يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ) ، وَقِيْلَ : قالَ له سليمانُ : قد رأيتُكَ تُرْجِعُ شفَتيكَ فَمَا قُلْتَ ؟ قالَ : قلتُ : إِلَهِي وَإِلَهَ كلِّ كل شيء واحدٌ لا إلهَ إلاّ أنتَ إيَّتِ بهِ. وقال بعضُهم : هو يا إِلَهَنَا وإلهَ كلِّ شيء ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ لا إلهَ إلاّ أنتَ. وقال الحسنُ : (اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ : يَا رَحْمَنُ ، وَذلِكَ أَنَّهُ لاَ يُسَمَّى أَحَدٌ بِهَذيْنِ الاسْمَيْنِ عَلَى الإِطْلاَقِ غَيْرُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً } ؛ أي فلمَّا رأى سليمانُ العرشَ مستَقِرّاً ، { عِندَهُ } ، نَابتاً بين يديهِ ، { قَالَ هَاذَا مِن فَضْلِ رَبِّي } ؛ أي هذا التمكينُ من حصولِ المراد من حصولُ فَضْلِ اللهِ وعطائهِ ، { لِيَبْلُوَنِي } ؛ أي ليَخْتَبرَنِي ويَمْتَحِنَني على هذه النعمةِ ، { أَأَشْكُرُ } ؛ أأشكرهُ فيما أعطانِي من نعمةٍ ، { أَمْ أَكْفُرُ } ؛ أي أتركُ شُكرَها ، { وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ } ؛ أي مَن شَكَرَ نعمةَ ربهِ فإنَّما منفعةُ شُكْرِهِ راجعٌ إلى نفسهِ ، يعني ثوابَ شُكرِهِ يعودُ إليه ، { وَمَن كَفَرَ } ؛ أي تَرَكَ شُكْرَ نعمتهِ ، { فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ } ؛ عنهُ وعن شُكرهِ ، { كَرِيمٌ } ؛ يقبلُ الشُّكْرَ ؛ أي ويزيدُ عليه في النعمةِ في الدُّنيا ويثيبُ عليه في العُقبَى.

(٠/٠)

قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا } ؛ قال سليمانُ : غيِّرُوا سريرَها وزيدُوا فيه وأنقِصُوا منهُ حتى ، { نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ }.

(٠/٠)

فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ } ؛ أي فلما جاءت بلقيسُ إلى سليمانَ ، قِيْلَ : أهكذا سَريرُكِ ؟ فجعلت تعرفُ وتُنكِرُ ، وعَجِبَتْ من حضورِهِ عند سُليمانَ ، و { قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ } ؛ وقال مقاتلُ : (عَرَفَتْهُ وَلَكِنَّهَا شَبَّهَتْ عَلَيْهِ كَمَا شَبَّهُواْ عَلَيْهَا ، وَلَوْ قِيْلَ لَها : أهَذا عَرْشُكِ ؟ لَقَالَتْ : نَعَمْ. فقيلَ لَها : فإنه عرشُكِ ، فما أغنَى عنكِ إغلاقُ الأبواب ، وكانت قد خلَّفتْهُ وراءَ سبعةِ أبوابٍ لَمَّا خرجت والمفاتيحُ معَها ، فلم تُقِرَّ ولَم تُنْكِرْ ، فَعَلِمَ سليمانُ كمال عقلِها).

وقال عكرمةُ : (كَانَتْ حَكِيْمَةً ، قَالَتْ : إنْ قُلْتُ هُوَ هُوَ خَشِيْتُ أنْ أكْذِبَ ، وَإنْ قُلْتُ لاَ خَشِيْتُ أنْ أكْذِبَ) فلَم تقُلْ نَعَمْ ، ولا قالت لاَ ؛ لأنه كان يشبهُ سريرَها ، وشكَّتْ في وصولِهِ إلى سليمانَ بعد أن وضعتْهُ في أحصَنِ المواضعِ ، وشَكَّتْ أيضاً لِمَا أحدثُوا فيه من التغيُّرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ } ؛ هذا من قولِ سُليمانَ عليه السلام وقومَهُ ، أي قالُوا : وأُعطينا العلمَ بها وبمُلكِها وسريرِها من قبلِ مَجيئِها ، وهو ما أخبرَ به الهدهدُ من شأنِها وقصَّتِها ، وقالوا : وَكُنَّا مُسْلِمِيْنَ بحمدِ الله عَزَّ وَجَلَّ من قبلِ مشاهدةِ المعجزات ، وهذا قولُ مجاهدٍ.

وقال بعضُهم : هذا قولُ من بلقيسَ لَمَّا رأت عرشَها قالت : وَأُوتِينَا العلمَ بصحَّة نبوَّة سليمانَ عليه السلام من قَبْلِ الآيةِ في العرضِ وكنا مُسْلِمِيْنَ طائعينَ منقادين لأمرِ سُليمانَ عليه السلام قبلَ أن نجيءَ إليه.

(٠/٠)

وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ } ؛ أي منعَها الإيْمَانَ بالله العبادةُ التي كانت عليها من عبادةِ الشَّمسِ. والمعنى وَصَدَّهَا عَنِ الإيْمانِ والتوحيدِ الذي كَانَتْ تعبدُ من دونِ اللهِ ؛ وهو الشمسُ ؛ لأنَّها نشأَتْ في قومٍ لَم يكونوا يَعْرِفُونَ إلاّ عبادةَ الشَّمسِ ؛ لأنَّها كانت من الْمَجُوسِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ } ؛ أي إنَّها كانت من قومٍ يعبدونَ الشَّمسَ ، فنشأَتْ في ما بينِهم. وقال بعضُهم معنى قولهِ : { وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ } أيْ صَدَّهَا سليمانُ ؛ أي منعَها ذلك ، وحالَ بينَهُ وبينَها ، فعلى هذا يكون موضعُ (مَا) نصباً.

(٠/٠)

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ } ؛ وذلك أنَّ بلقيسَ لَمَّا لم تُسلِمْ بما رأتْ من الآياتِ ، أرادَ سليمانُ عليه السلام أن يُرِيهَا آيةً أُخرَى لتُسْلِمَ ، فأمرَ الجنَّ والشياطينَ أن يَبْنُوا لَها صَرْحاً ؛ أي قَصْراً من زجاجٍ مُمَلَّسٍ ، وأن يُجْرُوا تحتَهُ الماءَ ، ويجعلُوا فيه الْمِسْكَ والزُّمُرُّدَ الأملسَ ، وشجرةٌ مَرْدَاءُ ؛ أي ملساءُ لا وَرَقَ لَها. ففعَلُوا ذلكَ ثُم وضَعُوا لَهُ سريراً في صدر الصَّرحِ فجلسَ عليهِ ، وعكفَتْ عليه الطيرُ والجنُّ والإنس.
وَقِيْلَ : إنَّ سليمانَ عليه السلام إنَّما أمَرَ ببناءِ الصَّرحِ ؛ لأن الجنَّ كانوا قد أخبَروهُ أن رجلَها رجْلُ حِمَارٍ ، وإنَّها شعراءُ الرِّجْلَين ؛ لأن أُمَّهَا كانت من الجنِّ ، فخَافُوا أن يتزَوَّجَها فتُفشِي إليه أسرارُ الجنِّ ، فأرادُوا أن يُزهِدُوهُ فيها بهذا الكلامِ ، وقالوا لَهُ أيضاً : إنَّ في عقْلِها شيءٌ ، فأرادَ أن يختبرَ حقيقةَ قولِهم أنَّ رجْلَها كحافِرِ الحمار ، ولينظُرَ إلى سَاقِها هل به شَعْرٌ كما قالوا { قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ } أي القَصْرَ ، وَقِيْلَ : صَحْنُ القصرِ.
قال الزجَّاجُ : (والصَّرْحُ : الْقَصْرُ والصَّحْنُ ، يُقَالُ : هَذِهِ سَاحَةُ الدَّار وصُرْحَةُ الدار). والصَّرْحُ في اللغة : هو البَسْطُ المنكشفُ من غير سَقْفٍ ، ومنهُ صَرَّحَ بالأمرِ إذا أفصحَ به ولَم يُكَنِّ عنهُ ، والتصريحُ بخلافِ التَّضميرِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا رَأَتْهُ } ؛ أي فلمَّا رأتْ بلقيسُ الصَّرْحَ على تلك الصِّفةِ ، { حَسِبَتْهُ لُجَّةً } ؛ واللُّجَّةُ

مُعْظَمُ الماءِ الكثيرِ ، { وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا } ؛ أي رَفَعَتْ ثِيابَها عن ساقيها حتى لا تَبْتَلَّ ثيابُها على ما هو العادةُ من قصدِ الماء. قال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا كَشَفَتْ سَاقَهَا رَأى سُلَيْمَانُ قَدَماً لَطِيْفاً وَسَاقاً حَسَناً خَدْلَجاً ، إلاَّ أنَّهَا كَثِيْرَةُ شَعْرِ السَّاقَيْنِ). فَلمَّا رأى سليمانُ ذلك صَرَفَ بصرَهُ عنها ، ونادَها : { قَالَ إِنَّهُ } ، ليس هذا بماءٍ ، وإنَّما هو ، { صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوارِيرَ } ؛ أي مُمَلَّسٌ من زُجاجٍ ، فلا تَخافِي وَاعبُرِي عليهِ ، فلمَّا رأتِ السَّريرَ والصَّرْحَ عَلِمَتْ أنَّ مُلْكَ سليمانَ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، و { قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي } ؛ بعبادةِ الشَّمسِ ، { وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ أي أخْلَصْتُ التوحيدَ.

والمعنى : أنَّ بلقيسَ اسْتَدَلَّتْ بما شاهدَتْ على وحدانيَّة اللهِ وصِحَّةِ نُبوَّةِ سُليمانَ بما رَأتْ مِن شِدَّةِ قوَّتِهِ وما كان مِن تَرَسُّلِ الطيرِ له ، وإحضار عَرشِها في أسرعِ مدَّة على بُعْدِ المسافةِ. وَبناءِ الصَّرحِ من القَوَارِيْرِ على وجهِ الماء ، فلذلكَ قالَتْ : { ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } فتزوَّجَها سليمانُ عليه السلام.

وَقِيْلَ : لَمَّا أرادَ سليمانُ أن يتزوَّجَها كَرِهَ ذلك لِمَا رأى من كَثْرَةِ شَعْرِ ساقيها ، فسألَ الإنسَ : ما يُذْهِبُ هذا ؟ قالُوا : الْمُوسى ، فقال : إنَّها تقطعُ ساقَيها ، فسألَ الجِنَّ فقالوا : لا نَدري ، ثُم سأَلَ الشياطينَ فقال لَهم : كيفَ لِي أن أقلعَ هذا الشَّعْرَ من غير مضَرَّةٍ للجسدِ ؟ فدلُّوه على عَمَلِ النُّورَةِ ، وكانت النُّورَةُ والحمَّامَاتُ من يومئذٍ ، فاتَّخَذُوا لَها النُّورَةَ والحمَّامَ ، وتزَوَّجَها سليمانُ عليه السلام ، فلما تزوَّجَها أحبَّها حُبّاً شديداً ، وأقرَّها على مُلْكِهَا ، وأمَرَ الجنَّ بأَنْ يَبْنُوا لَها بأرضِ اليَمَنِ ثلاثةَ حُصُونٍ لَم يُرَ مِثلُها حُسْناً وارتفاعاً ؛ وهي سَيْلَحِيْنَ وَسُونَ وَغَمْدَانَ ، ثُم كان سليمانُ يَزُورُهَا في كلِّ شهرٍ مرَّةً بعد أن رَدَّهَا إلى مُلكِها ، ويقيمُ عندَها ثلاثةَ أيَّام ، وولدت لَهُ أولاداً في ما ذُكِرَ.

ورُوِيَ أنَّ رَجُلاً جاءَ إلى عبدِالله بن عُتْبَةَ وسألَهُ : هل تَزَوَّجَ سليمانُ بلقيسَ ؟ فقالَ : (عَهْدِي بهَا أنْ قَالَتْ : وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَب الْعَالَمِيْنَ) يَعنِي أنهُ لا يَعلَمُ ذلكَ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ } ؛ يعني بأنِ اعْبُدُوا اللهَ وحده ، فآمَنَ بِهِ فريقٌ وكَفَرَ به فريقٌ ، فجعلَ الفريقان يختَصِمُونَ كما قالَ تعالى في سُورةِ الأعرافِ{ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ }[الأعراف : ٧٥]. وقولهُ تعالى : { فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ } ؛ أي فإذا هُم مُؤْمِنٌ وكافرٌ ، مُصَدِّقٌ ومُكَذِّبٌ ، يختصمُونَ في الدِّين ، كلُّ فريقٍ منهم يقولُ : الحقُّ معِي.

(٠/٠)

قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦)

وقولهُ تعالى : { قَالَ ياقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ } ؛ فيه ضميرٌ تقديرهُ : إنَّ المؤمنين أوْعَدُوا الكافرينَ على كُفرِهم وتَكذِيبهم ، فاستعجلَ الكافرون العذابَ ، فقال صالِحٌ عليه السلام للكافِرين المكذِّبين : (لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ) أي بالعذاب قبلَ الرَّحمةِ ، ولا تستعجلونَ الثَّوابَ الموعود على الإيْمانِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ } ؛ أي هَلاَّ تَستغفِرُونَ اللهَ عن كُفْرِكُمْ وتكذِيبكم ، { لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ؛ أي فلاَ تعذبون فِي الدُّنيا.

(٠/٠)

قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ } ؛ أي تَشَاءَمْنَا بكَ وبمَن معكَ بما لَحِقَنَا من نُقصَانِ الزَّرعِ والثمار والمياهِ. والتَّطَيُّرُ : هو التَّشَاؤُمُ ، وأصلهُ : تَطَيَّرْنَا بكَ وَبمَنْ مَعَكَ ، وذلكَ أنه قحط المطرِ عنهم وجَاعُوا فقالوا : أصَابَنَا هذا البلاءُ والضرُّ من شُؤمِكَ وشُؤْمِ أصحابكَ.
وإنَّما ذُكِرَ التطيُّرُ بلفظِ التَّشَائُمِ على عادةِ العَرَب في نِسْبَتِهِمُ الشُّؤْمَ إلى ما يَأْتِي من الطَّيرِ ناحيةَ اليَدِ الشِّؤمَى وهي اليُسْرَى ، ويُسَمُّونَ الطَّيرَ الذي يأتِي من ناحية اليد اليُسْرَى البَارِحُ ، وأما الطَّيْرُ الذي يأتي من ناحيةِ اليد اليُمْنَى فهو السَّانِحُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ } ؛ أي قال لَهم صالِحُ عليه السلام رَدّاً عليهم : { طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ } أي الشُّؤْمُ أتَاكُم من عندِ الله بكُفْرِكُمْ ، وهذا الذي أصَابَكم من الْجَدْب والخصب عندَ الله مكتوبٌ عليكم ، لاَزِمٌ لاكم في أعنَاقِكم وليسَ ذلك إلَيَّ ولا علمهُ عندِي ، وهذا كقولهِ{ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ }[الأعراف : ١٣١].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ } ؛ أي تَخْسَرُونَ في الدُّنيا باختلافِ الأحوالِ من الخير والشرِّ.
وَقِيْلَ : معناهُ : بل أنتُمْ قومٌ تُعَذبُونَ بذُنُوبكُمْ. وَقِيْلَ : تُمْتَحَنُونَ بإرسَالِي إليكُم لِتُثَابُوا على مُتابَعَتِي ،

وتُعَاقَبُوا على مُخَالَفَتِي. وَقِيْلَ : بمعنى (تَفْتَنُونَ) أي تُعاقَبون كما في قولهِ تعالى : { ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ }[الذاريات : ١٤] أي عُقوبَتَكُمْ.

(٠/٠)

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ } ؛ معناهُ : كان في مدينةِ صَالِحٍ عليه السلام وهي الْحِجْرُ تسعةُ رَهْطٍ من الفُسَّاقِ من أبناءِ رُؤَسَائِهِمْ وهم غُوَاةِ قَومِ صَالِح يُفسِدُونَ في الأرضِ بالمعاصِي ولا يُصلِحُونَ ولا يُطِيعُونَ اللهَ ، ولا يَأْتَمِرُونَ بالصَّلاحِ ، وأسْمَاؤُهم قُدَارُ بن سَالِفُ ؛ ومُصدع ؛ وأسلم ؛ ودهم ؛ وذهيم ؛ وذعما ؛ ودغيم ؛ وقتَّال ؛ وضرَّاب.

(٠/٠)

قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ } ؛ أي قَالُوا فيما بينَهم : احْلِفُوا باللهِ ؛ أي تَحَالَفُوا باللهِ لتَدْخُلُنَّ على صالحٍ وعلى أهلهِ الذين آمَنُوا معه لَيْلاً فنَقْتُلَهُمْ بَيَاتاً. قرأ يحيَى وحمزةُ والأعمش والكسائيُّ وخلف (لَتُبَيِّتَنَّهُ) بالتاءِ و(لَيَقُولَنَّ) بالياء وضمِّ التاء واللاَّم على الخطاب.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } ؛ فيما نقولُ ، وقرأ عاصمُ برواية أبي بكرٍ (مَهْلَكَ) بفتحِ الميم واللامِ ، والْمَهْلَكُ : يجوز أن يكونَ مصدراً بمعنى الإهْلاَكِ ، ويجوزُ أن يكون الموضعُ. ورَوَى حفصٌ عن عاصمٍ (مَهْلِكَ) بفتح الميم وكسرِ اللاَّم وهو اسمُ المكانِ على معنى : مَا شَهِدْنَا مَوْضِعَ هَلاكِهم.
قال الزجَّاجُ : (تَحَالَفَ هَؤُلاَءِ التِّسْعَةُ عَلَى أنْ يُبَيِّتُواْ صَالِحاً وَأَهْلَهُ ، ثُمَّ يُنْكِرُواْ عِنْدَ أَوْلِيَائِهِ ، وَكَانَ هَذا مُنْكَراً عَزَمُواْ عَلَيْهِ) ، كما قالَ تعالى : { وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } ؛ أي دَبَّرُوا في أمرِ صالِح عليه السلام وأهلَهُ من حيث لَم يَشْعُرْ بهم صالح ولاَ أهلهُ ، { وَمَكَرْنَا مَكْراً } بما أرَدْنا فيهم.

(٠/٠)

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ } ؛ أي فانظُرْ يَا مُحَمَّدُ { كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ } أي كيفَ كان آخرُ مَكْرِهم ، { أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ }.
قرأ الحسنُ وأهل مكَّة والأعمشُ (أنَّا دَمَّرْنَاهُمْ) بفتحِ الهمزةِ ولذلكَ وَجْهان في أحدِهما : أنْ تكون بدلاً في محلِّ الرفعِ تَبَعاً للعاقبةِ ، كأنَّهُ قال : العاقبةُ أنَّا دمَّرْنَاهُمْ. والثاني : أنَّ موضِعَها نُصِبَ على خبرِ كَانَ ، تقديرهُ : كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ التَّدْمِيْرَ. وقرأ الباقونَ بالكسر على الابتداء وهو تفسيرُ ما كان قبلَهُ مثلَ قولهِ{ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبّاً }[عبس : ٢٤-٢٥].
والتدميرُ : هو الإهلاكُ على وجهٍ عظيم قطيعٍ. واختلَفُوا في كيفيَّةِ هلاكِهم ، قال ابنُ عبَّاس : (أَرْسَلَ اللهُ الْمَلاَئِكَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ إِلَى دَار صَالِحٍ يَحْرُسُونَهَا ، وَجَاءَتِ التِّسْعَةُ إِلَى دَار صَالِحٍ شَاهِرِيْنَ سُيُوفَهُمْ ، فَرَمَتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ بِالْحِجَارَةِ مَنْ حَيْثُ كَانُواْ يَرَوْنَ الْحِجَارَةَ وَلاَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ فَقَتَلَتْهُمْ). وقال مجاهدُ : (نَزَلُواْ فِي سَفْحِ جَبَلٍ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً لِيَأْتُوا دَارَ صَالِحٍ ، فَخَتَمَ عَلَيْهِمْ الْجَبَلُ فَأَهْلَكَهُمْ وَأَهْلَكَ اللهُ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِيْنَ بِصَيْحَةِ جِبْرِيْلَ عليه السلام).

(٠/٠)

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)

قولهُ تعالى : { فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُواْ } ؛ أي خاويةً عن الأهلِ والخير والنِّعمةِ بسبب ظُلمِهم لَم يبقَ فيها منهم دَيَّارٌ ، قرأ العامَّة (خَاوِيَةً) بالنصب على الحال ، والمعنى : فانْظُرْ إِلَى بيوتِهم خاويةً بما ظَلَمُوا ؛ أي بظُلْمِهم وشِرْكِهم أهلَكْنَاهُم حتى جعلنَا بيوتَهم خاويةً ؛ أي منازلَهم ساقطةً على عُروشِها.
وَقِيْلَ : (خَاوِيَةً) نُصِبَ على القطعِ ، تقديرهُ : فتِلْكَ بُيوتُهم الخاويةَ ، فلما قُطِعَ منها الألفُ واللام نُصِبَ ، كقولهِ{ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً }[النحل : ٥٢]. وقرأ عيسَى بن عمر (خَاوِيَةٌ) بالرفعِ على الخبر.
قولهُ تعالى : { إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } ؛ أي إنَّ في إهلاكِنا إيَّاهُم لَدَلاَلَةٌ ظاهرةٌ وعِبرَةٌ لِمن عَلِمَ

توحيدَ الله وقدرتَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ أي أنْجَيْنَا الذينَ آمَنُوا بصالِحٍ من العذاب { وَكَانُواْ يَتَّقُونَ } ؛ الشِّركَ والعقابَ.

(٠/٠)

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ } ؛ أي واذكُرْ لُوطاً إذ قال لقومِهِ : { أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ } ؛ يعني اللِّوَاطَةَ ، سَمَّاها فاحشةً لعِظَمِ قُبْحِهَا ، { وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ } ؛ أي وأنتم تعلمونَ أنَّها فاحشةٌ. وَقِيْلَ : وأنتُمْ تُبصِرُونَ بعضَكم بعضاً وكانوا لا يَسْتَتِرُونَ.

(٠/٠)

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } ؛ أي تجهَلونَ العذابَ الموعودَ على هذه الفَاحِشَةِ ، وَقِيْلَ : تجهلونَ القيامةَ وعاقبةَ المعاصي.

(٠/٠)

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُواْ آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } ؛ أي عن أدْبَار الرِّجال يقولون استهزاءً بهم.

(٠/٠)

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨)

وقولهُ تعالى : { فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ } ؛ أي قَدَّرْنَا عليها أن تكونَ مِنَ الغَابِرِيْنَ ؛ أي من المتخلِّفين فتهلَكُ فيمَن هلكَ ، لا جُرمها مثلَ جُرمِهم لأنَّها كانت راضيةٌ بأفعَالِهم القبيحةِ فَجَرَتْ مجرَاهُم في العذاب. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً } ؛ أي على مسافرِيهم ، أي حجارةً ؛ { فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ } ؛ فبئْسَ المطرَ مطرُ قومٍ أنذرَهم لوطٌ عليه السلام فلَمْ يؤمِنُوا.

(٠/٠)

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى } ؛ أي قِيْلَ لِلُوطٍ عليه السلام : قُلِ الْحَمْدُ للهِ على هلاكِ كُفَّار قَومِي. وَقِيْلَ : الخطابُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ : الحمدُ للهِ على هلاكِ كفَّار الأُمَمِ الخاليةِ. وَقِيْلَ : على جميعِ نِعَمِ اللهِ سُبحانَهُ.
وقولهُ تعالى : { وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى } قال يعني الانبياءَ الذي اختارَهم اللهُ لرسالَتِهِ ، وقال ابنُ عبَّاس : (هُمْ أصْحَابُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم) ، وقال الكلبيُّ : (هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَالَّذِيْنَ اصْطَفَاهُمْ اللهُ لِمَعْرِفَتِهِ وَطَاعَتِهِ) ، ومعنى السَّلاَمِ عليهم : أنَّهم سَلِمُوا مِمَّا عُذِّبَ به الكفارُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ } ؛ أي قُلْ لأهلِ مكَّةَ : أعِبَادَةُ اللهِ أفضلُ أم عبادةُ مَن تُشرِكُونَ به مَن دُونَهُ من الأصنامِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إذا قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ، قَالَ : " اللهُ أبْقَى وَأجَلُّ وَأكْرَمُ مِمَّا تُشْرِكُونَ " قرأ عاصمُ وأهلُ البصرةِ (أمَّا يُشْرِكُونَ) بالياءِ ، وقرأ الباقون بالتَّاءِ.

(٠/٠)

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ } ؛ فيه إضمارٌ كأنه قالَ : آلِهَتُكم أم مَن الذي خَلَقَ

السَّمواتِ والأرضِ بما فيها من العجائب والبدائع ، { وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً } ؛ يعني المطرَ ، { فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ } ؛ أي بساتينَ ، { ذَاتَ بَهْجَةٍ } ؛ أي مَنْظَرٌ حَسَنٌ وأنوارٌ ، والحديقةُ : هي الْبُسْتَانُ التي يُحَاطُ عليه بما فيه مِن النَّخْلِ والشَّجَرْ ، فإن لَم يكن عليه حائطٌ فليس بحديقةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا } ؛ هذا نَفْيٌ ، يعني ما قَدِرْتُمْ عليهِ ، والمعنَى : ما ينبغي لكم ذلكَ ؛ لأنَّكُم لا تقدرونَ عليها ، ثُم قال اسْتِفْهَاماً مُنْكِراً عَلَيْهِم : { أَإِلَاهٌ مَّعَ اللَّهِ } ؛ أي هل معَهُ معبودٌ سِوَاهُ أَعَانَهُ على صُنعهِ في خَلْقِ هذه الأشجار. قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ } ؛ يعني كُفَّارَ مكَّةَ قومٌ يَعْدِلُونَ الأصنامَ بخالِقِهم بجَهلِهم. وَقِيْلَ : (يَعْدِلُونَ) أي يُشرِكُونَ باللهِ غيرَهُ. وَقِيْلَ : يَمِيلُونَ عن الطريقِ وعن النَّظرِ في الدَّلائلِ المؤدِّية إلى العِلْمِ بوحدانيَّةِ اللهِ.

(٠/٠)

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً } ؛ أي مستقرَّةً لا تَميلُ بأهلِها ، بل جعلَها مَسْكَناً يَسِيرُونَ فيها ويصرفون عليها ، فلا هي تضطربُ بهم ، ولا هي حَزْنَةٌ غليظةٌ مثلَ رُؤوسِ الجبالِ.

وقولهُ تعالى : { وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ أَنْهَاراً } ؛ أي جَعَلَ وسَطَ الأرضِ أوديةً وعُيوناً من عَذْبٍ وَمَالِحٍ ، { وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ } ؛ أي جَعَلَ على الأرضِ جِبَالاً ثوابتَ وأوديةً أوتاداً لها ، { وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً } ؛ أي بين الْمِلْحِ والعَذْب مانِعاً بلُطفهِ وقدرتهِ فلا يختلطُ أحدُهما بالآخرِ ، ولا يبغِي أحدُهما على صاحبهِ ، وقولهُ تعالى : { أَإِلَاهٌ مَّعَ الله } ؛ أي مع اللهِ إلهٌ فَعَلَ شيئاً من هذهِ الأشياء ، { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ توحيدَ ربهم وسلطانه وقدرتهِ.

وقولهُ تعالى : { أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ } ؛ الْمُضْطَرُّ : الْمَكْرُوبُ الْمَجْهُودُ المدفوعُ إلى ضيقٍ من الأمُور من غَرَقٍ أو مرضٍ أو بلاء أو حبسٍ أو كَرْبٍ إذا دعاهُ ، { وَيَكْشِفُ السُّوءَ } ؛ فيكشِفُ ضُرَّهُ ويفرجُ عنه فيبعدهُ مِن الغَرَقِ وينجيهِ ويَشفيهِ من المرضِ. ويعافيهِ من البلاء. وقال السديُّ : (الْمُضْطَرُّ الَّذِي لاَ حَوْلَ لَهُ وَلاَ قُوَّةَ) ، وقال ذُو النُّونِ : (هُوَ الَّذِي قَطَعَ الْعَلاَئِقَ عَمَّا دُونَ اللهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الأَرْضِ } ؛ أي يأتِي بقومٍ بعد قومٍ ، ويخلقُ قَرْناً بعد قَرْنٍ ، وكلَّما أَهْلَكَ قَرْناً أنشأَ آخَرِينَ ، فيكون كلٌّ خلفاءٌ لِمَنْ قبلَهم. وقولهُ تعالى : { أَإِلَاهٌ مَّعَ اللَّهِ } ؛ أي إلَهٌ سِوَى اللهِ فَعَلَ ذلكَ ، { قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ } ؛ أي قَلِيلاً ما تتَّعِظُونَ.

(٠/٠)

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } ؛ معناهُ : أمَّنْ يُرشِدُكم إلى الطريقِ في ظَلمَاءِ اللَّيلِ في البَرِّ والبحرِ إذا سافرَ ، ثُم بما خَلَقَ لكم من القَمَرِ والنُّجُومِ والمسالكِ ، وهذا كقولهِ{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ }[الأنعام : ٩٧] ، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بالظُّلمَاتِ الشَّدَائِدُ ، { وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرَاً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } ؛ أي قُدَّامَ المطرِ ، والنَّشْرُ : جمعُ نُشُورٍ ؛ وهي الرياحُ التي تأتِي بالسَّحاب ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَإِلَاهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } ؛ أي جَلَّ وَعَزَّ أن يكونَ له شريكٌ.

(٠/٠)

أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } ؛ معناهُ : أمَّنْ يبدأ الخلقَ في الأرحامِ من النُّطفةِ ثُم يُمِيتُهُ ثُم يعيدهُ للبعثِ والنُّشور ، وقولهُ تعالى : { وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ والأَرْضِ } ؛ أي يَرزُقُكم من السَّماءِ المطرَ ، ومِن الأرضِ النباتَ والزَّرعَ ، وقولهُ تعالى : { أَإِلَاهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ } ؛ أي حُجَّتَكُمْ فيما تدَّعونَهُ من إلهٍ سِواهُ ، { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } ؛ أي معَ اللهِ آلِهَةٌ أُخرَى تصنعُ شيئاً من هذهِ الأشياءِ.

(٠/٠)

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاواتِ والأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ } ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ : { لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاواتِ والأَرْضِ } يعني الملائكةَ ، (وَالأَرْضَ) يعني الناسَ ، لا يعلمُ أحدٌ منهم شيئاً من الغَيْب من وقتَ نُزولِ العذاب وقيامِ السَّاعةِ وغيرِ ذلك مما غابَ عن العبادِ ، ولا يعلمُ ذلك إلاَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ ، { وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } ؛ أي ولا يدرونَ متى يُبعَثُونَ من القُبُور ، والأصلُ في (أيَّانَ) (أيَّ) و(إنْ) ضُمِّنَا وجُعلا أداةً واحدة ، قالت عائشةُ : (مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ ، فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاواتِ والأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ }.

(٠/٠)

بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ } ؛ فيه قِراءَتان ، قرأ الحسنُ والأعمش وشَيبة ونافع وعاصمُ وحمزة والكسائي وخَلَفُ (بَلْ ادَّارَكَ) بكسرِ اللام وتشديد الدال ؛ أي تَدَارَكَ وتتابعَ عليهم في الآخرةِ ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً }[الأعراف : ٣٨] ، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ويعقوب ومجاهد (بَلْ أَدْرَكَ) مِن الإدراكِ ؛ أي تَبِعَ ولَحِقَ ، كما يقالُ : أَدْرَكَهُ عِلْمِي ؛ أي بَلَغَهُ ولَحِقَهُ. قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيْدُ مَا جَهِلُوهُ فِي الدُّنْيَا ، وَسَقَطَ عِلْمُهُ عَنْهُمْ عَلِمُوهُ فِي الآخِرَةِ).
وقال السديُّ : (اجْتَمَعَ عِلْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَمْ يَشُكُّواْ وَلَمْ يَخْتَلِفُواْ). وقال مقاتلُ : (بَلْ عَلِمُواْ فِي الآخِرَةِ حِيْنَمَا عَايَنُوهَا مَا شَكُّواْ فِيْهِ وَعَمَواْ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا). { بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا } ؛ أي بل هُم اليومَ في الدُّنيا في شَكٍّ من السَّاعةِ ، { بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ } ؛ جمع عَمٍ ، وهو عَمِيُّ القلب ، وَقِيْلَ : معنى { بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ } مُتَحَيِّرُونَ بتَرْكِ التأمُّلِ ، يقال : رجلٌ عَمِهٌ وَعَامِهٌ وعَمٍ ، إذا كان مُتَحَيِّراً ، وقومٌ عَمُونَ ؛ أي مُتَحَيِّرُونَ ، ويجوزُ أن يكونَ معنى (ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ) أي لَحِقَ علمُهم ذلكَ بما نُصِبَ لَهم من الأدلَّةِ ، بل هم في شكٍّ منها بتركِ التأمُّلِ.

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَآؤُنَآ أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ } معناهُ : وقال كفَّارُ مكَّةَ : إذا صِرْنَا تُراباً وآبَاؤُنَا أإنَّا لَمُخرَجُونَ من القُبُور أحياءً؟

(٠/٠)

لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)

وقولهُ تعالى : { لَقَدْ وُعِدْنَا هَاذَا } ؛ الذي تُخَوِّفُنَا به من البعثِ والنُّشور ، ووُعِدَ آباؤنَا من قبلُ ، فما وَجَدْنَا لذلكَ حقيقةً ، وما هذا الذي يعِدُنَا مُحَمَّدُ إلاّ أكاذيبَ الأوَّلين. وَقِيْلَ : معناهُ : لقد وُعِدْنَا هذا البعثَ ، { نَحْنُ وَآبَآؤُنَا مِن قَبْلُ } قبلِ مُحَمَّدٍ وليس ذلكَ بشيءٍ ، { إِنْ هَاذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ } ؛ أي أحادِيثُهم وأكاذِيبُهم التي كذبُوها.

(٠/٠)

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ } ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ : (سِيرُوا) ؛ أي سَافِرُوا وتَرَدَّدُوا في الأرضِ ، { فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } ؛ آخِرُ أمْرِ المكذِّبين بالرُّسُلِ أهلَكَهم اللهُ بأنواعِ العقوبات.

(٠/٠)

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } ؛ أي لا تَحْزَنْ على تكذِيبهم إيَّاكَ ولا إهلاكِهم إن لَم يُؤمِنُوا ، وذلك أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان حَرِيْصاً على إيْمَانِهم ونَجاتِهم ، { وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } ؛

أي لاَ يَضِيْقُ صدرُكَ يا مُحَمَّدُ بما يَمكُرونَهُ ، وسيُظهِرُكَ اللهُ عليهم ، نزلَتْ هذه الآيةُ في المستَهزِئين الذينَ اقتسموا أعقاب مكة ، وقد مَضَتْ قصَّتُهم.

(٠/٠)

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَقُولُونَ مَتَى هَاذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } ؛ أي يقولُونَ على وجهِ التَّكذيب : { مَتَى هَاذَا الْوَعْدُ } الذي يعِدُنا به في الدُّنيا والآخرةِ { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } في أنهُ يكون.

(٠/٠)

قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ } أي قل يا مُحَمَّدُ : { عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم } أي دَنَا لكم وركِبَكُم بعضُ ما تستعجلونَ به من العذاب ، لا يجوزُ أن تكونَ (عَسَى) في هذا الموضعِ بمعنى الشَّكِّ ، إنَّما هو بمعنى الإيجاب على وجه التَّخويفِ ، قال ابنُ عبَّاس : (رَدِفَ لَكُمْ ؛ أيْ قَرُبَ لَكُمْ) وَقِيْلَ : حَضُرَ لَكُمْ.
والمعنى : أنَّ الله تعالى أمَرَ نَبيَّهُ صلى الله عليه وسلم أن يقولَ للذين يَسْتَعْجِلُونَ بالعذاب : قد دَنَا لكم بعضُ ما تستعجِلُون ، فكان بعضُ الذي دَنَا لهم القتلُ ببَدْرٍ ، والقَحْطُ الذي سُلِّطَ عليهم عُقَيْبَ هذه الآيةِ حتى أكَلُوا الْجِيَفَ ، والمعنى في { رَدِفَ لَكُم } أي رَدِفَكُمْ ، فأدخلَ اللاَّمَ فيه كما أدخَلَها في قولهِ تعالى : { لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ }[الأعراف : ١٥٤] و{ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ }[يوسف : ٤٣] ، قال الفرَّاء : (اللاَّمُ صِلَةٌ زَائِدَةٌ ، كَمَا يَقُولُونَ نَقَدْتُهُ ونَقَدْتُ لَهُ).

(٠/٠)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ } ؛ قال مقاتلُ : (مَعْنَاهُ : لَذُو فَضْلٍ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ حَتَّى لاَ يُعْجِلَهُمْ بالْعَذاب) { وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ } ؛ وَقِيْلَ : لَذُو فضلٍ عليهم بإمهالِهم والإنعامِ عليهم ، ولكنَّهم لا يشكُرونَ فَضْلَهُ عليهم ، { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ } ؛ أي ما تُخفِي صدورُهم من البُغْضِ والعداوةِ ، { وَمَا يُعْلِنُونَ } ؛ بألسِنَتِهم من الكُفْرِ والتكذيب وعدائِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيُجازيهم على ذلكَ.

(٠/٠)

وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } ؛ أي وما مِن جُملةٍ غائبة خافيةٍ على أهْلِ السَّماء والأرضِ ، إلاّ وهو مكتوبٌ في اللَّوحِ المَحفُوظِ بيَّنَ فيهِ.

(٠/٠)

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)

قولَهُ تعالى : { إِنَّ هَاذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ } ؛ أي بَيَّنَ لِبَنِي إسرائيلَ ، { أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } ؛ كاختلافِ اليهود والنَّصارَى في المسيحِ وفِي غيرِهِ من الأنبياءِ ، وكاختلافِهم في صِفَةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم والْمُبَشَّرِ به في التَّوراةِ ، وقولهُ تعالى : { وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي وإنَّ القُرْآنَ لَهُدًى من الضَّلالةِ ورحمةٌ من العذاب لِمن آمَنَ بهِ.

(٠/٠)

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨)

وقولهُ تعالى : { إِن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ } ؛ أي يقضِي بين المؤمنين والكافرينَ يومَ القيامةِ بحكمةٍ ، { وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } ؛ أي الْعَزِيْزُ بالانتقامِ من الكُفَّار ، الْعَلِيْمُ بهم وبعقوبَتِهم ، ولا يُمكِنُ رَدُّ قضائِهِ.

(٠/٠)

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠)

وقولهُ تعالى : { فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } ؛ أي ثِقْ باللهِ يا مُحَمَّدُ ، وفَوِّضْ أمْرَكَ إليهِ ، { إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ } ؛ أي على طريقِ الإسلامِ ، وهذا تسليةٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقولهُ تعالى : { إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى } ؛ هذا مَثَلٌ للكفَّار ، شَبَّهَ اللهُ كفَّارَ مكَّةَ بالأمواتِ ، تقولُ كما لا يَسْمَعُ الميِّتُ النداءَ ، كذلك لا يسمعُ الكافرُ النداءَ ، { وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ } ؛ قال قتادةُ : (إنَّ الأَصَمَّ لَوْ وَلَّى مُدْبراً وَنَادَيْتَهُ لَمْ يَسْمَعْ ، كَذلِكَ الْكَافِرُ لاَ يَسْمَعُ مَا يُدْعَى إِلَيْهِ مِنَ الإِيْمَانِ) " والمعنى : أنهم لفرطِ " إعراضُهم عن ما يُدْعَوْنَ إليه من التوحيدِ كالْمَيِّتِ الذي لا سبيلَ إلى إسْماعِهِ ، وكالأصَمِّ الذي لا يسمعُ.

(٠/٠)

وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ } ؛ أي وما أنتَ بمُرشِدٍ من أعماهُ اللهُ عن الْهُدَى وأعْمَى عن قلبِهِ الإيْمانَ ، وَقِيْلَ : معناهُ : كما لا يُمكِنُ إرشادُ الأعمَى إلى قصدِ الطَّريق بالأمَاراتِ الدالَّةِ على الطريقِ ، كذلك لا يُمكِنُ هدايةُ القومِ الذين عُمِيَتْ بصائرُهم عن آياتِ الله ، وليس على الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ إلاَّ الدعاءَ إلى اللهِ تعالى.

وقرأ حمزةُ والأعمش : (وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ) بالتَّاء ونصب الياء على الفعلِ ها هنا وفي الرُّوم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا } ؛ ما سَمِعَ سَماع إفهامٍ إلاّ مَن يؤمنُ بآياتِنا ويطلبُ الحقَّ بالنظرِ في القُرْآنِ. وقال مقاتلُ : (إلاَّ مَنْ يُصَدِّقُ بالْقُرْآنِ أَنَّهُ مِنَ اللهِ) { فَهُم مُّسْلِمُونَ } ؛ أي مُخلِصُونَ بتوحيدِ الله ، والمعنَى ما سَمِعَ دعوتَكَ سَماعَ القَبُولِ إلاّ مَن يطلبُ الحقَّ بالنظرِ في آياتِ الله ، فلا بدَّ أن يُسْلِمَ في ظهور الدَّلائِلِ.

(٠/٠)

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ } ؛ معناهُ : وإذا وجبَ القولُ عليهم بالسُّخْطِ والعذاب عند قُرْب السَّاعة { أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأَرْضِ } ، فقال قتادةُ : (إذا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَأَوْجَبَ أَنْ يُنْزِلَ بِهِمْ مَا قَالَ اللهُ وَحَكَمَ بِهِ مِنْ عَذَابِهِ وَسُخْطِهِ عَلَيْهِمْ) أي على الكُفَّار الذين تخرجُ عليهم الدَّابةُ ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ } وذلك حين لا يُؤمَرُ بمعروفٍ ولا ينهَى عن منكرٍ. قال مُخَلَّدُ بنُ الحسينِ : (لاَ تَخْرُجُ الدَّابَّةُ حَتَّى لاَ يَبْقَى أَحَدٌ يُرِيْدُ أَنْ يُؤْمِنَ). قالوا : وتخرجُ الدَّابة من صَدْعٍ في الصَّفَا.
ورُوي أنه تخرجُ بين الصَّفَا والْمَرْوَةِ ، ولا تُخْرِجُ إلاّ رأسَها وعنُقَها ، فيبلغُ رأسُها السحابَ فيراها أهلُ المشرقِ والمغرب فيَسْمَعُونَ كلامَها باللِّسانِ ، فتقولُ لَهم : أيُّها الكُفَّارُ مصيرُكم إلى النار ، ثُم تُقبلُ على المؤمنينَ فتقولُ : أيُّها المؤمنونَ مصيرُكم إلى الجنَّةِ ، فتُمَيِّزُ عند ذلك أهلَ الجنَّة مِن أهلِ النار.
ويجوزُ أن يكون قولهُ { تُكَلِّمُهُمْ } مِن الكَلْمِ وهو الْجَرَاحَةُ ، كما رُوي في قراءةِ ابنِ عبَّاس (تَكْلِمُهُمْ) بنصب التاء وكسرِ اللام ؛ أي تَسِمُهُمْ ، تكتبُ على وجهِ الكافرِ : إنَّهُ كَافِرٌ ، وعلى جَبينِ المؤمن : إنَّهُ مُؤْمِنٌ.
قال أبُو هريرةَ : (إنَّهَا تَخْرُجُ وَمَعَهَا عَصَا مُوسَى وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ) ، وعن ابنِ عَمرو بن العاص أنه قالَ : (تَكْتُبُ عَلَى وَجْهِ الْكَافِرِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ ، فَتَعْثُوا فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَسْوَدَّ وَجْهُهُ ، وَتَكْتُبُ عَلَى وَجْهِ الْمُؤْمِنِ نُكْتَةً بَيْضَاءَ ، فَتَعْثُوا فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَبْيَضَّ وَجْهُهُ ، فَتَعْرِفُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ عِنْدَ ذلِكَ). وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه أنهُ قال : (إذا تَرَكَ النَّاسُ الأَمْرَ بالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ كَانَ ذلِكَ الْوَقْتُ وَقْتُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَخُرُوجِ الدَّابَّةِ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنَّ النَّاسَ } ؛ قرأ أهلُ الكوفةِ ويعقوب (أَنَّ النَّاسَ) بفتحِ الألفِ على وجه الحكايةِ من قولِ الدَّابة وعلى معنى : أخْرَجْنَا الدَّابَّةَ بأنَّ الناسَ { كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ } ؛ وقرأ الباقونَ بالكسرِ على

الابتداء.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال : قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " " بئْسَ الشِّعْبُ جِيَاد – مرَّتَين أو ثَلاثاً – " قَالُوا : وَلِمَ ذلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : " تَخْرُجُ مِنْهُ الدَّابَّةُ ، فَتَصْرُخُ ثَلاَثَ صَرَخَاتٍ يَسْمَعُهَا مِنْ بَيْنِ الْخَافِقَيْنِ " ".

وقال بعضُهم : كنتُ مع ابنِ عبَّاس بمكَّة ، فبينما هو على الصَّفا إذْ قَرَعَ الصَّفا بعصاةٍ وهو مُحْرِمٌ وهو يقولُ : إنَّ الدابةَ تسمعُ قَرْعَ عَصَايَ هذهِ ، قال ابنُ عبَّاس : (هِيَ دَابَّةٌ ذاتُ زَغَبٍ وَرِيشٍ ، ولَهَا أَرْبَعَةُ قَوَائِمَ).

وعن أبي هريرةَ قَالَ : [تَخْرُجُ الدَّابَّةُ وَمَعَهَا عَصَا مُوسَى وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ ، فَيَجْلُوا وَجْهُ الْمُؤْمِنِ بالْعَصَا ، وَتَخْطِمُ وَجْهَ الْكَافِرِ بالْخَاتَمِ] والْمَخَاطِمُ هي الأُنُوفُ ، واحِدُها مُخْطِمٌ بكسرِ الطَّاء ، وعن حذيفةَ قالَ : قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم :

(٠/٠)

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا } ؛ الْفَوْجُ : الْجَمَاعَةُ من الناسِ كالزُّمْرَةِ والجماعةِ ، وإنَّما يُحْشَرُ الرؤساءُ والمتبوعِين ، والمعنى : يومَ يُجْمَعُ مِن كلِّ أُمَّةٍ جماعةٌ مِن المكذِّبين بالرسولِ ، وقولهُ تعالى : { فَهُمْ يُوزَعُونَ } ؛ أي يُحبَسون ، يتَلاحَقُونَ فيُسَاقُونَ إلى الموقفِ لإقامةِ الحجَّة عليهم : وَقِيْلَ : يحشَرُ أوَّلُهم على آخرِهم ليجتَمِعُوا ثُم يُساقُوا إلى النار ، وقال ابنُ عبَّاس : (يُوزَعُونَ أيْ يُدْفَعُونَ).

(٠/٠)

حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا جَآءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً } ؛ أي حتَّى إذا جَاءُوا إلى موقفِ الحساب ، قال اللهُ لَهم : { أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي } استفهامٌ بمعنى الإنكار عليهم ، والوعيدِ لَهم ، قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : أكَذبْتُمْ أنْبيَائِي وَجَحَدْتُمْ فَرَائِضِي وَحُدُودِي) وَلَمْ تُحِيْطُوا بهَا عِلْماً ؛ أي ولَم تُخبَرُوا

حتى تَفْقَهُوا وتسمَعُوا. وَقِيْلَ : معناهُ : { وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً } أنَّها باطلٌ. والمعنى : أكَذبَّتْمُ بآيَاتِي غيرَ عالِمين بها ولَم تتفكَّرُوا في صِحَّتها ، بل كذبتم بها جَهْلاً بغيرِ عِلْمٍ. وقولهُ تعالى : { أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ حين لَم تبحَثُوا عنها ، ولَم تَتَفَكَّرُواْ فيها ، وهذا توبيخٌ لَهم وإنْ كان بلفظِ السُّؤال.

(٠/٠)

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيهِم بِمَا ظَلَمُواْ } ؛ أي وَجَبَ العذابُ عليهم بما أشركُوا ، { فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ } ؛ بحُجَّةٍ عن أنفُسِهم ، بل يُخْتَمُ على أفواهِهم. ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَاذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ }[المرسلات : ٣٥-٣٦].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا الْلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً } ؛ أي مُضِيئاً لطلب المعاشِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } ؛ أي أنَّ فيما ذكَرْنَا من اختلافِ اللَّيلِ والنَّهار لدلاَلاتٍ للمؤمنينَ والكافرين ، ولكنه خَصَّ المؤمنينَ لأنَّهم همُ الذين ينتفعونَ بالذِّكْرِ.

(٠/٠)

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (يَعْنِي النَّفْخَةَ الأُوْلَى ؛ وَهِيَ نَفْخَةُ الصَّعْقِ) { فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ } ؛ أي مَاتُوا من شدَّةِ الخوفِ كقولهِ تعالى{ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ }[الزمر : ٦٨] ، والمعنى : بَلَغَ منهم الفزعُ إلى أنْ يَمُوتُوا.
وقولهُ : { إِلاَّ مَن شَآءَ اللَّهُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيْدُ الشُّهَدَاءَ وَهُمْ أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِهِمْ يُرْزَقُونَ) ، وقال الكلبيُّ ومقاتل : (يَعْنِي جِبْرِيْلَ وَمِيْكَائِيْلَ وَإِسْرَافِيْلَ وَمَلَكَ الْمَوْتِ). وقولهُ تعالى : { وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ } ؛ أي كلُّ الخلائقِ يَأْتُونَ إلى موضعِ الْجَزَاءِ أذلاَّء صَاغِرِيْنَ.
وأمَّا النفخةُ الثانية فتسمَّى نفخةُ البَعْثِ ، وبينَهما أربعون سَنة. ويقالُ : ينفخُ في الصُّور ثلاثَ نفخاتٍ ؛ الأُولَى : نفخةُ الفَزَعِ ، والثانية : نفخةُ الصَّعْقِ وهو الموتُ ، والثالثةُ : نفخةُ الْقِيَامِ لرَب العالَمِين.

وعن عبدِالله بنِ عمرَ قال : " جَاءَ أعْرَابيٌّ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَسَأَلَهُ عَنِ الصُّور ، فَقَالَ : " هُوَ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيْهِ " وقالَ مجاهدُ : (هُوَ كَهَيْئَةِ الْبُوقِ).

وعن أبي هريرةَ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " " لَمَّا فَرَغَ اللهُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، خَلَقَ الصُّورَ ، فَأَعْطَاهُ إسْرَافِيْلَ ، فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَى فِيْهِ شَاخِصٌ يُبْصِرُ نَحْوَ الْعَرْشِ ، يَنْظُرُ مَتَى يُؤْمَرُ " قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا الصُّورُ ؟ قَالَ : " هُوَ قَرْنٌ " قُلْتُ : كَيْفَ هُوَ ؟ قَالَ : " عَظِيْمٌ ، وَالَّذِي بَعَثَنِي بالْحَقِّ إنَّ عِظَمَ دَائِرَةٍ فِيهِ كَعِظَمِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ. فَيَنْفُخُ ثَلاَثَ نَفْخَاتٍ ؛ النَّفْخَةُ الأُوْلَى نَفْخَةُ الْفَزَعِ ، وَالنَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ نَفْخَةُ الصَّعْقِ ، وَالنَّفْخَةُ الثَّالِثَةُ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَب الْعَالَمِيْنَ.

فَيَأْمُرُ اللهُ إسْرَافِيْلَ بالنَّفْخَةِ الأُوْلَى ، فَيَقُولُ لَهُ : انْفُخْ نَفْخَةَ الْفَزَعِ ، فَيَفْزَعُ مِنْهَا أهْلُ السَّمَوَاتِ وَأهْلُ الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ وَيَأْمُرُهُ أنْ يَمُدَّهَا وَيُطِيْلَهَا وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللهُ { وَمَا يَنظُرُ هَاؤُلآءِ إلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ } ، وَيُسَيِّرُ اللهُ الْجِبَالَ فَتَمُرُّ مَرَّ السَّحَاب فَتَكُونُ سَرَاباً ، وَتُرَجُّ الأَرْضُ بأَهْلِهَا رَجّاً ، فَتَكُونُ كَالسَّفِيْنَةِ الْمُوثَقَةِ فِي الْبَحْرِ ، تَضْرِبُهَا الأَمْوَاجُ وَتُلْقِيْهَا الرِّيَاحُ ، وَكَالْقِنْدِيْلِ الْمُعَلَّقِ تَرْجُفُهُ الرِّيَاحُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى { يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ } فَتَمِيْدُ الأَرْضُ بالنَّاسِ عَلَى ظَهْرِهَا ، فَتَذْهَلُ الْمَرَاضِعُ ؛ وَتَضَعُ الْحَوَامِلُ ؛ وَيَشِيْبُ الأَطْفَالُ ، وَتَطِيْرُ الشَّيَاطِيْنُ هَارِبَةً مِنَ الْفَزَعِ ، حَتَّى تَأْتِي الأَقْطَارَ فَتَلْقَاهَا الْمَلاَئِكَةُ فَتَضْرِبُ وُجُوهَهَا فَتَرْجِعُ ، وَتُوَلِّي النَّاسُ مُدْبِرِيْنَ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى { يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ }. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذلِكَ ؛ إذْ تصَدَّعَتِ الأَرْضُ ، وَتَصِيْرُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ، وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَنْشُرُ نُجُومَهَا وَتَكْسِفُ شَمْسَهَا وَقَمَرَهَا. ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ إسْرَافِيْلَ أنْ يَنْفُخَ نَفْخَةَ الصَّعْقِ ، فَيُصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ " ".

وَقَوْلُهُ تعالى : { وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ } ، قرأ الأعمشُ وحمزة وخلَف (أَتَوْهُ) مقصُوراً على الفعل بمعنى جَاءوهُ. وقرأ الباقونَ بالمدِّ وضَمِّ التاء ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { دَاخِرِينَ } أيْ صَاغِرِيْنَ.

(٠/٠)

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ } ؛ أي تحسَبُها يا مُحَمَّدُ واقفةً مستقرَّةً فكأنَّها وتظنُّها ساكنةً لا تتحركُ في رَأيِ العينِ ، وهي تسيرُ في الْهَواءِ سَيراً سَريعاً ، وترَى السفينةَ تحسبَهُا واقفةً وهي سائرةٌ ، وقولهُ تعالى : { وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ } تسيرُ سَير السَّحاب حتى تَقَعَ

على الأرضِ فتستوي بها.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ } ؛ نُصِبَ على المصدر ؛ كأنه قالَ : صَنَعَ اللهُ ذلكَ صُنْعاً على الإتقانِ والإحْكَامِ. وَقِيْلَ : على الإغْرَاءِ ؛ أي أبْصِرُوا صُنْعَ اللهِ الَّذِي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ؛ أي أحْكَمَ وَأبْرَمَ ما خَلَقَ. ومعنى الإتْقَانِ في اللُّغة : الإحْكَامُ للأَشْيَاءِ.
وقولهُ تعالى : { إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ } ؛ قرأ نافعُ وابن عامر والكوفيُّون بالتاءِ ، والباقونَ بالياء ، والمعنى : إنَّهُ خَبيْرٌ بمَا يفعلهُ أعداؤهُ من المعصيةِ والكُفْرِ ، وبما يفعلهُ أولياؤه من الطاعَةِ.

(٠/٠)

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا } ؛ معناهُ : مَن وَافَى عرصاتِ القيامةِ بالحسَناتِ ، فلهُ ثوابٌ آجَرُ وأنْفَعُ منها. وَقِيْلَ : معناهُ مَن جاء بالإيْمانِ. قال أبو معشَرٍ : (كَانَ إبْرَاهِيْمُ يَحْلِفُ مَا يَنْثَنِي : أنَّ الْحَسَنَةَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ). وقتادةُ : (الْحَسَنَةُ هِيَ الإخْلاَصُ). وَالمعنى : مَن جَاءَ بكلمةِ الإخلاصِ بشَهَادَةِ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ يومَ القيامةِ ؛ أي مَن وافَى يومَ القيامة بالإيْمَانِ فله خيرٌ منها. قال ابنُ عبَّاس : (فَمِنْهَا يَصِلُ الْخَيْرُ إلَيْهِ) أي لهُ مِن العذاب. و(خَيْرٌ) ها هنا اسمٌ مِن غير تفضيلٍ ؛ لأنه ليسَ خيرٌ مِن لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ، ولكنَّهُ منها خيرٌ.
وقال بعضُهم : دخلتُ على عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه فقالَ لِي : (ألاَ أنبَؤُكَ بالْحَسَنَةِ الَّتِي مَنْ جَاءَ بهَا أدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ ، وَالسَّيِّئَةِ الَّتِي مَنْ جَاءَ بهَا أدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ ، وَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ عَمَلاً؟) قلتُ : بَلَى ، قالَ : (الْحَسَنَةُ حُبُّنَا ، وَالسَّيِّئَةُ بُغْضُنَا). ومعنى { خَيْرٌ مِّنْهَا } : رضوانُ اللهِ. وَقِيْلَ : الأضعَافُ بعطيَّةِ اللهِ بالواحدة عَشْراً فصاعِداً.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ } ؛ قرأ أهلُ الكوفة (فَزَعٍ) منوناً بنصب الميم ، وقرأ الباقونَ بالإضافةِ ، واختارَهُ أبو عُبيدٍ لأنه أعَمُّ ويكون شَامِلاً لجميعِ فَزَعِ ذلك اليومِ ، وإذا كان منَوَّناً كان الفزعُ دونَ فزعٍ.
وقال أبو عليٍّ الفارسي : (إذا نُوِّنَ يَجُوزُ أنْ يَكُونَ الْفَزَعُ وَاحِداً ، وَيَجُوزُ أنْ يَعْنِي بِهِ الْكَثْرَةَ لأنَّهُ مَصْدَرٌ ، وَالْمَصَادِرُ تَدُلُّ عَلَى الْكَثْرَةِ وَإنْ كَانَتْ مُفْرَدَةَ الأَلْفَاظِ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : { وَإِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ }[لقمان : ١٩]). قال الكلبيُّ : (إذا أطْبَقَتِ النَّارُ عَلَى أهْلِهَا فَزِعُواْ فَزْعَةً لَمْ يُفْزَعُواْ مِثْلَهَا أبَداً ، وَأهْلُ الْجَنَّةِ آمِنُونَ مِنْ ذلِكَ الْفَزَعِ).

(٠/٠)

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ } ؛ أي من وَافَى بالشِّرْكِ والكبائرِ { فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ } أي أُلْقُوا على وجوهِهم في النار ، ويقولُ لَهم خَزَنَةُ جهنَّمَ : { هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ في الدُّنيا مِن الشِّرك.

(٠/٠)

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا } ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ للمشركينَ : { إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ } يعني مكَّة { الَّذِي حَرَّمَهَا } أي الذي حَرَّمَ فيها ما أحلَّ في غيرِها من الاصطيادِ ؛ والاختلاءِ ؛ والقَتْلِ ؛ والسَّبي ؛ والظُّلم ، وأن لا يهاج فيها أحدٌ حتى يخرجَ منها ، فلا يصادُ صيدُها ولا يختَلَى خِلاَلَها.

وَقِيْلَ : معنى { حَرَّمَهَا } أي عظَّم حُرمَتها ، فجعلَ لَها من الأمنِ ما لَم يجعل لغيرِها. وقولهُ تعالى : { وَلَهُ كُلُّ شَيءٍ } ؛ لأنه خَالِقُهُ ومَالِكُهُ. وقرأ ابنُ عبَّاس (الَّتِي حَرَّمَهَا) أشارَ إلى البلدةِ.

وقولهُ تعالى : { وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } ؛ أي وأُمِرْتُ أنْ أكونَ مِن المسلمينَ الْمُخْلِصِيْنَ للهِ بالتَّوحيدِ ، { وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ } ؛ عليكُم يا أهلَ مكَّة ، يريدُ تلاوةَ الدَّعوةِ إلى الإيْمانِ. وفي الآية تعظيمٌ لأمرِ الإسلامِ وتِلاَوَةِ القُرْآنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } ؛ أي مَن اهتَدَى فإنَّما منفعةُ اهتدائِهِ راجعةٌ إلى نفسهِ ، { وَمَن ضَلَّ } ؛ أي ضلَّ عن الإيْمانِ والقُرْآنِ وأخطأَ طريقَ الْهُدَى ، { فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُنذِرِينَ } ؛ أي مِن الْمُخَوِّفِيْنَ ، فليس عَلَيَّ إلاّ البلاغُ ، فإنِّي لَم أوْمَرْ بالإجْبَارِ على الْهُدَى ، وليسَ عَلَيَّ إلاّ الإنذارُ ، وكان هذا قَبْلَ الأمرِ بالقتالِ.

(٠/٠)

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُلِ الْحَمْدُ للَّهِ } ؛ أي قُلِ الْحَمْدُ للهِ على نِعَمِهِ ، { سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ } ؛ يعني العذابَ في الدُّنيا ، والقَتْلَ ببَدْرٍ ، { فَتَعْرِفُونَهَا } ؛ حين تُشاهِدُونَها ، ثُم أرَاهُم ذلكَ ، وضَرَبَتِ الملائكةُ وجوهَهم وأدبارَهم وعجَّلَهم اللهُ إلى النار ، { وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } ؛ من الْمُنْكَرِ والكُفْرِ والفسادِ ، وهذا وعيدٌ لَهم بالجزاءِ على أعمالِهم.
وعن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : " مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النَّمْلِ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ مَنْ كَذبَ وَصَدَّقَ بمُوسَى وَهُودٍ وَشُعَيْبٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَإِبْرَاهِيْمَ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ ، وَخَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ وَهُوَ يُنَادِي : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ".

(٠/٠)

طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣)

{ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ } ؛ أي نقرأُ عليكَ خَبَرَ موسَى وفِرعَوْنَ بالصِّدقِ بينَهما ، { لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }.

(٠/٠)

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ } ؛ أي تَجَبَّرَ وتَكَبَّرَ في أرضِ مِصْرَ { وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً } ؛ أي فِرَقاً وأصْنَافاً في الخدمةِ والتَّسخيرِ ؛ يُكْرِمُ قَوماً وَيُذِلُّ آخَرِين. وقولهُ تعالى : { يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ } ؛ يعني بنِي إسرائيلَ ، ثُم فَسَّرَ ذلكَ فقال : { يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ } ؛ يقتلُ الأبناءَ ويتركُ البناتِ فلا يقتُلُهنَّ. وَقِيْلَ : معناهُ : يذبحُ أبناءَهم صغاراً ويُبقِي نساءَهم للخِدْمَةِ.

وسببُ ذلك : أنَّ بعضَ الكَهَنَةِ قالوا له : إنَّ مولُوداً يولَدُ في بني إسرائيلَ يكون سَبباً لذهاب مُلْكِكَ. قال الزجَّاج : (وَالْعَجَبُ مِنْ حُمْقِ فِرْعَوْنَ إِنْ كَانَ ذلِكَ الكَاهِنُ عِنْدَهُ صَادِقاً فَمَا يَنْفَعُ القتلُ؟! وَإِنْ كَانَ كَاذِباً فَمَا مَعْنَى الْقَتْلِ؟). وقولهُ تعالى : { إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } ؛ يعني بالقَتْلِ والعملِ بالمعاصي.

(٠/٠)

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الأَرْضِ } ؛ أي نريدُ أن نُنْعِمَ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وهم بنو إسرائيلَ ، { وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً } ؛ يُقتَدَى بهم في الخيرِ. قال قتادةُ : (وُلاَةً وَمُلُوكاً) ودليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً }[المائدة : ٢٠] { وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ } ؛ لِمُلكِ فرعونَ ، ولِمساكنِ قومه ، يَرِثُونَ ديارَهم وأموالَهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ } ؛ أي يُمَكِّنُهم ما كانَ يَملكُ فرعون.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ } ؛ أي ما كانوا يَخافُونَهُ من هذا المولودِ الذي به يذهبُ مُلْكُهم على يدَيهِ ، وذلك أنَّهم أُخبِرُوا أنَّ هلاكَهم على يدَي رَجُلٍ من بني إسرائيلَ ، فكانوا على وَجَلٍ منهم فأرَاهُم اللهُ تعالى { مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ } أي ما كانوا يَخَافُونَ من جهَتِهم من ذهاب مُلكِهم على أيديهم.

وقرأ الأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ وخلف : (وَيُرِي فِرْعَوْنُ) بالياء وما بعدَهُ رفعاً على أنَّ الفعل لَهم ، وقرأ الباقونَ بالنُّون مضمومة وما بعده نصبَ بوقوعِ الفعلِ عليهم.

(٠/٠)

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَوْحَيْنَآ إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ } ؛ لَم يُرِدْ بالوحي وحيَ الرِّسالة ، وإنَّما أراد الإلْهَامَ كما في قولهِ تعالى{ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ }[النحل : ٦٨]. ويقالُ : أرَاهَا اللهُ في المنامِ فعرفته

بتفسير الرُّؤيا. وقال بعضُهم : أتاها ملائكةٌ خاطَبُوها بهذا الكلامِ. واسمُ أُمِّ موسى نُوخَابذُ بنتُ لاَوي بنِ يعقوبَ.

قال وهبُ بن منبه : (لَمَّا حملَتْ أُمُّ موسَى بموسَى كتَمَتْ أمرَها عن جميعِ النَّاسِ فلم يطَّلِعْ على حَملِها أحدٌ مِن خلقِ الله تعالى ، فلما كانت السَّنةُ التي ولِدَ فيها موسَى بَعَثَ فرعون القوابلَ يُفَتِّشْنَ النساء ، وحَمَلتْ أُمُّ موسى ولَم يَنْتَأْ بطنُها ، ولَم يتغيَّر لونُها ، ولَم يظهر لبَنُها ، وكانت القوابلُ لا تتعرضُ لَها ، فلما كانت الليلةُ التي وُلِدَ فيها ولدَتْهُ أُمُّهُ ولا رقيبَ عليها ولا قابلةَ ، لَم يَطَّلِعْ عليه أحدٌ إلاّ أختهُ).

ثُم أوحَى اللهُ إليها : أنْ أرْضِعِيْهِ ، { فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ } ؛ قال : فكتمَتْهُ ثلاثةَ أشهُرٍ ترضعهُ في حِجرِها لا يبكِي ولا يتحرك ، فلما خافَتْ عليه عمِلَتْ له تَابُوتاً مطبقاً ومهدت له فيه ، ثم ألقتْهُ في البحرِ ليلاً كما أمرَها اللهُ ، فلما أصبحَ فرعونُ جلسَ في مجلسهِ على شاطئِ النِّيلِ ، فبَصُرَ بالتابوتِ ، فقالَ لِمن حولَهُ : ائْتُونِي بهذا التابوتِ ، فأتُوا به ، فلما وُضِعَ بين يديه فتحوهُ ، فوجدوا فيه موسَى ، فلما نَظَرَ إليه فرعونُ إغتاظَ وقالَ : كيف أخطأَ هذا الغلامَ الذبحُ؟!

وكان لفرعونَ امرأةٌ يقال لَها آسيَةُ مِن خِيَار النِّساءِ من بنات الأنبياءِ ، وكانت أُمّاً للمسلمينَ ترحَمُهم وتتصدَّقُ عليهم ، فقالت لفرعونَ وهي قاعدةٌ إلى جَنبهِ : هذا الولدُ أكبرُ من ولد سنةٍ وأنتَ إنَّما أمَرتَ أن تذبحَ الوِلْدَانَ بهذه السَّنةِ ، فدَعْهُ يكون قُرَّةَ عَيْنٍ لِي ولكَ ، لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أنْ يَنْفَعَنَا أوْ نَتَّخِذهُ وَلَداً ، فقال فرعونُ لَها : عسَى أن ينفعَكِ ، فأما أنَا فلا أريدُ نفعَهُ.

قال وهبُ : (لو قالَ فرعون كما قالَتِ امرأتهُ : عَسَى أنْ يَنْفَعَنَا ؛ لنفعَهُ اللهُ به ، ولكنه أبَى أن يقولَ للشَّقاءِ الذي كتبَهُ الله عليهِ ، فتركَهُ فرعونُ ولَمْ يَقتُلْهُ)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنْ أَرْضِعِيهِ } أي أرْضِعِيهِ ما لَم تَخَافِي عليه الطلبَ ، فإذا خِفْتِ عليه الطلبَ { فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ } أي في البحرِ ، فقالت : يَا رَب ، إنِّي أخافُ عليه حِيتَانَ البحرِ ، فَأُمِرَتْ أنْ تجعلَهُ في تابوتٍ مُقَيَّرٍ ، فذهبت إلى النَّجَّارِ ، فَأَمرَتْهُ أن يصنعَ لَها تابوتاً على قدرِهِ ، فعرفَ ذلك فذهبَ إلى الْمُوَكَّلِيْنَ بذبحِ بني إسرائيل لِيُخبرَهم بذلك ، فلما انتهَى إليهم أُعْقِلُ لسانهُ فلم يُطِقِ الكلامَ ، فجعلَ يشيرُ بيدهِ فلم يفهَمُوا ، فقال كبيرُهم : اضْرِبُوهُ ؛ فضربوهُ وأخرَجوهُ ، فلما انتهَى النجَّارُ إلى موضعهِ رَدَّ اللهُ عليه لسانَهُ ، فرجعَ إليهم ليخبرَهم فاعتقَلَ لسانهُ ، فجعلَ يشيرُ إليهم بيدهِ ، فلم يَفْهَمُوهُ فضربوهُ ، ففعلَ ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ ، فعرفَ أنه من عندِ الله تعالى ، فَخَرَّ للهِ ساجداً وأسلَمَ ، ثُم صَنَعَ التابوتَ وسَلَّمَهُ إلى أُمِّ موسى فوضعتْهُ فيه وألْقَتْهُ في النِّيلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي } ؛ أي لاَ تَخافِي من الغرقِ والْهَلاَكِ ، ولا تَحزَني لفراقهِ ، { إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } ؛ إلى فرعونَ وقومهِ.

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا أَلْقَتْهُ أُمُّهُ فِي الْبَحْرِ أَقْبَلَ تَهْوِي بِهِ الأَمْوَاجُ حَتَّى اختار مَنْزِلَ فِرْعَوْنَ ، فَخَرَجَتْ جَوَارِي فِرْعَوْنَ تَسْقَيْنَ الْمَاءَ ، فَأَبْصَرَتِ التَّابُوتَ بَيْنَ الشَّجَرِ وَالْمَاءِ فَأَخْرَجَتْهُ وَذَهَبَتْ بِهِ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ }.
وقولهُ تعالى : { لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } ؛ هذه (لام) العاقبةِ لأنَّ أحداً لا يلتقطُ الولدَ ليكون له عدُوّاً ، ونظيرُ هذا قولُهم : لِدُّوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَاب. وقولهُ تعالى { وَحَزَناً } ، قرأ أهلُ الكوفةِ إلاّ عاصماً بضمِّ الحاءِ وجزم الزَّاي وهما لُغتان ، مثل السَّقَمِ والسُّقْمِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَاطِئِينَ } ؛ أي متعمِّدين في الإقامةِ على الكُفْرِ والمعصية ، يقالُ : خطأَ فُلانٌ يُخْطِئُ خَطأً إذا تعمَّدَ الذنبَ وأخطأَ إذا وَقَعَ منهُ على غيرِ الصَّواب ، وَقِيْلَ : معناهُ : إنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كانُوا آثِمينَ عاصِينَ.

(٠/٠)

وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ } ؛ وذلكَ أنَّ فرعون هَمَّ بقَتْلِهِ ، فقالت له امرأتهُ : ليس من أولادِ بَنِي إسرائيلَ ، وقد أتانَا اللهُ به من أرضٍ أُخرَى ، { لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنْفَعَنَا } ، فلاَ تقتُلْهُ أيُّها الملكُ ، فهو قُرَّةُ عَيْنٍ لِي ولكَ ، وعسَى أن ينفعَنا في أمورنا ، { أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } ؛ أنَّ هلاكَهم على يديهِ ، وَقِيْلَ : وهم لا يشعرونَ أنِّي أفعلُ ما أريدُ ولا أفعلُ ما يَهْوُونَ ، أنَّ هلاكَهم على يديهِ ، وَقِيْلَ : وهم لا يشعرونَ أنِّي أفعلُ ما أريدُ ولا أفعلُ ما يَهْوُونَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُرَّتُ عَيْنٍ } مشتقٌّ من القُرُور ؛ وهو الماءُ الباردُ ، ومعنى قولِهم : أقَرَّ اللهُ عَيْنَكَ ؛ أي أبردَهُ معكَ ؛ لأن دمعةَ السُّرور باردةٌ ، ودمعةَ الحزنِ حارَّةٌ.

(٠/٠)

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً } ؛ أي أصبحَ قلبُ أمِّ موسى وهي نُوخابذُ بنتُ لاوي بنِ يعقوبَ فَارغاً من كلِّ شيءٍ إلاّ عن هَمِّ موسَى وذِكرِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا } ؛ أي لولاَ أنْ شَدَدْنَا على قلبها بالصبرِ عن إظهار ذلكَ ، { لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي مِن المصدِّقين بما سبقَ من الوعدِ ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ }[القصص : ٧] ولو أظهرَتْ لكان ذلك سَبَباً لقتلهِ.

والرَّبْطُ على القلب : هو إلْهَامُ الصَّبرِ وتقويتهُ. وَقِيْلَ : معناهُ : وأصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارغاً من الصَّبرِ على فِرَاقِ موسَى لولاَ أنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبهَا لأَبْدَتْ بهِ. وَقِيْلَ : فَارغاً من الْحُزْنِ لعِلْمِها بأنه لَم يعرفْهُ. قرأ فُضَالَةُ بنُ عبيدٍ (وَأصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَزِعاً) بالزَّاي والعينِ من غير ألِفٍ من الفَزَعِ.

(٠/٠)

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ } ؛ أي قالت أُمُّ موسَى لأُختهِ – واسْمُها مَرْيَمُ – : ابْتَغِي أثَرَهُ وَانظُرِي أين وقعَ ؛ لتَعْلَمِي خبرَهُ وإلى مَن صارَ ، فذهبَتْ في إثرِ التَّابوتِ ، { فَبَصُرَتْ بِهِ } ؛ بموسى ، { عَن جُنُبٍ } ؛ أي عن بُعْدٍ قد أخذوهُ ، { وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } ؛ أنَّها قد جاءَتْ لتعرِفَ عن خبرِهِ.

وقال ابنُ عبَّاس : (الْجُنُبُ أنْ يَسْمُو بَصَرُ الإنْسَانِ إلَى الشَّيْءِ الْبَعِيْدِ وَهُوَ إلَى جَنْبِهِ لاَ يَشْعُرُ بِهِ) وكانت مُجانبةً لتحديقِ النَّظر إليه كَيلاَ يعلم بما قصدَتْ به. وقال قتادةُ : (كَانَتْ تَنْظُرُ إلَيْهِ كَأَنَّهَا لاَ تُرِيْدُهُ) ، وكان يقرأُ (عَنْ جَنْبٍ) بفتحِ الجيم وسُكون النُّون. وقرأ النُّعمان بن سالِم : (عَنْ جَانِبٍ) أي عن ناحيَةٍ { وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } أنَّها أُخْتُهُ.

(٠/٠)

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢)
فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ } ؛ الْمَرَاضِعُ جمعُ مُرْضِعَةٍ ، وقولهُ تعالى : { مِن قَبْلُ }

أي من قبلِ مَجِيء أُمِّهِ ، ومعنى : { وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ } أي مَنَعْنَاهُ ، وقد يذكرُ التحريم بمعنى المنعِ ، قال الشاعرُ : جَاءَتْ لِسُرْعَتِي فَقُلْتُ لَهَا اصْبري إنِّي امْرُؤٌ صَرْعِي عَلَيْكِ حَرَامُأي مُمْتَنِعٌ.

وذلك أنَّ اللهَ تعالى أرادَ أن يَرُدَّهُ إلى أُمِّهِ ، فَمَنَعَهُ من قَبولِ ثَدْي المراضعِ ، فلما تَعَذرَ عليهم رضَاعُهُ ؛ { فَقَالَتْ } ؛ أُخته : { هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ } ؛ أي يَضْمَنُونَ لكم القيامَ به ورضَاعَهُ ، { وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ } ؛ أي يُشفِقُونَ عليه وينصَحُونه ، قالوا لَها : مَنْ ؟ قَالَت : أُمِّي ، قالوا : ولأُمِّكِ لَبَنٌ ؟ قالت : نَعَمْ ؛ لبنُ أخِي هارونَ ، وكان هارونَ وُلِدَ في سنَة لا يُقتَلُ فيها صبيٌّ ، فقالوا : صَدَقْتِ. فدلَّتْهُم على أُمِّ موسى ، فدُفِعَ إليها لتُربيَهُ لَهم.

فلما وَجَدَ الصبيُّ ريْحَ أُمِّهِ قَبلَ ثديَيْها وأتَمَّها اللهُ ما وعدَها وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ } ؛ على فِرَاقِهِ ، { وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ } ؛ برَدِّ ولدِها إليها ، { حَقٌّ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } أنَّ اللهَ وعدَها برَدِّ ولدِها إليها.

(٠/٠)

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى } ؛ قال مجاهدُ : (بَلَغَ أشُدَّهُ ؛ أيْ ثَلاَثاً وَثَلاَثِيْنَ سَنَةً) ، { وَاسْتَوَى } أي بَلَغَ أربعينَ سَنَةً ، وهو قولُ ابنِ عبَّاس وقتادةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً } يعني الفِقْهَ والعقلَ والعِلْمَ في دينهِ ودِين آبائهِ ، قد تعلَّمَ موسَى وحَكَمَ قبلَ أن يُبْعَثَ نبيّاً. وقال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا بَلَغَ مُوسَى أرْبَعِيْنَ سَنَةً آتَاهُ اللهُ النُّبُوَّةَ). وَقِيْلَ : الأَشُدُّ : منتَهَى الشبَّاب والقُوَّةِ ، والاستواءُ : إتْمَامُ الْخَلْقِ واعتدالُ الجسمِ في الطُّول والعِظَمِ ، وإنَّما يبلغُ المرء هذا الحدَّ في اثنين وعِشرين سنةً إلى أربعينَ سَنة.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } ؛ فيهِ بيانُ أنَّ إنشاءَ العلمِ والحكمة يجوزُ أن يكون على الإحْسَانِ ؛ لأنَّهما يؤَدِّيان إلى الجنَّةِ التي هي جزاءُ الْمُحسِنينَ.

(٠/٠)

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ

عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ } ؛ أي دخلَ مُوسَى مدينةَ فرعون وهي مدينةٌ يقالُ لَها منف ، وكانت مِن مِصْرَ على فَرْسَخَيْنِ. وقولهُ تعالى : { عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا } ، قال ابنُ عبَّاس : (فِي وَقْتِ الظَّهِيْرَةِ عِنْدَ الْمَقِيْلِ وَقَدْ خَلَتِ الطُّرُقُ).

وَقِيْلَ : ودخلَها بين المغرب والعِشَاء ، وَقِيْلَ : دخلَها يومَ عيدِهم وكانوا مشغولِين عن موضعِ مدينَتِهم باللَّهْوِ واللَّعب ، { فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَاذَا مِن شِيعَتِهِ } ؛ أي مِن بَنِي إسرائيلَ ، { وَهَاذَا مِنْ عَدُوِّهِ } ؛ أي من القِبْطِ ، وكان القبطيُّ يُسَخِّرُ الإسرائيليَّ ليحمِلَ له حَطَباً إلى مَطبَخِ فرعون ، والإسرائيليُّ يَأْبَى ذلكَ ، { فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ } ؛ أي اسْتَنْصَرَهُ الإسرائيليُّ ، { عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ } ، على القِبْطِيِّ ، { فَوَكَزَهُ مُوسَى } ؛ أي ضَرَبَهُ بجمعِ كفِّهِ في صدرِهِ ، { فَقَضَى عَلَيْهِ } ؛ أي قَتَلَهُ فوقعَ القبطيُّ مَيِّتاً. وكلُّ شيءٍ فَرَغْتَ منهُ وأتْمَمْتَهُ فقد قَضَيْتَ عليهِ وقَضَيْتَهُ ، والوَكْزُ : الضَّرْبُ بجمعِ الكَفِّ.

وكان مُوسَى عليه السلام قد أُوْتِيَ بَسْطَةً في الْخَلْقِ وشدَّةَ القوةِ والبطش ، وكان مِن نِيَّةِ موسى أنه لا يريدُ قَتْلَهُ ولَم يتعمَّدْ هَلاكَهُ ، بل قَال له أوَّلاً : خَلِّ سَبِيْلَهُ ، فقال : إنَّما أريدهُ ليحمِلَ الحطبَ إلى مطبخِ فرعونَ ، { فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ } أي قَتَلَهُ وفَرَغَ من أمرِهِ ، والوَكْزُ واللَّكْزُ وَالْهَز بمعنى واحدٍ وهو الدَّفْعُ ، ويقالُ : وَكَزَهُ بعَصَاهُ.

فَلَمَّا قَتَلَهُ موسَى عليه السلام نَدِمَ على قتلِهِ وقالَ : لَمْ أدْر بهذا ، ثُم دفعَهُ في الرَّمْلِ ، { قَالَ هَاذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ } ؛ لأنِّي كنتُ لا أريدُ قَتْلَهُ ، ولكن هَيَّجَ الشيطانُ حَرْبِي حتى ضربتهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ } ؛ أي عَدُوٌّ لبَنِي آدمَ مُضِلٌّ له مُبِيْنٌ عداوتَهُ لَهم.

ثُم استغفرَ مُوسَى رَبَّهُ فـ { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي } ؛ بقَتْلِ القبطيِّ قَبْلَ وُرودِ الأمرِ والإذنِ لِي فيهِ ، { فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ } ؛ أي بما أنعمتَ عليَّ بالمغفرةِ والحِلْمِ والعلمِ فلن أكونَ عَوْناً للكافرينَ ، وهذا يدلُّ على أنَّ الإسرائيليَّ الذي أعانَهُ موسى كان كَافِراً.

(٠/٠)

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ } ؛ أي أصبحَ مِن عند ذلك اليوم في تلك المدينة التي فَعَلَ فيها ما فعلَ خائفاً على نفسهِ من فرعون وقومهِ { يَتَرَقَّبُ } أي ينظرُ عاقبةَ أمرهِ ، والتَّرَقُّبُ : انتظارُ المكروهِ ؛ أي ينتظرُ سوءاً ينالهُ منهم ، { فَإِذَا } ؛ ذلكَ الإسرائيليُّ ، { الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ } ؛ أي يستغيثهُ على رجلٍ آخر من القِبْطِ ، { قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ } ؛ أي ضَالٌّ عن طريقِ الحقِّ بَيِّنُ الجِدَالِ ، يقاتلُ مَن يقاومهُ ، وقد قتلتُ أمس في سببكَ رجُلاً ، وتدعوني اليومَ إلى آخرَ.

ُثُم أقبلَ موسى وهمَّ أن يبطُشَ الثانيةَ بالقبطيِّ ، ظَنَّ الإسرائيليُّ أنه يريدُ أن يبطشَ به لقولهِ { إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ } فقال الإسرائيليُّ : يا موسى أتريدُ أن تقتُلَني كما قتلتَ نفساً بالأمس ؟ ولَم يكن أحدٌ مِن قومِ فرعون عَلِمَ أنَّ موسى هو الذي قَتَلَ القبطيَّ حتى أفشَى عليه هذا الإسرائيليُّ ، وسَمع القبطيُّ ذلك فأتَى فرعونَ فأخبرَهُ ، وذلك معنى قولهِ تعالى : { فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يامُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ } ؛ وكان أيضاً هذا القبطيُّ الثاني سَخَّرَ الإسرائيليَّ يحمِلُ عليه حَطباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ } ؛ أي ما تريدُ إلاَّ أن تكون قَتَّالاً في أرضِ مصرَ بالظُّلم. قال الزجَّاجُ : (الْجَبَّارُ فِي اللُّغَةِ : الَّذِي لاَ يَتَوَاضعُ لأَمْرِ اللهِ ، وَالْقَاتِلُ بغَيْرِ حَقٍّ جَبَّارٌ).

وقولهُ تعالى : { وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ } ؛ أي مِن الذين يأمُرونَ بالمعروفِ ويَنْهَوْنَ عن المنكرِ. فلمَّا سَمع القبطيُّ مقالةَ الإسرائيليِّ عَلِمَ أنَّ موسى هو الذي قَتَلَ القبطيَّ بالأمسِ ، ولَم يكن أحدٌ عَلِمَ ذلكَ قَبْلَ هذا فانطلقَ القبطيُّ فأخبرَ فرعون ، فأرسلَ فرعونُ إلى أولياءِ المقتول أنِ اقتُلُوا موسَى.

(٠/٠)

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَآءَ رَجُلٌ } ؛ مِن شيعة موسى ، { مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ } ؛ أي مِن آخرِها إلى مُوسَى فأخبرَهُ بذلكَ ، وقولهُ تعالى : { يَسْعَى } ؛ أي يَمشي على رجلَيْهِ مُسرِعاً وهو حزقيل بن صوريا مؤمنٌ من آلِ فرعون ، { قَالَ } ؛ له : { يامُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ } ؛ أي أنَّ الْخَوَاصَّ مِن قومِ فرعونَ يتشَاورُونَ في قتلِكَ ، { فَاخْرُجْ } ؛ مِن المدينةِ ، { إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ } ؛ وقال الزجَّاج : (يَأْتَمِرُونَ أيْ يَأْمُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بقَتْلِكَ). فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِيْنَ في أمري لكَ بالخروجِ ، { فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفاً } ؛ أي خرجَ موسى من المدينةِ ، { يَتَرَقَّبُ } ؛ أي ينظرُ متى يُلْحَقُ فيُؤْخَذُ ، { قَالَ } ؛ عندَ ذلك : { رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ؛ أي مِن فرعونَ وقومهِ أين يذهب.

(٠/٠)

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ } ؛ أي لَمَّا سارَ نَحوَ مِدْيَنَ ، وكان قد خرجَ بغيرِ زاد ولا حِذاءٍ ولا ركوبةٍ ، بل خرجَ هَائِماً على وجههِ هارباً من فرعونَ وقومهِ لا يدري أينَ يذهبُ ، فخافَ أن يُخطِئَ الطريقَ. ومَدْيَنُ اسمُ ماءٍ لقوم شُعيب ، وبينَهُ وبين مصرَ ثَمانيةُ أيَّامٍ ، سُمي ذلكَ الماءُ باسم مَدْيَنَ بنِ إبراهيمَ عليه السلام.
فلمَّا لَم يكن لِموسى علمٌ بالطريق خَشِيَ أن يذهبَ يَميناً وشِمالاً فـ { قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ السَّبِيلِ } ؛ أي يُرشِدَني قصدَ الطريقِ إلى مَدْيَنَ ، فلمَّا دَعَا موسى بهذا جاءَهُ مَلَكٌ على فَرَسٍ فانطلقَ به إلى مَدْيَنَ. قال المفسِّرون : خرجَ موسَى من مصرَ بلا زادٍ ولا درهَمٍ ولا رُكوبَةٍ إلى مَدينَ ، وبينهما مسيرةُ ثَمان ليالٍ ، ولَم يكن له طعامٌ إلاّ ورقَ الشَّجرِ.

(٠/٠)

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ } ؛ أي بلغَ بئْرَهُمْ التي كانوا يَسْقُونَ منها ، قال ابنُ عبَّاس : (وَرَدَ

مَاءَهُمْ وَأَنَّهُ لَيَرَى خُضْرَةَ الشَّجَرَةِ فِي بَطْنِهِ مِنَ الْهُزَالِ). وقولهُ : { وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ } ؛ أي وجَدَ على ذلك الماءِ جماعةً من الناسِ يَسْقُونَ أغنامَهم مواشِيهم ، { وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيِنِ تَذُودَانِ } ؛ أي تَحْبسَانِ غنمَهما عن الماءِ حتى تفرغَ الناسُ ويخلو لَهما الماءُ ، وهما بنْتَا شُعيب.

والذوْدُ في اللغة : الطَّرْدُ والدفعُ والكَفُّ ، ومعنى { تَذُودَانِ } تَدْفَعَانِ وتكُفَّان الغنمَ مِن أن يخلطَ بأغنامِ الناس ، وحتى يقربَ الماءُ إلى أن يفرغَ القومُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ مَا خَطْبُكُمَا } ؛ أي قالَ موسَى لابنَتَي شُعيب : { مَا خَطْبُكُمَا } أي ما شَأنُكُمَا لا تسقِيَانِ غنمَكُما مع الناسِ ؟ { قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَآءُ } ؛ قرأ الحسنُ وابن عامر وأبو عمرو بفتح الياء وضَمِّ الدال ، جعلُوا الفعلَ للرِّعَاءِ ؛ أي حتى يرجعَ الرِّعَاءُ عنِ الماء ، وقرأ الباقون (يُصْدِرُ) بضَمِّ الياءِ وضمِّ الدال ؛ أي حتى يُصْدِرُوا مواشيهم من وردِهم ، فيخْلُوا لنا الموضعَ فنَسقِي أغنامَنا فَضْلَ ما في الحوضِ. والرِّعَاءُ جمعُ رَاعٍ.

قال ابنُ اسحقَ : (قَالَتَا : نَحْنُ امْرَأتَانِ لا نَسْتَطِيْعُ أنْ نُزَاحِمَ الرِّجَالَ { وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ } ؛ لا يقدرُ أن يسقِي ماشيتَهُ من الكِبَرِ والضَّعْفِ ، وليس له أحدٌ غيرُنا ، فلذلك احتَجْنا ونحنُ نساءٌ أن نسقي الغنمَ.

(٠/٠)

فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ } ؛ فلما سَمِعَ موسَى قولَهما رحِمَهُما ، فقامَ ليسقِي لَهما غنمَهما ، فوجدَ بقُربهما بئراً أُخرى على رأسِها صخرةٌ عظيمة لا يطيقُ رفعَها إلاَّ جماعة من الناسِ ، فاقتلَعَها وحدَهُ ثُم أخذ الدَّلو من القوم ، فأدلاَها في البئرِ ، ونزعَها في الحوضِ ، ثُم دعا بالبَرَكَةِ فشَرِبَ الغنمُ حتى رَوِي.

وَقِيْلَ : إنه زَاحَمَ القومَ على بئرِهم وسقَى لَهما غنمَهما ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَسَقَى لَهُمَا } أي سقَى لَهما أغنامَهما قبلَ الوقتِ الذي كانا يسقِيَان فيه ، ثُم رجعَ من الشَّمسِ إلى ظلِّ شجرةٍ فجلسَ تحتَها من شدَّةِ الحرِّ ، وهو جائعٌ ، { فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } ؛ أي إنِّي لَمُحْتَاجٌ فقيرٌ إلى ما قدَّرتَ لِي من الطعامِ ، وكان خرجَ من مصر بغيرِ زادٍ وكان لا يأكلُ في الأيام الثمانيةِ إلاّ الحشيشَ والشَّجرَ إلى أن بلغَ ماء مَدْيَنَ ، فلما أدركَهُ الجوعُ الشديد ؛ وكان لا يقدرُ على شيءٍ ؛ سألَ الله أكلَهُ من الطعامِ.

قال ابنُ عبَّاس : (سَأَلَ اللهَ فَلْقَ خُبْزٍ أنْ يُقِيْمَ بِهِ صُلْبَهُ) ، فال سعيدُ بن جبير : (لَقَدْ قَالَ مُوسَى : إنِّي

لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خُبْزٍ فَقِيْرٌ ، وَهُوَ أَكْرَمُ خَلْقِهِ عَلَيْهِ ، وَلَقَدِ افْتَقَرَ إِلَى شِقِّ تَمرةٍ) ، وقال مُحمَّدٌ : (مَا سَأَلَ اللهَ إلاَّ الْخُبْزَ). واللامُ في قوله تعالى { إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ } بمعنى : إلَيَّ ، يقالُ : فقراءُ وفقيرٌ إليه.

(٠/٠)

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَآءٍ } ؛ وذلك أنَّ موسى عليه السلام لَمَّا سقى لَهما ، رجَعَا إلى أبيهما سَريعاً ، فقالَ لَهما أبُوهُما : مَا أعْجَلَكُمَا ؟ قالتا : وجَدْنا رجُلاً صالحاً رَحِمَنا ، فسقَى لنا أغنامَنا ، فقال لإحداهُما : اذهَبي فادعِيه لِي ، فجاءتْهُ تَمشي مُستحيةً مشيَ مَن لا يعتادُ الدُّخولَ والخروجَ ، واضعةً كفَّها على وجهِها ، مُعرِضَةً من الحياءِ ، وكانت التي أرسَلَها أبوها إلى موسَى هي الصُّغرى منهما ، واسْمُها صُورَا ، قال عمرُ بن الخطَّاب في قولهِ تعالى : { فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَآءٍ } : (وَاضِعَةً ثَوْبَهَا عَلَى وَجْهِهَا ؛ أيْ مُسْتَتِرَةً بكُمِّ ذِرَاعِهَا). قال أهلُ اللُّغة : السَّلْفَعُ : الجريئة التي هي غيرُ مُستحِيَةٍ.

وقولهُ تعالى : { قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا } أي ليعطيكَ ذلك ، فلما قالت ذلكَ لِموسَى شُقَّ عليه قولُها ، وهَمَّ أن لا يتبعَها وكان بينه وبين أبيها مقدارَ ثلاثةِ أميَالٍ ، ثُم إنه لَم يجدْ بُدّاً من اتِّباعِها ؛ لأجْلِ الْجُهْدِ والجوعِ الذي حَلَّ به ولأجلِ الخوف الذي خرجَ لأجلهِ ، فانطلقَ معها ، وكانت الريحُ تضربُ ثوبَها فَنَكَّرَتْهُ برَدْفِها فتصفُ له عجيزتَها ، وكانت ذات عَجزٍ ، فجعل موسَى يَغْضُّ بَصَرَهُ ويُعرِضُ عنها ، ثُم قال لَها : (يَا أَمَةَ اللهِ كُونِي خَلْفِي ، وَانْعَتِي لِيَ الطَّرِيْقَ بقَوْلِكِ ، وَدُلِّينِي عَلَيْهَا إنْ أنا أخْطَأْتُ ، فَإنَّا بَنُوا يَعْقُوبَ لاَ نَسْتَطِيْعُ النَّظَرَ إلَى أعْجَاز النِّسَاءِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ؛ أي فلمَّا جاءَ مُوسَى إلى شُعيب إذ هو بالعَشَاءِ مُهَيَّأً ، فقالَ له شُعيب : مَن أنتَ ؟ قال : أنا رجلٌ من بَنِي إسرائيلَ مِن أهلِ مصر ، وحَدَّثَهُ بما كان منهُ من قَتْلِ القبطيِّ وفرارِهِ من فرعون ، فقال له شعيبُ : إجلِسْ { لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } أي نجوتَ من فرعونَ وقومهِ ، فإنَّهم لا سلطانَ لَهم بأرضِنا ، ولَسْنَا مملكتَهُ.

فجلسَ معه موسى عليه السلام فقالَ له شعيبُ : هَاكَ فَتَعَشَّ ، فقال : أعوذُ باللهِ ، فقال له شعيبُ : ولِمَ وأنتَ جائعٌ ؟ قال : أخافُ أن يكون هذا عِوَضاً لِمَا سقيتُ لكم ، وإنَّا أهلُ بيتٍ لا يَبْغِ شيئاً من

عَمَلِ الآخرةِ بملْئِ الأرضِ ذهباً ، فقال شعيبُ : لاَ وَاللهِ! ولكنَّها عادَتِي وعادةُ آبائي ، نُقْرِي الضَّيفَ ونُطعِمُ الطعامَ ، فجلسَ مُوسَى عليه السلام يتعَشَّى حينئذٍ.

(٠/٠)

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَتْ إِحْدَاهُمَا ياأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ } ؛ أي قالَتْ إحداهُما وهي التي تزوَّجَها موسى : يا أبَتِ اتَّخِذْهُ أجيراً يرعَى لنا غنمَنا ، فإنَّ خيرَ منِ استأجرتَ الذي يقوَى على العملِ ، ويؤدِّي الأمانةَ.

فقال لَها أبُوهَا : وما عِلْمُكِ بقوَّتِهِ وأمانتِهِ ؟ فقالت : أمَّا قوَّتهُ فإنه لَمَّا رأى أغنامَنا محبوسةً عن الماءِ ، قال لنا : هل بقُربكُما بئرٌ ؟ قلنا : نَعَمْ ؛ لكن عليها صخرةٌ عظيمة لا يرفَعُها إلاّ أربعونَ رجُلاً ، قال : انطَلِقا بي إليها ، فانطلَقا به إليها ، فأخذ الصخرةَ بيدهِ ونَحَّاهَا سَهْلاً من غيرِ كُلْفَةٍ. وأمَّا أمانتهُ فإنه قال لِي في بعضِ الطَّريق : إمْشِ خلفِي ، فإنْ أخطأتُ الطريقَ فارْمِ قِبَلِي بحصاةٍ حتى أنْهَجَ نَهْجاً ، فإنّا قومٌ لا ننظرُ إلى وراءِ النِّساء. ولِهذا المعنى قال عمرُ رضي الله عنه : (لاَ يَصْلُحُ لأُمُور الْمُسْلِمِيْنَ إلاَّ الْقَوِيُّ مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ ، وَالرَّقِيْقُ مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ).

قال فلمَّا ذكرَتِ المرأةُ من حالِ موسى ازدادَ أبُوهَا رغبةً فيهِ و { قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ } ؛ أي على أن تَرْعَى غنَمِي ، ويكون فيها أجْراً إلى ثَمان سِنين ، { فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ } ؛ فهو بفَضْلٍ منكَ ليس بواجبٍ عليكَ ، { وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ } ؛ في العشرِ ، ولا أكلفُّكَ إلاّ العملَ المشروط ، والمرادُ بالحِجَجِ السِّنين. قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ } ؛ مِمن وافَقَ فِعْلَهُ. وَقِيْلَ : ستجدُنِي إن شاءَ اللهُ من الوَافِيْنَ بالعهدِ ، الْمُحسِنينَ الصُّحبةَ.

ف { قَال } مُوسَى لشعيب : { ذَلِكَ } ؛ الشرط { بَيْنِي وَبَيْنَكَ } ؛ يعني الذي وصفتَ وشَرَطْتَ على ذلك ، وما شرطتَ لِي مِن تزويجِ إحداهما عَلَيَّ فلي ، والأمر بيننا. وثم السلام. ثُم قال : { أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ } ؛ أيُّ الأجلَين من الثَّمانِ أو العَشْرِ ، { قَضَيْتُ } ؛ أي أتْمَمْتَ وفَرَغْتَ ، { فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ } ؛ أي لا ظُلْمَ ولا حرجَ ولا كُلفَةَ. قال الفرَّاء : (مَا) صِلَةٌ فِي قَوْلِهِ : { أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ }.

وقولهُ تعالى : { وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } ؛ أي شهيدٌ على ما عَقَدَ بعضُنا على بعضٍ. قال ابنُ عبَّاس : (وَاللهُ شَهِيْدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ).

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ : " سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أيُّ الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى ؟ فَقَالَ : " أَوْفَاهُمَا وَأَبْطَئُهُمَا " وعن أبي ذرٍّ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " وَإذا سُئِلْتَ عَنْ أيِّ الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى ؟ فَقُلْ : خَيْرُهُمَا أَوْ أَبَرُّهُمَا ، وَإِنْ سُئِلْتَ أيُّ الْمَرْأَتَيْنِ تَزَوَّجَ ؟ فَقُلِ الصُّغْرَى مِنْهُمَا وَالَّتِي جَاءَتْ فَقَالَتْ : يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ".

(٠/٠)

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ } ؛ أي فلَمَّا وَفَّى موسى أتَمَّ الأجلَين وهو عشرُ سنين ، وسارَ بأهلهِ نحو مصرَ ، قال مقاتلُ : (اسْتَأْذنَ مُوسَى صِهْرَهُ شُعَيْبَ فِي الْعَوْدِ إِلَى مِصْرَ لِزِيَارَةِ وَالِدَيْهِ وَأُخْتِهِ. فَأَذِنَ لَهُ ، فَسَارَ بِأَهْلِهِ نَحْوَ مِصْرَ ؛ { آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ } فَأَبْصَرَ باللَّيْلِ الظَّلِيمِ عن يسار الطَّريق ، أي الجبَلِ ، { نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُواْ } ؛ أي انزِلُوا ها هُنا ، { إِنِّي آنَسْتُ } ؛ أي أبصرتُ ، { نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ } ؛ أي مِن عند النار بخبرٍ ، وأعلمُ لِمَ أُوقِدَتْ تلك النارُ. ويقالُ : كانت أخطأَ الطريقَ فأرادَ أن يَسْأَلَ عن الطريقِ مَن يَجِدُهُ عندَ النار. وقولهُ تعالى : { أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ } ؛ معناهُ : أو آتِيكُمْ بقطعةٍ من الحطَب في رأسِها شعلةٌ من النار لكي تَدَفَّئُوا من البردِ ، وكانوا في شدَّةِ الشِّتاء).

وفي قوله { جَذْوَةٍ } ثلاثُ قراءاتٍ : فتحُ الجيمِ وهي قراءةُ عاصم ، وضمُّها وهي قراءةُ حمزةَ ، وكسرُها وهي قراءة الباقين ، وقولهُ تعالى : { لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } ؛ أي تُدْفَئُونَ بها عن البردِ.

(٠/٠)

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِىءِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ } ؛ أي فلمَّا أتَى موسى النارَ نُودِيَ من جانب الوادِي الأيْمَنِ أراد يَمينَ موسَى ، وقولهُ تعالى { فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ } أي الْمُقَدَّسَةِ ، وقولهُ تعالى : { مِنَ الشَّجَرَةِ } أي من الشَّجرةِ وهي شجرةُ العُنَّاب في قولِ ابنِ عبَّاس ، وقال مقاتلُ : (هِيَ عَوْسَجَةٌ) ، وسُمِّيت البقعةُ مباركةً ؛ لأن الله كَلَّمَ مُوسَى فيها وَبَعثَهُ نبيّاً. وقولهُ تعالى : { أَن يامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ.

(٠/٠)

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ } ؛ أي نُودِيَ بأنْ ألْقِ عصاكَ من يدِكَ ، وموضعُ (أنْ ألْقِ) نصب ، { فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ } ؛ أي فلما رَآهَا بعدَ ما ألقَاهَا تتحرَّك في غايةِ الاضْطِرَاب كأنَّها جَانٌّ في الخِفَّةِ مع عِظَمِهَا ، { وَلَّى مُدْبِراً } ؛ أي هَارباً ، { وَلَمْ يُعَقِّبْ } ؛ أي ولَم يَلْتَفِتْ إلى ما رآهُ ، فقال اللهُ لهُ : { يامُوسَى أَقْبِل } ، إليها ، { وَلاَ تَخَفْ } منها ؛ { إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ } مِن أن ينالَكَ منها مكروهٌ ، فأخذها موسى فإذا هي عصَا كما كانت ، ويقال سُميت جَانٌّ في هذهِ الآية ؛ لأنَّها صارت جَانّاً في البقعةِ المباركة ، وثُعبَاناً عند فرعونَ.

(٠/٠)

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ } ؛ أي أدْخِلْهَا في جيبكَ ، { تَخْرُجْ بَيْضَآءَ } ؛ لَها شعاعٌ كشُعَاعِ الشَّمسِ ، { مِنْ غَيْرِ سُوءٍ } ؛ أي من غيرِ بَرَصٍ ، من الفزعِ ، فتصيرَ آمِناً مما كنتَ تخافهُ ، وهذا لأنَّ من شَأْنِ الْخَائِفِ أن يرتعدَ ويقلق فيكون ضَمُّ يدهِ إلى نفسهِ في معنى السُّكون.
قال مجاهد : (كُلُّ مَنْ فَزِعَ فَضَمَّ جَنَاحَيْهِ إِلَيْهِ ذَهَبَ عَنْهُ الْفَزَعُ ، وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ). وَجَناحُ الإِنْسَانِ :

عَضُدُهُ ، ويقالُ : اليدُ كلُّها جَنَاحٌ. وقال بعضُهم : معنى قولهِ { وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ } أي سَكِّنْ رَوْعَكَ ، وضَمُّ الجناحِ هو السُّكون ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ }[الإسراء : ٢٤] يريدُ الرِّفْقَ ، وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }[الشعراء : ٢١٥] أي ارْفِقْ بهم ، وألِنْ جناحَكَ بهم. وقال الفرَّاء (أرَادَ بالْجَنَاحِ الْعَصَا). وقولهُ تعالى { مِنَ الرَّهْبِ } وقُرئ (مِنَ الرَّهَب) أيضاً وهما لُغتان مثل الرُّشْدِ والرَّشَدِ ، ويقالُ : إنَّ قوله (مِنَ الرَّهْب) متَّصلٌ بقولهِ (مِنَ الآمِنِيْنَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ } ؛ يعني اليدَ والعصا حُجَّتَانِ مِن الله لِمُوسَى على صدقهِ ، والمعنى : هما حُجَّتَانِ من ربكَ أرسلناكَ بهما { إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ } ؛ أي أشرافِ قومه ، { إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ } ؛ أي خَارِجِين عن طاعةِ الله تعالى ، " وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد النون " وقرأ الباقونَ بالتخفيف. قال الزجَّاج : (التَّشْدِيْدُ تَثْنِيَةُ ذلِكَ ، وَالتَّخْفِيْفُ تَثْنِيَةُ ذاكَ).

(٠/٠)

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً } ؛ يعني القبطِيَّ الذي قتلَهُ ، { فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ } ، { وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً } ؛ أي أبْيَنُ مِنِّي كَلاماً وأحسنُ بياناً ، وكان في لسانِ موسى عقدةٌ من قِبَلِ الجمرةِ التي تناولَها ، ولذلك قال فرعونُ : وَلاَ يَكَادُ يُبِيْنُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً } ؛ أي عَوْناً ومُصَدِّقاً لِي ، يقالُ : فلانٌ ردْءُ فلانٍ ؛ إذا كان ينصرهُ ويشدُّ ظهرَهُ. وقرأ نافعُ (رداً) من غيرِ هَمْزٍ طلباً لِلْخِفَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُصَدِّقُنِي } ؛ قرأ عاصمُ وحمزة : (يُصَدِّقُنِي) بضمِّ القاف ، وقرأ الباقونَ بالجزمِ على الجواب بالأمر ، ومَن رفعَ كان صفةً لنكرةٍ ، جواباً للمسالة تقديرهُ ردْءاً مُصَدِّقاً لِي ، والتصديقُ هارون في قولِ الجمع. وقال مقاتلُ : (لِكَي يُصَدِّقَنِي فِرْعَوْنُ) { إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ }.

(٠/٠)

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ } ؛ أي قالَ اللهُ تَعَالَى لِموسى : سنُعِينُكَ ونقوِّيكَ وننصرُكَ بأخيكَ ، وشَدُّ العَضُدِ كنايةٌ عن التقويةِ ، وقولهُ تعالى : { وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً } حجَّةً وبيِّنة تدلُّ على النبوَّة ، { فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا } بقَتْلٍ ولا سُوءٍ ولا أذَى ، { بِآيَاتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ } ؛ لِمَن خالَفَكما ، وقولهُ تعالى : { بِآيَاتِنَآ } موضعهُ التقديمُ ؛ والمعنى ونجعلُ لكُمَا سُلطَاناً بآياتِنَا ؛ أي بما نُعطِيكُما من المعجزاتِ.

(٠/٠)

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ } ؛ يعني المعجزاتِ فلم يقدِرُوا على دفعِ تلك الآياتِ ، { قَالُواْ مَا هَاذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى } ، إلاّ أنْ قالوا هذا سِحْرٌ مُفْتَرَى ؛ أي مُخْتَرَعٌ من قِبَلِ نفسِكَ ولَم تُبعَثْ بهِ ، { وَمَا سَمِعْنَا بِهَاذَا ؛ } ؛ الذي تَدْعُونَا إليه ، { فِي آبَآئِنَا الأَوَّلِينَ }.

(٠/٠)

وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ } ؛ أي هو أعلمُ بالحقِّ مِنَّا وبمن يدعُو إلى الضَّلالةِ ؛ أي أنَا الذي جِئْتُ بالْهُدَى مِن عندِ الله. وقرأ ابنُ كثير : (قَالَ مُوسَى) بغير واوٍ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ } ؛ أي هو أعلمُ بمن تكونُ له الجنَّة ، { إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } ؛ أي لا يُسْعَدُ مَن أشْرَكَ باللهِ.

(٠/٠)

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ياأَيُّهَا الْملأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَاهٍ غَيْرِي } ؛ أي قالَ فرعونُ الخَوَاصِّ قومِهِ : { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَاهٍ غَيْرِي } وهذه إحدَى كَلِمَتَيْهِ اللَّتين أخذهُ الله بهما ، والأُخرى قولهُ{ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأَعْلَى }[النازعات : ٢٤].
وقولهُ تعالى : { فَأَوْقِدْ لِي ياهَامَانُ عَلَى الطِّينِ } ؛ أي اتَّخِذْ لِي آجُرّاً ، { فَاجْعَل لِّي صَرْحاً } ؛ أي قَصْراً طَويلاً متَّسِعاً مرتفعاً ، { لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَاهِ مُوسَى } ؛ أي أصعدُ إليه ، ظَنَّ بجهلهِ أنه يَتَهَيَّأُ له أنْ يبلُغَ بصرحهِ إلى السَّماءِ ، وظنَّ أن إلهَ مُوسَى جِسْماً مشاهَداً كما تقولُ الْمُشَبهَةُ ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذلِكَ.
قال المفسِّرون : لَمَّا أمرَ فرعونُ وزيرَهُ هامانَ ببناء الصَّرح ، جَمَعَ خمسين ألفَ بَنَّاءٍ سِوَى الاتباعِ والأُجَرَاءِ ممن يطبخُ الآجُرَّ والجصَّ ، وينحتُ الخشبَ والأبوابَ ، ويضربُ المساميرَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ } ؛ أي في ادِّعاء (إلَهاً غَيْرِي) وأنه رسولهُ ، وهذا اعترافٌ مِن فرعونَ بالشَّكِّ لأنه شَاكٌّ لا يدري مَن في السَّماء ، ولو كان إلَهاً لَمْ يجهَلْ ولَم يشُكَّ ، والمبطلُ تظهرُ عليه الْمُنَاقَضَةُ.

(٠/٠)

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } ؛ تعظَّمُوا عن الإيْمانِ ولَم ينقَادُوا للحقِّ ، وقولهُ تعالى { فِي الأَرْضِ } أي في أرضِ مِصْرَ { بِغَيْرِ الْحَقِّ } أي بالباطلِ والظُّلم ، { وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ } ؛ أي يُرَدُّونَ إلينا بالبعثِ للحساب والجزاء.

(٠/٠)

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ } ؛ أي طَرَحْنَاهُمْ في البحر. قال عطاءُ : (يُرِيْدُ الْبَحْرَ الْمَالِحَ بَحْرَ الْقُلْزُمِ) { فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } ؛ حين صَارُوا إلى الْهَلاكِ.

(٠/٠)

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)

قَوْلُه تَعَالَى : { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } ؛ أي جعلناهم في الدُّنيا أئِمَّةَ ضَلاَلَةٍ وقَادَةً في الكُفْرِ والشِّرك ، يقودُونَ الناسَ إلى الشِّركِ ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } لأن مَن أطَاعَهم ضَلَّ ودخلَ النارَ ، { وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لاَ يُنصَرُونَ } أي لا يُدْفَعُ عنهم عذابُ اللهِ ، { وَأَتْبَعْنَاهُم فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً } ؛ يعني لَعْنَةَ الملائكةِ والمؤمنين ، { وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُمْ مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ } ؛ أي مِن الْمُشَوَّهِيْنَ في النَّار ، سَوَادُ وجُوهِهم وزرقَةُ الأعيُنِ ، فعلى هذا يكونُ المعنى : هُمُ الْمَقْبُوحِيْنَ. وَقِيْلَ : معناهُ : هم مِن الْمُبْعَدِيْنَ الملعونينَ من القَبْحِ ، وهو الإبعادُ. قال أبو يَزيدٍ : (يُقَالُ : قَبَّحَ اللهُ فُلاَناً قُبْحاً وَقُبُوحاً ؛ أي أبْعَدَهُ مِن كُلِّ خَيْرٍ).

(٠/٠)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ } ؛ يعني القُرُونَ الأُولَى قومَ نُوحٍ وعادٍ وثَمُودَ وغيرَهم ، كانوا قَبْلَ مُوسَى. وقولهُ تعالى { بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ } أي أعطَينا موسَى التَّوراةَ من بعدِ ما أهلكنا الأمَمَ الماضيةَ عِظَةً وعِبْرَةً للناسِ لِيُبْصِرُوا بها أمرَ دينِهم ؛ أي ليُبصِرُوا بالتوراةِ ويهتَدُوا بها ، وهُو قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُدًى } ؛ مِن الضَّلالةِ لِمن عَمِلَ به ؛ أي بالكتاب { وَرَحْمَةً } ؛ لِمن آمَنَ به ، { لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } ؛ أي يتذكَّرُوا بما فيه من المواعظ والبصائرِ.

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ ، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : " مَا أَهْلَكَ اللهُ قَوْماً وَلاَ قَرْناً وَلاَ أُمَّةً وَلاَ

أَهْلَ قَرْيَةٍ بعَذابٍ مِنَ السَّمَاءِ مُنْذُ أنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ غَيْرَ أهْلِ الْقَرْيَةِ الَّذِيْنَ مُسِخُواْ قِرَدَةً ، أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ قَالَ { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى } ".

(٠/٠)

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَى مُوسَى الأَمْرَ } ؛ معناهُ : ما كُنْتَ يا مُحَمَّدُ بجانب الوادِي الغربيِّ { إِذْ قَضَيْنَآ إِلَى مُوسَى الأَمْرَ } أي إذ أوْحَيْنَا الأمرَ بما ألزمناهُ وقومَهُ ، { وَمَا كنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ } ؛ تلكَ الحالةِ ، وإنَّما أخبرناكَ بذلك لتكونَ معجزةً لك.

(٠/٠)

وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥)

وقولهُ تعالى : { وَلَكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُوناً } ؛ أي خَلَقْنَا قَرْناً بعدَ قرنٍ ، { فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ } ؛ أي طَالَتْ عليهم الْمُهَلُ فنَسُوا عهدَ اللهِ ، وتركُوا أمرَهُ ، وكذبُوا الرُّسُلَ فأهلكناهم قَرْناً بعدَ قرنٍ ، وهذا كلامٌ يدلُّ على أنه قد عَهِدَ إلى موسَى وقومه عهوداً في مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم والإيْمَانِ بهِ ، فلما تَطَاوَلَ عليهِمُ الْعُمُرُ ، وخُلِقَتِ القرونُ بعدَ القرونِ ، وتركُوا الوفاءَ بها.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كُنتَ ثَاوِياً } ؛ أي مُقِيماً { فِي أَهْلِ مَدْيَنَ } ؛ كقِيَامِ مُوسَى وشُعيب فيهم ، { تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا } ؛ أي تذكِّرُهم بالوعدِ والوعيد. قال مقاتلُ : (وَالْمَعْنَى : لَمْ تَشْهَدْ أهْلَ مَدْيَنَ فَتَقْرَأُ عَلَى أهْلِ مَكَّةَ خَبَرَهُمْ كَخَبَرِ مَنْ شَاهَدَهُمْ) { وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ } ؛ أي أرسلناكَ إلى أهلِ مَكَّةَ ، وأنزلَ عليك هذهِ الأخبارَ ، ولولاَ ذلك لَمَا علَمْتَها.

(٠/٠)

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا } ؛ أي وما كُنْتَ يا مُحَمَّدُ بناحيةِ الْجَبَلِ الذي كَلَّمَ اللهُ عليه مُوسَى إذ نَادَيْنَا موسى : إنِّي أنَا اللهُ ، ويَا مُوسَى أقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ ، { وَلَاكِن } ؛ أوحينَاها إليكَ وقصَصْنَاها عليكَ ، { رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ } ؛ لَم يأْتِهم رسولٌ يُخَوِّفُ قبلَكَ ، { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } ؛ أي يَتَّعِظُونَ.

ومعنى { رَّحْمَةً } أي رَحِمْنَاكَ رحمةً بإرسالِكَ والوَحْيِ إليكَ. وقولهُ تعالى : { لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ } يعنِي أهلَ مكَّة لعلَّهُم يتَّعظُونَ ، واسمُ الجبلِ الذي نُودِي عليه موسى جَبَلُ رسمه. قرأ عيسَى بن عمر : (وَلَكِنْ رَحْمَةٌ) بالرفعِ على معنى : ولكن هِيَ رحمةٌ مِن ربكَ إذ أطْلَعَكَ اللهُ عليهِ.

(٠/٠)

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } ؛ قال مقاتلُ : (مَعْنَاهُ : وَلَوْلاَ أنْ يُصِيْبَهُمُ الْعَذابُ فِي الدُّنْيَا بمَا قَدَّمَتْ أيْدِيْهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي) يعني كفارَ مكَّة ، { فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً } ؛ أي هلاَّ أرسلتَ إلينا رَسُولاً ، { فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ } ، يعني القُرْآنَ ، { وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }.

والمعنى : لولا أنَّهم يحتَجُّون بتركِ الإرسالِ إليهم لعجَّلنَاهم بالعقوبةِ بكُفْرِهم. وحقيقةُ كَشْفِ معنى الآية : لَولاَ أنَّهُ إذا أصَابَتْهُمْ مُصِيْبَةٌ ؛ أي عقوبةٌ بما قدَّمَتْ أيْدِيْهِمْ من الكُفْرِ فيقولُوا عندَ نُزولِ العذاب بهم : رَبَّنَا هَلاَّ أرسلتَ إلينا رَسُولاً فَنَتَّبِعُ كتابَكَ ورسولكَ ، ونكون مِن المؤمنينَ ؛ لعجَّلْنَاهم العقوبةَ. قِيْلَ : معناهُ : لولا إذا أصابَتْهم عقوبةُ الآخرةِ فيقولُوا ربَّنا لولاَ أرسلتَ إلينا رسُولاً في الدُّنيا لَمَا أرسلناكَ. وفي الآية بيانُ أنَّ الله تعالى أرسَلَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم مبالغةً في الحُجَّةِ وقطعِ الْمَعْذِرَةِ.

(٠/٠)

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨)

وقولهُ تعالى : { فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا } ؛ أي فلما جاءَ أهلَ الحقُّ مِن عِنْدِنَا وهو مُحَمَّدُ والقُرْآنُ ، { قَالُواْ لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَى } ؛ أي هلاَّ أعطِيَ مثلَ ما أعطِيَ موسى ، يعنونَ هَلاَّ أنْزِلَ عليه القُرْآنُ جُمْلَةً كما أنزلَ التوراة على موسى جُملة واحدةً ، وهلاَّ أعطَى مُحَمَّداً اليدَ والعصا والمنَّ والسَّلوى وغيرَ ذلك من الآيات.
فاحتجَّ اللهُ عليهم بقوله : { أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ } ؛ أي فقد كَفَرُوا بما أوتِيَ موسَى ، كما كَفَرُوا بآياتِ مُحَمَّد و { قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا } ؛ أي تَعَاوَنا على السِّحرِ والضَّلالِ ، يعنونَ موسَى ومُحَمَّداً عليهم السَّلاَمُ. وقرأ أهلُ الكوفة (سِحْرَان) بغيرِ ألفِ التَّوْرَاةُ والقُرْآنُ ، { وَقَالُواْ إِنَّا بِكُلٍّ } ، مِنَ التَّوراةِ والقُرْآنِ ، { كَافِرُونَ }.

(٠/٠)

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)

قال اللهُ لِنَبيِّهِ صلى الله عليه وسلم : { قُلْ } ؛ لكُفَّار مكَّة : { فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَآ } ؛ أي مِن التَّوراةِ والقُرْآنِ حتى { أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } ؛ أنَّهما كانا سِحرَانِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ } ؛ أي فإن لَم يأتُوا بمثلِ التَّوراةِ والقُرْآنِ ، { فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ } ؛ وإنَّ ما رَكِبُوهُ من الكُفْرِ لا حُجَّةَ لَهم فيه ، وإنَّما آثرُوا فيه الْهَوَى.
ثُمَّ ذمَّهُم اللهُ فقال : { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ } ؛ أي لا أحدَ أضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هواهُ بغيرِ رَشَادٍ ولا بيانٍ جاءَ من الله ، { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } ؛ ومعنى قولهِ { فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ } أي فإنْ لَم يُجِيبُوكَ إلى ما سألتَهم ولا يجيبون.

(٠/٠)

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)

قوله : { وَلَقَدْ وَصَّلْنَا } ؛ رسُلَنا ، { لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } أي وصَّلنَا لأهلِ مكَّة ذِكْرِ الأنبياءِ والأُمَمِ وأقاصيصِ بعضهم لبعضٍ ، وأخبَرْنَاهم أنَّا أهلكنا قومَ نوحٍ بكذا وقومَ صالحٍ بكذا لكي يتَّعِظُوا بالقُرْآنِ ، ويخَافُوا أن يَنْزِلَ بهم مثلَ ما نزلَ بمن قبلَهم.

(٠/٠)

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ } ؛ أي من قَبْلِ القُرْآنِ ، { هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ } ؛ أي بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم. قال السديُّ : (يَعْنِي مُسْلِمِي الْيَهُودِ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلام وَأَصْحَابُهُ). وقال مقاتلُ : (يَعْنِي مُسْلِمِي أَهْلِ الإِنْجِيْلِ ، وَهُمُ الَّذِيْنَ قَدِمُواْ مَعَ جَعْفَرَ بْنِ أبي طَالِبٍ مِنَ الْحَبَشَةِ).
ثُم نَعَتَهم اللهُ تعالى فقالَ : { وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ } ؛ يعني القُرْآنَ ، { قَالُواْ آمَنَّا بِهِ } ؛ أي صدَّقنَا بالقُرْآنِ ، { إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ } ؛ لا ذِكْرَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وكان مَكتُوباً عندَهم في التَّوراةِ والإنجيل فلَمْ يعانِدوا ، وقالوا للقُرْآنِ : إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبنَا ، { إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ } ؛ قبل القُرْآنِ ، { مُسْلِمِينَ } ؛ مُخلِصِين للهِ بالتوحيد ، مؤمنين بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ نَبيٌّ.
ثُم أثْنَى اللهُ عليهم خيراً ، فقالَ : { أُوْلَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ } ؛ مرَّةً بتمسُّكِهم بدِينهم حتى أدرَكُوا مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم فآمَنُوا به ، ومرَّةً بإيْمانِهم به. وقال قتادةُ : (كَمَا صَبَرُواْ عَلَى الْكِتَاب الأَوَّلِ وَالْكِتَاب الثَّانِي) ، وَقِيْلَ : مرَّةً لإيْمانِهم بموسَى ومرّةً لإيْمَانِهم بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ } ؛ أي يدفَعُونَ بشهادَةِ أنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الشِّرْكَ ، كذا قال ابنُ عبَّاس ، وقال مقاتلُ : (يَدْفَعُونَ مَا يَلْحَقُهُمْ مِنْ أَذِيَّةِ الْكَافِرِيْنَ وَشَتْمِهِمْ لَهُمْ بالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَالاحْتِمَالِ).
{ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } ؛ مِن الأموالِ في طاعة الله.

(٠/٠)

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ } ؛ أي وإذا خُوطِبُوا بالسَّفاهَةِ وشتَمَهم المشركونَ رَدُّوا عليهم جَميلاً ، وأعْرَضُوا عن الكلامِ الذي لا فائدةَ فيه ، { وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَالُنَا } أي دِينُنا ، { وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ } أي دِينُكم.

وذلك أنَّهم عَيَّرُوهُمْ بتَرْكِ دِينهم. قال السديُّ : لَمَّا أسْلَمَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ جَعَلَ الْيَهُودُ يَشْتُمُونَهُ ، وَهُوَ يَقُولُ : { سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ } ؛ قال الزجَّاج : (لَمْ يُرِيدُواْ التَّحِيَّةَ ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ قَالُواْ : بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْمُتَارَكَةُ والتَّسَلُّمُ ، وَهَذا قَبْلَ أنْ يُؤْمَرَ الْمُسْلِمُون بالْقِتَالِ) ، فَكَأنَّهُمْ قَالُوا : سَلِمْتُمْ مِنَّا لاَ نَعْتَرِضَنَّكُمْ بالشَّتْمِ. ومعنى قولهِ تعالى { لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ } أي لا نريدُ أن نكونَ مِن أهلِ الْجَهْلِ والسَّفَهِ. وقال الكلبيُّ : (مَعْنَاهُ : لاَ نُحِبُّ دِينَكُمُ الَّذِي أنْتُمْ عَلَيْهِ).

(٠/٠)

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } ؛ ذهبَ أكثرُ المفسِّرين أنَّ هذهِ الآيةَ " نزلت في أبي طَالِبٍ ، وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا مَرِضَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيْهِ ، دَخَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ لَهُ : " يَا عَمِّ ؛ قُلْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ أشْهَدُ لَكَ بهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " قالَ : لَوْلاَ أنْ يُعَيِّرَنِي نِسَاءُ قُرَيْشٍ وَيَقُلْنَ : إنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ذلِكَ الْجَزَعُ عِنْدَ الْمَوْتِ ، لأَقْرَرْتُ بهَا عَيْنَكَ " ، فأنزلَ اللهُ تعالى { إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } هِدايَتَهُ. وَقِيْلَ : إنَّكَ لا تَهدِي من أحبَبتَهُ.

و " عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَمِّهِ أبي طَالِبٍ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيْهِ ، وَعِنْدَهُ أبُو جَهْلٍ وَعَبْدُاللهِ بْنُ أُمَيَّةَ بَنِ الْمُغِيْرَةِ ، فَقَالَ لَهُ : " يَا عَمِّ ؛ قُلْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ أُحَاج لَكَ بهَا عِنْدَ اللهِ " فَقَالَ لَهُ أبُو جَهْلٍ وَعَبْدُاللهِ بْنُ أُمَيَّةَ : أتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِب؟!

فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَهُمَا يُعَاوِدَانِهِ عَلَى تِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ بِهِ : أنَا عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَلِب ، وَأبَى أنْ يَقُولَ : لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ " ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي أبي طَالِبٍ ، وَقَالَ لِرَسُولِهِ : { إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } { وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ } ؛ قال

الزجَّاج : (ابْتِدَاءُ نُزُولِهَا بسَبَب أبي طَالِبٍ ، وَهِيَ عَامَّةٌ ؛ لأَنَّهُ لاَ يَهْدِي إلاَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ). { وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }.

(٠/٠)

وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ } ؛ أي قالت قُريش لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم : إن اتَّبَعْنَاكَ على دِينِكَ يتخطَّفُنا العربُ على أنفُسِنا أن يخرجُوا من أرضِنا مكَّة إن ترَكْنا ما يَعبُدونَ. قَالَ اللهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً } أي ذا أمْنٍ يَأْمَنُ فيه الناسُ.
وذلك أن العربَ كانت يُغِيْرُ بعضُهم على بعضٍ ، وأهلُ مكَّة آمِنُونَ في الْحَرَمِ مِن القَتْلِ والسَّيفِ والغَارَةِ ؛ أي فكيفَ يخافون إذا أسْلَمُوا وهُم في حَرَمٍ آمِنُونَ. ومعنى { أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً } أي أوَلَمْ نَجْعَلْهُ مكاناً لَهم.
وقولهُ تعالى : { يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ } ؛ ومعنى { يُجْبَىٰ } أي يحملُ الْحَرَمِ { ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً }. قرأ نافعُ ويعقوب : (تُجْبَى) بالتاء لأجلِ الثَّمرات ، وقرأ الباقونَ بالياء لقولهِ { كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً } ومعنى (تُجْبَى) أي تُحْمَلُ إلى الحرمِ { ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ } من مِصْرَ والشَّام واليمَنِ والعِرَاقِ.
وقولهُ تعالى : { رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا } ؛ أي رزْقاً مِن عندِنا ، { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ أنَّا فعَلْنا ذلك يعني أهلَ مكَّة ، والمعنى : أوَلَمْ يجعل أهلَ مكَّة في أمَانٍ قبلَ الإيْمَانِ يُجْبَى إلى الحرمِ ثَمَراتُ كلِّ شيءٍ نعمةً من عندِنا ، فكيفَ يخافون زوالَ الأمانِ ، { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } لأنَّهم لا يتدبَّرُون ولا يتفكَّرُون.
ثُم خوَّفَهم بمثل عذاب الأُمَمِ الخاليةِ ، فقال : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا } ؛ أي كم أهلَكْنا مِن أهلِ قَرْيَةٍ بَطَرَتْهَا معيشَتها ، والبَطَرُ : الطُّغيانُ عند النِّعمةِ ، وَقِيْلَ : معناهُ : بَطَرَتْ في معِيشَتِها. قال عطاءُ : (عَاشُواْ فِي الْبَطْرَةِ ، فَأَكَلُواْ رِزْقَ اللهِ وَعَبَدُواْ الأَصْنَامَ).
وقوله تعالى : { فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً } ؛ أي منازلُهم التي كانوا يسكنُونَها لَم يَسْكُنُهَا أحدٌ إلاّ المسافرونَ ومَارُّوا الطريقِ ينْزِلون ببعضِها يوماً أو ساعةً ثُم يرحَلُون. والمعنى لَمْ تُسْكَنْ مِن بعدِهم إلاَّ سُكوناً قليلاً ، { وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ } ؛ أي لَم نجعَلْ لَهم أحداً بعدَ هلاكِهم في منازِلِهم ، فبقيَتْ خَراباً غيرَ مسكُونةٍ كقولهِ{ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا }[مريم : ٤٠].

(٠/٠)

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا } ؛ معناهُ : وما كان ربُّكَ يَا مُحَمَّدُ مُعَذِّبَ القُرَى الكافرةُ أهلُها حتى يبعثَ في أعظَمِها قريةً رَسُولاً يُنذِرُهم ويقرأ عليهم آياتِنا ، وخصَّ الأعْظَمَ من القُرى ببعثةِ الرَّسُولِ فيها ؛ لأن الرَّسُولَ إنَّما يُبعَثُ إلى الأشرافِ ، وأشرافُ القومِ وملوكُهم يسكنونَ المدائنَ والمواضع التي هي أمُّ ما حولها.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } ؛ أي ما نُهلِكُهم إلاَّ بظُلْمِهم وشِركِهم ، وَقِيْلَ : المرادُ بالقُرَى القرى التي حَوْلَ مكَّة ، والمرادُ بأُمِّها مكَّة سُميت أمُّ القُرْى ؛ لأن الأرضَ دُحِيَتْ من تحتِها.

(٠/٠)

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠)

وقولهُ تعالى : { وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا } ؛ تتمتَّعون بها أيَّامَ حياتِكم ثُم تنقطعُ وتفنى وتنقَضِي ، { وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ } ؛ من الثَّواب والجنة ، { وَأَبْقَى } ؛ وأدومَ لأهلهِ وأفضلَ مما أُعطِيتُمْ في الدُّنيا ، { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } أنَّ الباقي أفضلُ من الفَانِي الذاهب. وَقِيْلَ : { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } خيرَ الأمرَين فتطلبوهُ وشَرَّ الأمرَين فتتركوهُ. قرأ أبو عمرٍو (أفَلاَ يَعْقِلُونَ) بالياء.

(٠/٠)

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١)

وقولهُ تعالى : { أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ؛ استفهامُ يعني التقرب ، أي كيفَ يستوِي حالُ مَن وَعَدْنَاهُ الثوابَ والجنةَ في الآخرةِ فَهُوَ لاَقِيْهِ ، وحالُ من متَّعناهُ بعَرَضِ الدُّنيا ، { ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } ؛ العذابَ.

والمعنى : { أَفَمَن وَعَدْنَاهُ } على إيْمانهِ وطاعته الجنةَ والثوابَ الجزيل { فَهُوَ لاَقِيهِ } أي مُدركُهُ { كَمَن مَّتَّعْنَاهُ } أي كمن هو مُمَتَّعٌ بشيءٍ يَفْنَى ويزول عن قريبٍ { ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } النارَ.

قال قتادةُ : (يَعْنِي الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ ، فَالْمُؤْمِنُ سَمِعَ كِتَابَ اللهِ وَصَدَّقَهُ وَآمَنَ بمَوعُودِ اللهِ فِيْهِ ، وَلَيْسَ كَالْكَافِرِ الَّذِي تَمَتَّعَ بالدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِيْنَ فِي عَذاب اللهِ) ، قال مجاهدُ : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَلِيٍّ وَحَمْزَةَ وَأبي جَهْلٍ) ، وقال السديُّ : (نَزَلَتْ فِي عَمَّار وَالْوَلِيْدِ بْنِ الْمُغِيْرَةِ).

(٠/٠)

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ } ؛ أي يُنادي اللهُ المشركينَ يومَ القيامةِ ، { فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ } ؛ في الدُّنيا أنَّهم كانوا شُرَكَائِي ، والمعنَى : واذْكُرْ يومَ يُنادَى الكفارُ وهو يومُ القيامةِ فيقولُ أيْنَ شُرَكَائِي في قولِكم ، وليس للهِ شريكٌ ، ولكن خرجَ هذا الكلامَ على ما كانوا يلفِظُون بهِ ، فيقولون : هؤلاءِ شركاءُ الله.

(٠/٠)

قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ } ؛ أي الذين حَقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب أو وَجَبَ عليهم العذابُ وهم الرُّؤُوسُ : { رَبَّنَا هَاؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ } ؛ يَعْنُونَ سَلَفَهُمْ وأتبَاعَهم ، { أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا } ؛ أي أضْلَلْنَاهُمْ كما ضَلَلْنَا ، { تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ } ؛ منهم ، وَقِيْلَ : تَبَرَّأنَا بحمْلِنا إليك الضَّلال ، { مَا كَانُواْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ } ما كانوا يعبدُونَنا بإكراهٍ مِن جِهَتِنَا ، وَقِيْلَ : ما كانوا يعبدُوننا بحُجَّة ولا استحقاقٍ.

(٠/٠)

وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤)

وقولهُ تعالى : { وَقِيلَ ادْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ } ؛ أي يقالُ لَهم : لَستُمْ تُسأَلُونَ عن الإغواءِ والغِوَايَةِ ، ولكن ادعُوا آلِهَتَكُمْ حتى يذُودوا عنكم العذابَ ، { فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ } ؛ أي لَم يُجيبُوهم إلى نصرتهم { وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ } ؛ أي رَأوا كلُّهم القادةُ والأتباعُ العذابَ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ } ؛ جوابُ (لَوْ) محذوفٌ تقديرهُ : لو أنَّهم كانوا يَهْتَدُونَ في الدُّنيا لَمَا رَأوُا العذابَ.

(٠/٠)

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ } ؛ أي فأُلبسَتْ عليهم الأجوبةُ يومئذٍ ، ولَم يَدْرُوا ماذا يقولونَ من الفَزَعِ والتَّحَيُّرِ ، { فَهُمْ لاَ يَتَسَآءَلُونَ } ؛ لا يَسْأَلُ بعضُهم بعضاً في تلكَ السَّاعة لردِّ الجواب. وَقِيْلَ : لا يسألُ أحدٌ عن حالِ أحدٍ لانشغال كلِّ واحدٍ منهم بنفسه. وَقِيْلَ : لا يسألُ أحدٌ أحداً أن يَتْرُكَ طاعةً أو يتحمَّلَ عنهُ معصيةً ، ومعنى قولهِ تعالى { فَعَمِيَتْ } أي خَفِيَتْ واشتَبهت عليهم الأنباءُ.

(٠/٠)

فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً } ؛ أي مَن تَابَ من الشِّركِ وآمَنَ وصدَّقَ بتوحيد اللهِ وبمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم { وَعَمِلَ صَالِحاً } أي أدَّى الفرائضَ ، { فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ } ؛ أي مِن النَّاجِينَ الفائزينَ.

(٠/٠)

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ } ؛ وذلكَ أنَّ الوليدَ بن المغيرةِ كان يقولُ : لَولاَ نُزِّلَ هَذا الْقُرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيْمٌ ، يعني نفسَهُ وأبا مسعودٍ الثقفيُّ ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ } مَن يُنَبَّؤُ للرسالةِ والنُّبوةِ ؛ أي فكما أن الخلقَ إليه يخلقُ ما يشاء ، فكذلك الاختيارُ إليهِ في جميع الأمور ، فيختارُ مِمَّنْ خَلَقَ ما يشاءُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ } ؛ ابتداءُ الكلامِ نفيُ الاختيار عن المشركين ، وذلك أنَّهم اختَارُوا الوليدَ بن المغيرةِ من مكَّة وأبُو عُرْوَةَ بن مسعودٍ من الطَّائف ، فقالَ اللهُ { مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ } أي ليسَ لَهم الاختيارُ على اللهِ ، ثُم نَزَّهَ اللهُ نَفْسَهُ فقالَ : { سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } ؛ ومن قرأ (وَنَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) من غيرِ أنْ يَقِفَ على (وَنَخْتَارُ) ، جعلَ (مَا) بمعنى الَّذي ، كأنَّه قال : ونَخْتَارُ الذي لَهم الْخِيَرَةُ فيصنعُ بهم ما صَلُحَ لَهم ، وأنشدَ محمودُ الورَّاقُ : تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ حَاجَةٍ أَرَدْتَ فَإِنَّ اللهَ يَقْضِي وَيُقَدِّرُمَتَى مَا يُرِيدُ ذُو الْعَرْشِ أَمْراً بعَبْدِهِ يُصِبْهُ وَمَا لِلْعَبْدِ مَا يَتَخَيَّرُفَقَدْ يَهْلَكُ الإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ أَمْنُهُ وَيَنْجُو بحَمْدِ اللهِ من حَيْثُ يَحْذرُ

(٠/٠)

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ } ؛ أي ما تَسْتُرُ من الكفرِ والعداوة لله ولرسولهِ ؛ أي يعلمُ ما تُضْمِرُ قلوبُهم من ذلك ، { وَمَا يُعْلِنُونَ } بألسِنَتِهم من الكفرِ والمعاصي.

(٠/٠)

وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ } ؛ يستحقُّ الحمدَ في الدَّارَين ، { وَلَهُ الْحُكْمُ } ؛ أي الفَصْلُ بينَ الخلائقِ ؛ حَكَمَ لأهلِ طاعته بالمغفرةِ ، ولأهلِ معصيته بالشَّقاءِ والوَيْلِ ، { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ؛ أي موضع جَزَائِهِ.

(٠/٠)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْلَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } أي قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّة : أخبرُوني إنْ جعلَ اللهُ عليكم الليلَ دائماً أبَداً إلى يومِ القيامة ، لا نَهار معهُ ، { مَنْ إِلَاهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ } ؛ أي بنَهَارٍ مُضِيءٍ تتصرَّفون فيه وتطلُبون فيه المعيشةَ ، { أَفَلاَ تَسْمَعُونَ } ؛ سَماع قَبُولٍ وتَفَهُّمٍ فتستدِلُّون بذلك على توحيدِ الله.

(٠/٠)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } ؛ أي قُل : أخْبرُوني إنْ جَعَلَ اللهُ عليكم النهارَ دائماً ، { مَنْ إِلَاهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ } ، تستَريحُونَ فيه من الحركةِ ومن النَّصَب ؟ { أَفلاَ تُبْصِرُونَ } ؛ أدِلَّةَ اللهِ تعالى.

(٠/٠)

وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ } ؛ أي ومِن نِعْمَتِهِ عليكم أن خَلَقَ لكم الليلَ والنَّهار لتَستَرِيحوا لَيلاً ، ولتَنصَرِفوا نَهاراً ، والمعنى : { لِتَسْكُنُواْ فِيهِ } أي في اللَّيل ، { وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ } ؛ أي ولِتَلْتَمِسُوا في النهار من فضلِ الله ، { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ؛ الذي أنْعَمَ عليكم بهما.

(٠/٠)

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ } ؛ فقد تقدَّم تفسيرهُ.

(٠/٠)

وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً } ؛ أي وأخرَجْنا من كلِّ أُمَّةٍ رسُولَها الذي يشهدُ عليهم بالتبليغِ وما كان منهم ، { فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ } ؛ أي فقُلْنَا للمَشهُودِ عليهم : { هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ } أي حُجَّتَكُمْ بأنَّ معي شَريكاً ، { فَعَلِمُواْ أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ } ؛ أي أنَّ التوحيدَ للهِ ، { وَضَلَّ عَنْهُمْ } ؛ أي زالَ عنهم وبَطَلَ في الآخرةِ ، { مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } ؛ في الدُّنيا من قولِهم : إنَّ مع اللهِ شريكاً.

(٠/٠)

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ } ؛ قال أكثرُ المفسِّرين : كان قارونُ ابنَ عمِّ موسَى من بني إسرائيلَ ، وكان مِن العلماءِ بالتَّوراةِ. وقال بعضُهم كان ابنَ خَالَتِهِ. وقولهُ تعالى { فَبَغَى

عَلَيْهِمْ } أي بكَثْرَةِ مالِهِ ، والمعنى : أنه تَطَاوَلَ على موسَى وقومه وجاوزَ الحدَّ في التَّكَبُّرِ عليهم. والبَغْيُ في اللغة : طَلَبُ الْعُلُوِّ بغيرِ حَقٍّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ } أي أعطيناهُ من الأموالِ الْمَجموعَةِ ما إنَّ مَفَاتِحَهُ ، قال ابنُ عبَّاس : (أرَادَ بالْمَفَاتِحِ الْخَزَائِنَ ، كَانَتْ خَزَائِنُهُ لِتَثْقَلُ بالْجَمَاعَةِ ذوي الْقُوَّةِ إذا حَمَلُوهَا).

قال بعضُهم : هو جمعُ مِفْتَاحٍ ؛ وهو ما يُفْتَحُ به البابُ ، وهذا قولُ قتادةَ ومجاهد. وَقِيْلَ : مفاتحُ جمع مِفْتَحٍ بكسرِ الميم وهي المفتاحُ ، فجمعهُ مفاتيحُ. قال خَيْثَمَةُ : (كَانَتْ مَفَاتِيْحُ قَارُونَ مِنْ جُلُودٍ ، كُلُّ مِفْتَاحٍ مِثْلُ الإصْبَعِ ، مِفْتَاحُ كُلِّ خِزَانَةٍ عَلَى حِدَةٍ ، فَإذا رَكِبَ حَمَلَ الْمَفَاتِيحَ عَلَى سِتِّيْنَ بَغْلاً). وقال ابنُ عبَّاس : (كَانَ يَحْمِلُ مَفَاتِيْحَهُ أرْبَعُونَ رَجُلاً أقْوَى مَا يَكُونُ مِنَ الرِّجَالِ).

ومعنى قولهِ تعالى { لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ } وإنَّما العُصْبَةُ تَنُوءُ بالمفاتيحِ ؛ أي يثقُلُ في حَملِها ، قِيْلَ : هذا شائعٌ في الكلامِ كما يقالُ : عَرَضَتِ الناقةُ على الحوضِ ، وإنَّما يعرضُ الحوض عليها ، ولا تعرضُ الناقةُ على الماءِ. والكَنْزُ في اللُّغة : اسمٌ لِلمَالِ الذي يُجْمَعُ بعضهُ على بعضٍ ، وإذا أُطْلِقُ أُريدَ به ما يُخَبَّأُ تحتَ الأرضِ.

وقال خَيْثَمَةُ : (وَجَدْتُ فِي الإنْجِيْلِ : أنَّ مَفَاتِيْحَ خَزَائِنِ قَارُونَ وقرُ سِتِّينَ بَغْلاً غُرّاً مُحَجَّلَةً). وَقِيْلَ : إنَّها كانت من جُلودِ الإبلِ ، وكانت من حديدٍ ، فلما ثَقُلَتْ عليه جُعلَتْ من خَشَبٍ ، فلما ثَقُلَتْ عليه جُعلت من جُلودٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ } ؛ قال له قومهُ مِن المؤمنين من بني إسرائيل : لا تَفْرَحْ بالكُنُوزِ والمالِ ولا تَأْشَرْ ولا تَبْطَرْ ، { إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } ؛ أي الأَشِرِيْنَ البَطِرِيْنَ الذين لا يشكُرونَ اللهَ على ما أعطاهم. والفَرَحُ إذا أُطْلِقَ أُريدَ الْمَزْحُ الذي يخرجُ إلى البَطَرِ ، ولذلكَ قالَ : { لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } ، وقال{ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ }[هود : ١٠] ، وأما قولهُ{ فَرِحِينَ بِمَآ آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ }[آل عمران : ١٧٠] فهو بهدايَةِ النَّفسِ وهو حسنٌ جميل ، قال الشاعرُ : وَلَسْتُ بمِفْراحٍ إذا الدَّهْرُ سَرَّنِي وَلاَ جَازِعٍ مِنْ صَرْفِهِ الْمُتَقَلَّب

(٠/٠)

وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَابْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ } ؛ أي واطلُبْ فيما أعطاكَ اللهُ من الأموالِ والنِّعمةِ

الجنَّةَ ، وهو أن يقومَ بشُكْرِ اللهِ فيما أنعمَ اللهُ ويُنْفِقَهُ في رضَا اللهِ ، وقولهُ تعالى : { وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا } ؛ أي ولا تَنْسَ لتعمَلَ لآخرتِكَ ، وقال الحسنُ (أنْ يُقَدِّمَ الْفَضْلَ وَأنْ يُمْسِكَ مَا يُغْنِيْهِ).

وقولهُ : { وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ } ؛ أي أحْسِنْ إلى الفُقراءِ والمساكين ، كَمَا أحْسَنَ اللهُ إلَيْكَ.

وَقِيْلَ : معناهُ : أطِعِ اللهَ واعْبُدْهُ كما أنعمَ عليكَ ، { وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ } ؛ أي ولا تَعْمَلْ في الأرضِ بالمعاصِي ومخالفةِ موسى عليه السلام ، { إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ }.

(٠/٠)

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي } ، قال عطاءُ : (فَكَفَرَ قَارُونُ لَمَّا رَأى أنَّ الْمَالَ حَصَلَ لَهُ بِعِلْمِهِ وَلَمْ يَرَ ذلِكَ مِنْ عَطَاءِ اللهِ). والمعنى : قال قارونُ : إنَّما أعطيتُ هذا المالَ على عِلْمٍ عندي بوجوهِ الاكتساب والتِّجارات لا يعلمُها أحدٌ غيري.

وَقِيْلَ : معناهُ : على عِلْمٍ عندي يعني لفَضْلِ عِلمِي ، فكنتُ أهلاً لِمَا أُعطِيتهُ ، وكان أقرأهم للتوراةِ ، والمعنى : فضَّلَنِي اللهُ عليكم بهذا المالِ ، لفَضْلِي عليكم بالعلمِ ، يعني علمَ الكيمياءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً } ؛ معناهُ : { أَوَلَمْ يَعْلَمْ } هذا المسكينُ الذي قد أعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ وما مَلَكَ من الدُّنيا يعني قارونَ { أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ } بالعذاب { مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ } حين كذبوا رسولَهُ { مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً } { وَأَكْثَرُ جَمْعاً } ؛ للمالِ والْخَدَمِ والْحَشَمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ } ؛ معناهُ : لا يُسْئَلُ الْمُجرمونَ عن ذُنوبهم في الآخرةِ ، فإنَّهم يُعرَفُونَ بسِيمَاهُمْ. قال قتادةُ : (إنَّهُمْ يَدْخُلُونَ النَّارَ بغَيْرِ حِسَابٍ).

وأما قوله تعالى{ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ }[الحجر : ٩٢] فإنَّهم يُسئَلُونَ سُؤالَ تَقْرِيْعٍ وتَوْبِيْخٍ ، كما قال الحسنُ في معنى هذه الآيةِ (أنَّهُمْ لاَ يُسْئَلُونَ سُؤَالَ الاخْتِيَار لِيَعْلَمَ ذلِكَ مَنْ قَبْلَهُمْ ، وَإنَّمَا يُسْئَلُونَ سُؤَالَ التَّوْبِيْخِ وَالْمُنَاقَشَةِ).

(٠/٠)

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ } ؛ قال السديُّ : (خَرَجَ فِي جَوَارٍ بيْضٍ : عَلَى سُرُوجٍ مِنْ ذهَبٍ ؛ عَلَى قِطَفِ أُرْجُوَانٍ ؛ " وَهُنَّ " عَلَى بغَالٍ بيْضٍ عَلَيْهُنَّ ثِيَابٌ حُمْرٌ وَحُلِيٌّ مِن ذهَبٍ). وقال مقاتلُ : (خَرَجَ عَلَى بَغْلَةٍ شَهْبَاءَ عَلَيْهَا سَرْجٌ مِنْ ذهَبٍ عَلَيْهِ الأُرْجُوَانُ ، وَمَعَهُ أَرْبَعَةُ آلاَفِ فَارسٍ عَلَى الْخَيْلِ ، عَلَيْهِمْ وَعَلَى دَوَابهِمُ الأُرْجُوَانُ ، وَمَعَهُ أَلْفُ جَارِيَةٍ عَلَى بغَالٍ شُهْبٍ سُرُوجُهُنَّ الذهَبُ ؛ وَلِبَاسُهُنَّ أُرْجُوَانٌ أحْمَرُ ، عَلَيْهِنَّ الْحِلِيَّ وَالْحُلَلَ).

وقال ابن زَيدٍ : (خَرَجَ فِي سَبْعِيْنَ أَلْفاً عَلَيْهِمُ الْمُعَصْفَرَاتُ). وهذا معنَى الْحَسَنِ في ثِيَابٍ صُفْرٍ. قال الزجَّاجُ : (الأُرْجُوَانُ فِي اللُّغَةِ صَبْغٌ أحْمَرُ ، فرُوي أنه كان عليهم وعلى خُيولِهم الدِّيباجُ الأحمرُ) ، قال : (وكَانَ ذلِكَ أوَّلَ يَوْمٍ رُؤيَتِ الْمُعَصْفَرَاتُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } ؛ أي قال مُؤمِنُوا أهلِ ذلك الزَّمانِ لَمَّا رأوا تلكَ الزينةَ والجمالَ ، { يالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ } ؛ من المالِ ، { إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } ؛ أي ذُو نَصِيبٍ وافرٍ من الدُّنيا ، وكان الذين تَمَنَّوا هذه الأُمْنِيَةَ القومُ الذين يرغَبُون في الدُّنيا ويتمَنَّونَها.

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً } ؛ أي قال العلماءُ العاملونَ الرَّاغبون في الآخرةِ للَّذينَ تَمَنَّوا ما أُوتِيَ قارونُ : (وَيْلَكُمْ! ثَوَابُ الله خَيْرٌ) أي ارْتَدِعُوا عن مقالَتِكم ؛ فإنَّ ثوابَ اللهِ في الآخرة خيرٌ لِمن آمَنَ وعَمِلَ صالحاً ، وقامَ بالفرائضِ خيرٌ مما أُعطِيَ قارونُ في الدُّنيا ، وخيرٌ مِن الدُّنيا وما فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يُلَقَّاهَآ إِلاَّ الصَّابِرُونَ } ؛ أي لاَ يؤتَى الأعمالَ الصالحة ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَمِلَ صَالِحاً }[الفرقان : ٧١] ، وقال الكلبيُّ : (وَلاَ يُعْطَاهَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ الصَّابرونَ عَلَى أمْرِ اللهِ) أي الْجَنَّةَ ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثَوَابُ اللَّهِ }.

(٠/٠)

فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ } ؛ أي فخَسَفْنَا بقارونَ وقَصْرِهِ الذي بَنَاهُ عقوبةً له على كُفرِهِ ، وذلك أنَّهُ لَمَّا أضافَ النِّعَمَ التي أعطاهُ اللهُ إياها إلى فعلِ نفسه وعملهِ ، ولَم يَنْسِبْهَا بتَسهِيل اللهِ ذلكَ عليهِ ؛ صارَ كافراً بنِعَمِ اللهِ.

وَقِيْلَ في سَبَب خسفهِ : أنه لَمَّا حَسَدَ موسى وهارونَ دعَا امرأةً ذاتَ جمالٍ معروفةً بالفُجُور ، وجعلَ لَها ألفَ دِرهَم – وَقِيْلَ : أَلْفَ مِثْقَالٍ – وقالَ لَها : إنِّي أخلِطُكِ بنسائي على أن تَقذِفِي موسَى بنفسكِ غداً إذا حَضَرَ بنُو إسرائيلَ ، وتذْكُري أنه راوَدَكِ عن نفسكِ! فأجابَتْ قارونَ إلى ذلك ، فلمَّا كان مِن الغَدِ ، جَمَعَ قارونُ بني إسرائيلَ ، ثُم أتَى مُوسَى فقال لهُ : إنَّ بني إسرائيلَ قد اجتمَعُوا ينظرونَ خُروجَهم لتَأْمُرَهم وتَنْهَاهُمْ.

فخرجَ مُوسَى فقامَ فيهم يَعِظُهُمْ ويأمُرُهُمْ بالمعروفِ ويناهم عن الْمُنْكَرِ ، قالَ : يَا بَنِي إسْرَائِيْلَ ؛ مَنْ سَرَقَ قَطَعْنَاهُ ، وَمَنِ افْتَرَى جَلَدْنَاهُ ثَمَانِيْنَ ، وَمَنْ زَنَى وَلَيْسَتْ لَهُ امْرَأَةٌ جَلَدْنَاهُ مِائَةً ، وَمَنْ زَنَى وَلَهُ امْرَأَةٌ رَجَمْنَاهُ حَتَّى يَمُوتَ. قال قارونُ : وإنْ كُنْتَ أنْتَ؟! قالَ : وإنْ كُنْتُ أنَا. قال : فإنَّ بني إسرائيلَ يَزعُمُونَ أنَّكَ فَجَرْتَ بفُلانَةٍ! فقال مُوسَى : ادْعُوهَا ، فَدَعَوْهَا وقد ألْهَمَها اللهُ التوبةَ والتوفيقَ ، فقالت في نفسِها : لإنْ أُحْدِثَ الْيَوْمَ تَوْبَةً خَيْرٌ مِنْ أنْ يُؤْذى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم.

فجَاءوا بها وقد عَقَدوا مَجلِساً استَحْضَرَ فيه قارونُ الخاصَّ والعامَّ ، فقال قارونُ للمرأةِ : ما تَقُولِيْنَ ؟ قالت : يَا وَيْلاَهُ! قَدْ عَمِلْتُ كُلَّ فَاحِشَةٍ ، وما بَقِيَ إلاَّ أنْ أفْتَرِي على نَبيِّ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وأنَا أبْرَأُ إلى اللهِ مِن ذلكَ.

ثُم أخْرَجَتْ خَريطَتين مَملُوءَتين دَرَاهِمَ وعليهما خاتَمُ قارونَ ، فقالَتْ : يا أيُّها الْمَلأُ ؛ إنَّ قارونَ أعطانِي هَاتَين الخريطَتين على أنْ آتِي جماعتَكم فأَزْعُمَ أنَّ موسى رَاودَنِي عن نفسِي ، ومَعَاذ اللهِ أنْ افْتَرِيَ على نبيِّ الله ، وأنا أبْرَأُ إلى اللهِ مِن ذلك وهذهِ دراهِمهُ وعليها خاتَمهُ.

فعَرَفَ بنُو إسرائيلَ خاتَم قارونَ ، فَافْتُضِحَ قارونُ بين أولئِكَ القومِ ، وغَضِبَ مُوسَى عليه السلام فَخَرَّ ساجداً يَبْكِي وهو يقولُ : اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ رسُولَكَ فَاغْضَبْ لِي.

فأوحَى اللهُ إليه أنِّي قد أمَرْتُ الأرضَ تُطِيعُكَ فَمُرْهَا بما شِئْتَ ، فقال مُوسَى عليه السلام : يا أرضُ خُذِيْهِ ، فأخذتْهُ إلى كَعْبِهِ ، ثُم قَالَ : يا أرضُ خُذِيهِ ، فأخذتهُ إلى رُكَبتيهِ ، فَنَاشَدَهُ الرَّحِمَ ، فقالَ : يا أرضُ خُذِيهِ ، فأخذتْهُ حتى غَيَّبَتْ حِقْوَتَهُ ، فتضرَّعَ إلى مُوسَى وناشدَهُ الرَّحِمَ ، فلَمْ يسمَعْ تَضرُّعَهُ ، فقالَ : يا أرضُ خُذِيهِ ، فأخذْتْهُ حتى غَيَّبَتْهُ.

فرُوي أنهُ استغاثَ بموسَى وناشدَهُ سبعينَ مرَّة ، فلَمْ يلتفِتْ موسَى إلى ذلكَ ، فأوحَى اللهُ إلى موسى : ما

أفَظَّكَ وأغلَظَ قلبَكَ! استغاثَ بكَ قارونُ سبعين مرَّةً فلم ترحَمْهُ ولَم تُغِثْهُ ، وعِزَّتي وجَلالِي لوِ استغاثَ بي لأغثتهُ ، ولو دعانِي لوجدَنِي قريباً مُجيباً.

(٠/٠)

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ } ؛ أي أصبحَ الذين تَمَنَّوا منْزِلتَهُ ومالَهُ بالأمسِ حين رأوهُ في زينتهِ يندَمُون على ذلك التَّمَنِّي ، يقول بعضُهم لبعضٍ بعد ما خُسِفَ به (وَيْ) هذه كلمةُ تَنْبيْهٍ ومعناها : أمَا تَرَوْنَ؟.
قال مجاهدُ : (وَسَبيْلُهَا سَبيْلُ : أمَا تَعْلَمُ) وَيُحْكَى أنَّ امْرَأةً مِنَ الْعَرَب قَالَ لَهَا زَوْجُهَا : أيْنَ أبُوكِ ، قَالَتْ : لَهُ وَيْكَأَنَّهُ وَرَاءَ هَذا الْبَيْتِ ، يعني أما ترَى أنه رواءَ هذا البيتِ.
وذهبَ بعض النَّحوِيِّين إلى أنَّ قولَ الرجُل : وَيْكَأَنَّهُ ، بمنْزِلة : وَيْلَكَ إعْلَمْ. وقال الخليلُ ويونسُ : (وَيْ مَفْصُولَةٌ مِنْ كَأنَّ ، وَ(وَيْ) كلمةُ تَنَدُّمٍ وَتَنْبيْهٍ ، وَ(كَأنَّ) فِي هَذا الْمَوْضِعِ بمَعْنَى الظَّنِّ وَالْعِلْمِ) كأنَّهُم لَمَّا رأوا الخسفَ تكلَّمُوا على قدر عِلمِهم ، وقالوا : كأنَّ اللهُ يبسطُ الرِّزقَ لِمن يشاءُ لا لكرامتهِ عليه ، ويضيِّقُ على مَن يشاءُ لا لِهوانهِ عليه.
وقولهُ تعالى : { لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا } ؛ أي لَولاَ أن مَنَّ اللهُ علينا بالعافيةِ والرَّحمةِ والإيْمانِ لَخُسِفَ بنا. وقرأ يعقوبُ وحفص : (لَخَسَفَ) بفتح الخاءِ والسِّين ؛ أي لَخَسَفَ اللهُ بنا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } ؛ أي أمَا ترَى أنه لاَ يُسْعَدُ من كَفَرَ باللهِ.

(٠/٠)

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً } ؛ المرادُ بالدَّار الْجَنَّةُ ، { نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً } على خَلْقِي { فِي الأَرْضِ } ولَم يتكَبَّروا كما تَكَبَّرَ قارونُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ فَسَاداً } أي ولا دُعاءً إلى عبادةِ غيرِ الله. وَقِيْلَ : ولا فَسَاداً ولا عمَلاً بالمعاصِي. وَقِيْلَ : هو أخذُ المالِ بغيرِ الحقِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } ؛ أي العاقبةُ الحميدة لِمَنِ اتَّقَى عقابَ اللهِ بأداء فرائضهِ واجتناب معاصيهِ. وَقِيْلَ : الذين يَتَّقُونَ الكفرَ والعُلُوَّ والفسادَ.

وعن كعبٍ رضي الله عنه أنه قال : " يُحْشَرُ الْمُتَكَبرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالذرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، يَسْلُكُونَ فِي النَّار وَيُسْقَوْنَ مِنْ طِيْنَةِ الْخَبَالِ " قِيْلَ : وَمَا طِيْنَةُ الْخَبَالِ ؟ قَالَ : " عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ " والمرادُ بالتَّكَبُّرِ : أنْ يكون التكبُّرُ لأمرٍ يرجعُ إلى الدُّنيا ، فإمَّا يكون مِن ذلك لإزالةِ المنكَرِ وإقامةِ حَقٍّ من حقوقِ الله ، فلا يكونُ ذلكَ من التَّكَبُّرِ في شيءٍ ، وإنَّما هو تَمَسُّكٌ بالدِّينِ.

(٠/٠)

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ ، { وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ أي ومَن جاءَ بالسَّيئَةِ فلا يُزاد في عقوبتهِ أكثرَ مِما يستحقُّهُ. والمعنى : أنَّ الذين أشْرَكُوا يُجْزَوْنَ بما كانوا يعملونَ من الشِّركِ وجزاؤُهم النارُ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ } ؛ معناهُ : إنَّ الذي فَرَضَ عليك العملَ بالقُرْآنِ لرَادُّكَ إلى بَلَدِكَ يعني مكَّة ، فإنَّ مَعَادَ الرجُلِ بَلَدُهُ. وَقِيْلَ : معناهُ : (إنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) أي أنْزَلَ عليكَ القُرْآنَ. وقال الزجَّاجُ : (فَرَضَ عَلَيْكَ الْعَمَلَ بمَا يُوجِبُهُ الْقُرْآنُ). تقديرُ الكلامِ : فَرَضَ عليكَ أحكَامَ القُرْآنِ أو فرائضَ القُرْآنِ { لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ } يعني مكَّة.

قال مقاتلُ : " خَرَجَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلَى الْغَار لَيْلاً ، ثُمَّ هَاجَرَ مِنْ وَجْهِهِ ذلِكَ إلَى الْمَدِيْنَةِ ، فَسَافَرَ فِي غَيْرِ طَرِيْقٍ مَخَافَةَ الطَّلَب ، فَلَمَّا أمِنَ رَجَعَ إلَى الطَّرِيْقِ ، فَنَزَلَ بالْجُحْفَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِيْنَةَ ،

وَعَرَفَ الطَّرِيْقَ إِلَى مَكَّةَ فَاشْتَاقَ إِلَيْهَا ، وَذَكَرَ مَوْلِدَهُ وَمَوْلِدَ آبَائِهِ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيْلُ فَقَالَ لَهُ : أَتَشْتَاقُ إِلَى بَلَدِكَ وَمَوْلِدِكَ ؟ قَالَ : " نَعَمْ " قَالَ جِبْرِيْلُ : فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ { إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ } يَعْنِي إِلَى مَكَّةَ ظَاهِراً عَلَيْهَا " ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ بِالْجُحْفَةِ ، فَلَيْسَتْ بِمَكِّيَّةٍ وَلاَ مَدَنِيَّةٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } هذا جوابُ كُفار مكَّة لَمَّا قالوا للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : إنَّكَ في ضلالٍ مُبين! يعني المشركينَ. والمعنى : إنَّ الله قد عَلِمَ أنِّي جئتُ بالْهُدَى وإنَّكم لَفِي ضلالٍ مُبين.

(٠/٠)

وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ } معناهُ : ما كنتَ يا مُحَمَّدُ تَرْجُو أنْ يُوحَى إليكَ القُرْآنُ وأنك تكونُ نَبيّاً تتلُو على أهلِ مكَّة قَصَصَ الأوَّلين ، إلاَّ أنَّ ربَّكَ رحِمَكَ وأرادَ بك الخيرَ ، فأوحَى إليك الكتابَ وأكرمَكَ بالنبوَّة نعمةً منهُ عليكَ ، { فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً } ؛ أي عَوْناً { لِّلْكَافِرِينَ } ؛ على دِينهم ، وذلك حين دَعَوْهُ إلى دِين آبائهِ فذكَّرَهُ اللهُ النعمةَ. ونَهاهُ عن مُظاهرَتِهم على ما كانوا عليه وأمَرَهُ بالتَّحذُر منهم.

(٠/٠)

وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ } ؛ أي لا يَصْرِفَنَّكَ عن العملِ بآيات الله بعدَ إذْ أُنْزِلَتْ إليكَ ، { وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ } ؛ أي إلى طاعتهِ ، { وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَالْمُرَادُ بِهِ أَهْلُ دِيْنِهِ) أي لا تُظاهِرُوا الكفَّارَ ولا توافِقُوهم.

(٠/٠)

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـاهاً آخَرَ } ؛ أي لا تَعْبُدُ أحَداً سِوَى اللهِ ولا تَدْعُ الْخَلْقَ إلى أحدٍ دون اللهِ ، وقولهُ تعالى : { لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ } ؛ لا معبودَ سِوَاهُ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ } ؛ أي إلاَّ هو. وانتصبَ قولهُ (وَجْهَهُ) على الاستثناءِ كأنه قالَ : إلاّ إيَّاهُ ، وقال عطاءُ : (مَعْنَاهُ : كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ مَا أُرِيْدَ بِهِ وَجْهَهُ ، وَكُلُّ عَمَلٍ لِغَيْرِهِ فَهُوَ هَالِكٌ إلاَّ مَا كَانَ لَهُ).

وقولهُ تعالى : { لَهُ الْحُكْمُ } ؛ أي الْفَصْلُ بين الخلائقِ دونَ غيرِهِ ، { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ؛ في الآخرةِ فيجزِيَكم بأعمالِكم ، واللهُ أعلَمُ بالصَّواب وإليه المرجِعُ والْمَآبُ.

(٠/٠)

الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)

{ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُ (ألم). فمَن جعلَ هذه الحروفَ التي في أوائلِ السُّورة قَسَماً ، احتملَ أن يكون جوابُ القَسَمِ في قولهِ : { وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ }[العنكبوت : ٣] ؛ واحتملَ أن يكون{ فَلَيَعْلَمَنَّ }[العنكبوت : ٣].

وقولهُ تعالى : { أَحَسِبَ النَّاسُ } لفظةُ استخبارٍ ، ومعناهُ التوبيخُ والتقرير ، كأنه قالَ : أظَنُّوا أن نقنَعَ منهم بأنْ يقولُوا آمَنَّا فقط ولا يُمتَحَنُونَ بالأوامرِ والنَّواهي والتَّكليفِ ، ولا يُختَبَرُونَ بما يعلم أنه صِدْقُ إيْمانِهم.

قال الحسنُ رضي الله عنه : (سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ أَنَّهُ لَمَّا أُصِيْبَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ أُحُدٍ وَكَانَتِ الْكَرَّةُ عَلَيْهِمْ ، عَيَّرَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بذلِكَ ، فَشُقَّ ذلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). قال السديُّ وقتادة ومجاهدُ : (مَعْنَاهُ : أحَسِبَ النَّاسُ أنْ يُتْرَكُواْ أنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ) فِي أمْوَالِهِمْ وَأنْفُسِهِمْ بالْقَتْلِ وَالتَّعْذِيْب).

وقال مقاتلُ : (" نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي مَهْجَعِ بْنِ عَبْدِاللهِ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب رضي الله عنه وَكَانَ أوَّلَ قَتِيْلٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ يَوْمَ بَدْرٍ ، رَمَاهُ عَامِرُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ بسَهْمٍ فَقَتَلَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ : " سَيِّدُ الشّ ُ هَدَاءِ مَهْجَعُ ، وَهُوَ أوَّلُ مَنْ يُدْعَى إلى بَاب الْجَنَّةِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ " فَجَزِعَ عَلَيْهِ أبَوَاهُ وَامْرَأتَهُ " ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةَ وَأخْبَرَ أنَّهُ لاَ بُدَّ لَهُمْ مِنَ الْبَلاَءِ وَالْمَشَقَّةِ فِي ذاتِ اللهِ).

(٠/٠)

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } ؛ فيه تَسْلِيَةٌ للمؤمنينَ ، معناهُ : ولقد امْتَحَنَّا الذين مِن قَبْلِهم ، { فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الصادقَ بوقوعِ صِدْقِهِ منه بالصَّبرِ على ما يُؤْمَرُ به ، والكاذبَ بوقُوعِ كَذِبِ منهُ وَالْجَزَعِ والمخالفةِ في القِتَالِ الذي يُؤمَرُ به ، فاللهُ تعالى قد عَلِمَ الصادقَ مِن الكاذب قَبْلَ أنْ يخلُقَهم ، ولكن القصدَ من الآية قصدُ وُقُوعِ العلمِ بما يُجازَى عليه ؛ لأنَّ عِلْمَ الشَّهادةِ هو الذي يجبُ به الجزاء ، فأما عِلْمُ الغيب قَبْلَ وقُوعهِ فلا يحلُّ به الجزاءُ.

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه : (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْهُمْ إبْرَاهِيْمُ الْخَلِيلُ عليه السلام ابْتُلِيَ بالنَّمْرُودِ ، وَمِنْهُمْ قَوْمٌ بَعْدَهُ نُشِرُواْ بالْمَنَاشِيْرِ عَلَى دِيْنِ اللهِ فَلَمْ يَرْجِعُواْ عَنْهُ). وقال بعضُهم : يعني بَنِي إسرائيلَ ابْتُلُوا بفرعونَ فكان يسُومُهم سوءَ العذاب.

(٠/٠)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤)

قولهُ : { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ } معناهُ : أظَنُّوا { الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ } يعني الشِّركَ ، قال ابنُ عبَّاس : (يَعْنِي الْوَلِيْدَ بْنَ الْمُغِيْرَةِ وَأبَا جَهْلٍ وَالأَسْوَدَ وَالْعَاصَ بْنَ هِشَامٍ وَغَيْرَهُمْ). { أَن يَسْبِقُونَا } أي أن يَفُوتُونَا ويُعجِزُونا { سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ } أي بئْسَ ما حَكَمُوا لأنفُسِهم حين ظَنُّوا ذلك.

وَقِيْلَ : إنَّ هذه الآية نزلت في عُتْبَةَ بنِ رَبِيْعَةَ وأخيهِ شَيْبَةَ ، وفي الوليدِ بن عُتبةَ وغير الذين بَارَزُوا عَلِيّاً وحمزةَ وعُبيدةَ بن الحارثِ يومَ بَدْرٍ ، فقُتِلُوا على أيديهم يومئذٍ.

(٠/٠)

مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ اللَّهِ } ؛ أي مَن كان يطمعُ في الثَّواب ويخشَى العقابَ ويخافُ الحسابَ ، فَلْيُبَادِرْ إلى طاعةِ الله قبلَ الموتِ ، { فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ } ؛ أي فإن أجلَ الموت لآتٍ لِمن يرجُو ، ولِمن لا يرجو ، وإنَّ ثوابَ العملِ الصالح لقريبٌ { وَهُوَ السَّمِيعُ } ؛ لِمقالَةِ الكُفَّار والمؤمنين ، { الْعَلِيمُ } ؛ بما يستحقُّه كلُّ واحد منهم وَقِيْلَ : إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيةُ قَالَ : " يَا عَلِيَّ ؛ يَا فَاطِمَةَ : إنَّ اللهَ قَدْ أنْزَلَ : مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإنَّ أجَلَ اللهِ لآتٍ ، وَإنَّ حَقِيْقَةَ رَجَاءِ لِقَاءِ اللهِ أنْ يَسْتَعِدَّ الإنْسَانُ لأَجَلِ اللهِ إذا كَانَ آتِياً باتِّبَاعِ طَاعَتِهِ وَاجْتِنَاب مَعَاصِيهِ ".

(٠/٠)

وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ } ؛ أي مَن يعملُ الخيرَ فإنَّما يعملُ لنفسهِ ، { إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } ؛ أي عن أعمَالِهم وعبادتِهم ، { وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ } ؛ بالإيْمانِ والتوبةِ ، ومعنى { لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ } أي لنبطلنَّها حتى كأنَّها لَم تُعْمَلْ ، { وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ أي نَجزيهم بأحْسَنِ أعمالِهم وهي الطاعةُ ، ولا نَجزيهم بمساوئ أعمَالِهم.

(٠/٠)

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَآ } ؛ نزلت هذه الآيةُ في سعدِ بن أبي وقَّاص ، وكان بارّاً بأُمه ، فلما أسْلَمَ قَالَتْ لَهُ أُمُّهُ حُمْنَةُ بنتُ أبي سُفيانَ بنِ أُميَّة : يَا سَعْدَ ؛ بَلَغَنِي أنَّكَ قَدْ صَبَأْتَ! فَوَاللهِ لاَ يُظِلُّنِي سَقْفُ بَيْتٍ ، وَإنَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى تَكْفُرَ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

فَأَبَى سَعْدٌ عَلَيْهَا ، وَبَقِيَتْ هِيَ لاَ تَأْكُلُ وَلاَ تَشْرَبُ وَلاَ تَسْتَظِلُّ بشَيْءٍ ، فَمَكَثَتْ يَوْماً وَلَيْلَةً لاَ تَأْكُلُ ، فَأَصْبَحَتْ قَدْ جَهِدَتْ ثُمَّ مَكَثَتْ يَوْماً وَلَيْلَةً أُخْرَى لاَ تَأْكُلُ وَقَالَتْ : يَا سَعْدَ لَتَدَعَنَّ دِيْنِكَ هَذِهِ أَوْ لاَ آكُلَ وَلاَ أَشْرَبَ حَتَّى أَمُوتَ فَتُعَيَّرُ بي ، فَيُقَالُ : يَا قَاتِلَ أُمِّهِ! فَقَالَ سَعْدٌ : يَا أُمَّاهُ لَوْ كَانَتْ لَكِ مِائَةُ نَفْسٍ فَخَرَجَتْ نَفْساً نَفْساً مَا تَرَكْتُ دِيْنِي هَذا لِشَيْءٍ ، فَإِنْ شِئْتِ أَنْ تَأْكُلِي ، وَإِنْ شِئْتِ فَلاَ تَأْكُلِي. فَلَمَّا رَأَتْ ذلِكَ أَكَلَتْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

ومعناها : ووصَّينا الإنسانَ بالبرِّ والإحسانِ إلى وَالِدَيهِ وقُلنا له : وإنْ طَلَبَا منكَ أن تُشْرِكَ بي ما ليسَ لك بهِ عِلْمٌ فلا تُطِعْهُمَا ، فإنَّ طاعتَهما في الإشْرَاكِ والمعصيةِ " ليس " من باب الحسن ، بل هي قبيحةٌ.

قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ".

وقولهُ تعالى : { إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ } ؛ مُنْقَلَبُكُمْ في الآخرةِ ، { فَأُنَبِّئُكُم } ؛ فأُخبرُكم ، { بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ في الدُّنيا من الخيرِ والشرِّ والبرِّ والعُقوقِ.

واختلفَ النُّحاةُ في نصب قولهِ { حُسْناً } ، فقال البصريُّون : بنَزْعِ الخافضِ ؛ تقديرهُ : ووصَّينا الإنسانَ بالْحُسْنِ ، كما يقالُ : وَصَّيتهِ خَيْراً ؛ أي بخَيْرٍ ، وقال الكوفيُّون : ووصَّينا الإنسانَ أن يفعلَ حُسناً ، فحذفَهُ لدلالةِ الكلام عليه. وَقِيْلَ : هو مثلُ قولهِ{ فَطَفِقَ مَسْحاً }[ص : ٣٣] أي يمَسْحُ مَسْحاً. وَقِيْلَ : معناهُ : أَلْزَمْنَاهُ حُسناً. وقرأ أبو رجَاءٍ : (حَسَناً) بفتح الحاء والسين ، وفي مُصحَفِ أُبَيٍّ : (إحْسَاناً).

(٠/٠)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ } أي في زُمرَةِ الأنبياءِ والأولياء ، وَقِيْلَ : خواصِّ أصحاب مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

(٠/٠)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)

قولهُ : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يِقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ } ؛ رُوي أنَّ هذه الآيةَ نزلت في عيَّاشِ بنِ أبي ربيعةَ ، كَانَ أسْلَمَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَكَانَ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أُمِّهِ وَأخَوَيْهِ لأُمِّهِ وَهُمَا أبُو جَهْلٍ وَالْحَارِثِ.

فَخَرَجَ عَيَّاشُ بَعْدَ مَا أعْلَنَ إسْلاَمَهُ هَارباً إلَى الْمَدِيْنَةِ قَبْلَ هِجْرَةِ النَّبيِّ صلى الله عيله وسلم ، وَبَلَغَ أُمَّهُ الْخَبَرَ فَجَزِعَتْ جَزَعاً شَدِيْداً ، وَامْتَنَعَتْ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَاب ، فَخَرَجَ أخَوَاهُ وَقَوْمَهُ فِي طَلَبِهِ ، فَأَخَذُوهُ وَقَيَّدُوهُ ، وَحَلَفَتْ أُمُّهُ أسْمَاءُ بنْتُ مَخْرَمِ بْنِ أبي جَنْدَلٍ باللهِ : لاَ أحُلُّكَ مِنْ وثَاقِكَ حَتَّى تَكْفُرَ بمُحَمَّدٍ ، ثُمَّ أقْبَلَتْ تَجْلِدُهُ بالسِّيَاطِ وَتُعَذِّبُهُ حَتَّى كَفَرَ جَزَعاً مِنَ الضَّرْب ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

قال مقاتلُ والكلبيُّ : (لَمَّا هَاجَرَ عَيَّاشُ إلَى الْمَدِيْنَةِ خَوْفاً مِنْ أُمِّهِ وَأخَوَيْهِ ، حَلَفَتْ أُمُّهُ أسْمَاءُ بنْتُ مَخْرَمِ بْنِ أبي جَنْدَلٍ ألاَّ تَأْكُلَ وَلاَ تَشْرَبَ وَلاَ تَغْسِلَ رَأسَهَا وَلاَ تَدْخُلَ بَيْتاً حَتَّى يَرْجِعَ إلَيْهَا ابْنُهَا ، فَلَمَّا رَأى ابْنَاهَا أبُو جَهْلٍ وَالْحَارِثُ ابْنَا هِشَامٍ – وَهُمَا أخَوَا عَيَّاشٍ لأُمِّهِ – جَزَعَهَا ، فرَكِبَا فِي طَلَبِهِ حَتَّى أتَيَا الْمَدِيْنَةَ فَلَقِيَاهُ.

فَقَالَ لَهُ أبُو جَهْلٍ : قَدْ عَلِمْتَ أنَّكَ أحَبَّ إلَى أُمِّكَ مِنْ جَمِيْعِ أوْلاَدِهَا ، وَكُنْتَ بَارّاً بهَا ، وَقَدْ حَلَفَتْ لاَ تَأْكُلُ وَلاَ تَشْرَبُ وَلاَ تَدْخُلُ كِنّاً حَتَّى تَرْجِعَ إلَيْهَا ، وَأنْتَ تَزْعُمُ أنَّ فِي دِيْنِكَ برَّ الْوَالِدَيْنِ ، فَارْجِعْ إلَيْهَا فَإنَّ رَبَّكَ الَّذِي تَعْبُدُهُ بالْمَدِيْنَةِ هُوَ رَبُّكَ بمَكَّةَ فَاعْبُدْهُ بهَا. فَلَمْ يَزَالاَ بهِ حَتَّى أخَذ عَلَيْهِمَا الْمَوَاثِيْقَ أنْ لاَ يُحَرِّكَانِهِ وَلاَ يَصْرِفَانِهِ عَنْ دِيْنِهِ ، فَأَعْطَيَاهُ الْمَوَاثِيْقَ فَتبعَهُمَا ، فَلَمَّا خَرَجُواْ بهِ مِنَ الْمَدِيْنَةِ أخَذاهُ وَأوْثَقَاهُ وَضَرَبَهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ حَتَّى تَبَرَّأ مِنْ دِيْنِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم جَزَعاً مِنَ الضَّرْب.

وَكَانَ الْحَارِثُ أشَدَّهُمَا عَلَيْهِ وَأسْوَأهُمَا قَوْلاً فِيهِ ، فَحَلَفَ عَيَّاشُ باللهِ لَئِنْ قَدِرَ عَلَيْهِ لَيَضْرِبَنَّ عُنُقَهُ ، فَلَمَّا رَجَعُواْ إلَى مَكَّةَ مَكَثُواْ حِيْناً ، ثُمَّ هَاجَرَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وَالْمُؤْمِنُونَ إلَى الْمَدِيْنَةِ ، فَهَاجَرَ عَيَّاشُ وَأسْلَمَ وَحَسُنَ إسْلاَمُهُ.

ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعَالَى وَفَّقَ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ فَهَاجَرَ إلَى الْمَدِيْنَةِ وَبَايَعَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم عَلَى الإسْلاَمِ ، وَلَمْ يَحْضُرْ عَيَّاشُ ، فلَقِيَهُ عَيَّاشُ يَوْماً بظَهْرِ قِبَاء وَلَمْ يَعْلَمْ بإسْلاَمِهِ ، فَضَرَبَ عُنُقَهُ يَظُنُّ أنَّهُ كَافِرٌ ، فَقِيْلَ لَهُ : إنَّهُ قَدْ أسْلَمَ ، فَنَدِمَ وَاسْتَرْجَعَ وَبَكَى ، ثُمَّ أتَى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرَهُ بذلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً }[النساء : ٩٢].

ومعنَى الآيةِ : ومِن الناسِ مَن يقولُ آمَنَّا باللهِ ، فإذا عُذِّبَ في طاعةِ اللهِ جَعَلَ تعذيبَ الناسِ كتعذيب الله ، فأطاعَ الناسَ خوفاً منهم ، كما يطيعُ اللهَ مَن خافَ عذابَهُ.

قولهُ : { وَلَئِنْ جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ } ؛ أي إذا جاء فَتْحٌ مِن ربكَ { لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ } وهذه صفةُ المنافقين ، يقولُ اللهُ تعالَى : { أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ } ؛ أي بما في قلُوب الْخَلْقِ من الطُّمأنينَةِ بالإيْمانِ والانشراحِ بالكُفرِ ، { وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ أي لِيَجْزِيَ اللهُ المؤمنين ، { وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ } ؛ ولَيُمَيِّزَنَّ المنافقينَ.

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢)

قولهُ : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ اتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا } ؛ معناهُ : قال كفارُ مكَّة أبو جهلٍ وغيرهُ ، لِمَنْ آمَنَ مِن قريشٍ ، واتَّبعَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم : إتَّبعُوا دِينَنَا وَمِلَّةَ آبَائِنَا ، { وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ } ، ونحنُ الكفلاءُ بكُلِّ تَبعَةٍ تصيبُكم من اللهِ في ذلك ، ونحملُ عنكم خطَايَاكم ، إنْ كان عليكم فيهِ إثْمٌ ووزْرٌ ، فنحنُ نحملهُ عنكم. قال الفرَّاء : (قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلْنَحْمِلْ } لَفْظُهُ لَفْظُ الأَمْرِ ، وَمَعْنَاهُ : الْجَزَاءُ ؛ أيْ إن اتَّبَعْتُمْ سَبِيْلَنَا حَمَلْنَا خَطَايَاكُمْ). قولهُ : { وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } ؛ فيما ضَمِنوا من حَمل خطاياهم ، ولا يحفظُونَ العذابَ عنهم.

(٠/٠)

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)

قولهُ : { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ } ؛ معناهُ : أوْزَاراً مع أوزَارهم ، وذلك أنَّهم يُعاقَبون على كُفرِهم وعلى دُعاءِ غيرِهم إلى الكفرِ ، وهذا موافقٌ لقولهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لاَ يَنْقُصُ مِنْ أوْزَارِهِمْ شَيْءٌ ".
ومعنى الآيةِ : وَلْيَحْمِلُنَّ أوزَارَهُم التي حَملُوها ، وأوْزَاراً مع أوزَارهم لقولِهم للمؤمنينَ : (اتَّبعُوا سبيلَنا " وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ) وهم كاذبون فيما قالوا لهم ووعدوهم " ، وليَحْمِلُوا أوزَارَهم كاملةً يومَ القيامةِ.
وقولهُ : { وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } ؛ أرادَ به سؤالَ تَوبيخٍ لا سؤالَ استعلامٍ ، يقالُ لَهم : هل كانَ عندَكم من الغيب شيءٌ ؟ ومِن أين قُلْتُمْ إنَّكم تحمِلُوا أوزَارَ غيرِكم؟.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤)

قولهُ : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً } ؛ أي مَكَثَ بين أظهرهم يدعُوهم إلى الإيْمَانِ ألفَ سَنَةٍ إلاّ خَمسين عاماً ، فلم يُجِبْهُ إلى الإيْمانِ منهم إلاَّ قليلٌ ، { فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ } ، فأهلَكَ اللهُ المكذِّبين بالطُّوفانِ وهو الغرقُ (وَهُمُ الظَّالِمُونَ) أي مُشرِكون.
وفي الحديث : " أنَّ نُوحاً عليه السلام أرْسَلَ إلَيْهِمْ بَعَدَ مَا أتَى عَلَيْهِ مِائَتَانِ وَخَمْسُونَ سَنَةً ، وَعَاشَ بَعْدَ الطُّوفَانِ مِائَتَيْنِ وَخَمْسِيْنَ سَنَةً " وسُمي الغرقُ طُوفَاناً لأنَّ الماءَ في ذلك اليومِ طَافَ في جميعِ الأرض.

(٠/٠)

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥)

قولهُ : { فَأَنْجَيْنَاهُ وأَصْحَابَ السَّفِينَةِ } ؛ أي أنْجَيْنَا نُوحاً من الغَرَقِ ومَن كان معهُ من المؤمنين في السَّفينة ، { وَجَعَلْنَاهَآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ } ؛ أي جعلنا السَّفينةَ عِبْرَةً لمن بعدَهم من الناسِ إنْ عَصَوا رسولَهم فَعَلْنَا بهم مثلَ ذلك.

(٠/٠)

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦)

قوله : { وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاتَّقُوهُ } ؛ انتصبَ (إبْرَاهِيْمَ) عَطفاً على نُوحٍ ، معناهُ : وأرسَلنا إبراهيمَ أيضاً ، { إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُواْ اللَّهَ } أي وَحِّدُوا اللهَ وأطيعوهُ واخشَوهُ ، { ذالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ } ؛ أي عبادةُ اللهِ خيرٌ لكم من عبادةِ الأوثان ، { إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } ؛ ذلكَ.

(٠/٠)

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧)

قَوله : { إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً } ؛ أي أصْنَاماً تتَّخِذونَها من الحجارةِ والخشب ، { وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً } ؛ أي وتَخْتَرِعُونَ على الله كَذِباً في قولِكم : إنَّها آلِهةٌ. ويجوزُ أن يكون معنى { وَتَخْلُقُونَ } أي تَنْحَتُونَ أصْنَاماً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً } أي إنَّ الذين تعبدُونَ من الأصنامِ لاَ يَقْدِرُونَ أنْ يرزقُوكم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَابْتَغُواْ عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُواْ لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ؛ أي اطْلُبُوا الرِّزقَ مِنِّي ، فأنا القادرُ على ذلكَ ، { وَاعْبُدُوهُ } أي اعبدُوا مَن يَملِكُ أرزاقَكم ، { وَاشْكُرُواْ لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } في الآخرةِ فيَجزِيَكم بأعمالِكم.

(٠/٠)

وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ } ؛ يعني كذبُوا أنبياءَهم كما كذبتُم نبيَّكُم فأهلَكَهم اللهُ تعالى ، { وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ } ؛ أي مَا عليهِ إلاّ تبليغُ الرسالةِ عن اللهِ بلُغَةِ الَّذين أرسَلَهم إليهم.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } ؛ أي أوَلَمْ يعلَمْ ويعتبرْ أهلُ مكَّة كيفَ يُبدِئُ اللهُ الْخَلْقَ في أرحامِ الأُمَّهاتِ مِن النُّطفةِ ثُم مِن العلقةِ ثُم مِن الْمُضْغَةِ إلى تَمامِ الخلقِ ، ثُم يُميتُهُ ثُم يعيدهُ بعدَ الموتِ للبعثِ خَلْقاً جَديداً. وقولهُ تعالى : { إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } ؛ أي إنَّ بَدْأ الخلقِ وإعادتهِ هَيِّنٌ على اللهِ ، فإنه القادرُ على الاختراعِ من غير ابتداء على مثالٍ ، قادرٌ على الإعادةِ ، وكانوا يُقِرُّونَ بأنَّ اللهَ هو الذي خلَقَهم.

(٠/٠)

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ } ؛ أي سَافِروا في الأرضِ وابحثوا وانظرُوا هل تَجِدُونَ خَالِقاً غيرَ اللهِ ، واعتَبروا كيفَ خَلَقَ اللهُ مَن قبلَكم ثُم أهلَكَهم بعدَ ذلك.
وقولهُ تعالى : { ثُمَّ اللَّهُ يُنشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ } ؛ أي ثُم إنَّ اللهَ يبعثُ الخلقَ ثانيةً يومَ القيامةِ ، { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ؛ من الإحياءِ والإمَاتَةِ قادرٌ. قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو والحسنُ : (النَّشَاءَةَ) بالمدِّ ، وقرأ الباقون : (النَّشْأَةَ) بإسكانِ الشِّين والقصْرِ وهما لُغتان.

(٠/٠)

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ } ؛ أي يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ مَن كان أهْلاً للتعذيب ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ مَن كان أهلاً للرحمةِ ، وقولهُ تعالى : { وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ } ؛ أي تُرَدُّونَ في الآخرةِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ } ؛ أي ما أنتم يا أهلَ مكَّة بفَائِتينَ من عذاب الله هَرباً ، ولا في السَّماء ، فلا تغتَرُّوا لطُولِ الإمهَالِ.
ولا يجوزُ أن يكون معناهُ : وَلاَ مَنْ فِي السَّمَاءِ بمُعْجِزِيْنَ ؛ أي ما أنتم يا كفارَ مكَّة بفَائِتِي اللهِ في الأرضِ كُنتم أو فِي السَّماء كنتم ، أينَما تكونُوا يأتِ بكمُ الله فيجزِيَكم بأعمالِكم السيِّئة ، { وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ } ؛ يتولَّى أمرَكم وحِفظَكم ، { وَلاَ نَصِيرٍ } ؛ يَمنعُ العذابَ عنكم.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَآئِهِ } ؛ أي الذين يَجحَدوا بآياتِ الله والقُرْآنِ والبعثِ بعد الموتِ ، { أُوْلَئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي } ؛ أي مِن جَنَّتِي في الآخرةِ باعتقادِهم أنَّها لا يقعُ بهم ، { وَأُوْلَائِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }.

(٠/٠)

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ } ؛ أي ما كان جوابُ قومِ إبراهيمَ حيث دعَاهُم إلى اللهِ ، إلاَّ أن قالوا : اقتلُوهُ أو حرِّقوهُ بالنار ، ثُم " اتفقوا على تحريقه " فقذفوهُ في النار ، { فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ } ؛ سَالِماً ، وجعلَها بَرْداً وسَلاماً ولَم تحرِقْ منه إلاَّ وثاقه ، { إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } باللهِ ورسُلِهِ.

(٠/٠)

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً } ؛ أي قال إبراهيمُ : إنَّ ما عبَدتُم مِن دون اللهِ أوثَاناً هي مودَّةٌ بينَكم ، أو تلك مودَّةٌ بينكم ، والمعنى : أي أُلْفَتُكُمْ واجتماعُكم على الأصنامِ { مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } ؛ ثُم تنقطعُ عن قريبٍ ، وتنقلبُ تلك المودَّةُ عداوةً بعد الموتِ ، يَتَبَرَّأُ بعضُكم من بعضٍ ، ويلعنُ العابدُ المعبودَ ، لذلك يلعَنُ العابدونَ بعضَهم بعضاً ، ويكون مصيرُهم في الآخرةِ النار ، وما لكم مِن مانعٍ يَمنعُكم من عذاب الله.

ويجوزُ أن تكون (مَا) في قوله تعالى { إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ } بمعنى (الذِي) كأنه قالَ : إنَّ الذي اتَّخذتُموه من دونِ الله أوثَاناً مودَّةُ بينِكم ما دُمتم في الحياةِ الدُّنيا ، فيكون (مَوَدَّةُ) رفعاً لأنَّها خبرُ (إنَّ) ، وقرأ حمزةُ

وحفص (مَوَدَّةَ) بالنصب (بَيْنِكُمْ) بالخفضِ على الإضافة ؛ بوقوعِ الاتِّحادِ عليه ، وجعل (إنَّمَا) حَرفاً واحداً ، وقرأ الباقون نَصباً منَوَّناً (بَيْنَكُمْ) بالنصب على أنه مفعولٌ أيضاً ، ومعناه : اتَّخذتُم هذه الأوثانَ مَوَدَّةً بينَكم تتوادُّون وتحابُّون على عبادتِها وتتواصَلون عليها.

(٠/٠)

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ } ؛ أي صَدَّقَ لوطُ بإبرَاهِيمَ ، وهو أوَّلُ مَن صدَّقَ به ، { وَقَالَ } ؛ إبراهيم : { إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي } ؛ أي إلى الموضعِ الذي أمرَنِي رَبي بالهجرةِ إليه ، وكان مأْمُوراً بالهجرةِ من كوثى وهو سوادُ العراقِ إلى الشَّام.
وَقِيْلَ : إن كوثى من سوادِ الكوفة ، فهاجرَ إبراهيمُ ومعه لوطُ وهو ابنُ أخيهِ ومعه سَارَةُ. قال مقاتلُ : (هَاجَرَ إبْرَاهِيْمُ وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ وَسَبْعِيْنَ سَنةً). وقولهُ تعالى : { إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ؛ أي الْمُنْتَقِمُ مِمَّنْ عَصَاهُ ، الْحَكِيْمُ فيما حَكَمَ علينا من الهجرةِ.

(٠/٠)

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَهَبْنَا لَهُ } ؛ أي لإبراهيمَ ، { إِسْحَاقَ } ؛ من امرأتِهِ سارَةَ ، { وَيَعْقُوبَ } ؛ ابنُ ابنهِ ، وقولهُ تعالى : { وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ } ؛ وذلك أنَّ الله لَم يَبْعَثْ نبيّاً مِن بعد إبراهيمَ إلاّ من صُلْبِهِ ، وقولهُ تعالى { وَالْكِتَابَ } أي وجعلنَا التَّوراةَ والإنجيلَ والقُرْآنَ في وَلَدِهِ.
وقولهُ تعالى : { وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا } ؛ أرادَ به الثَّناءَ الحسنَ ، وموالاةَ جميعِ الأُمَمِ إيَّاهُ ؛ لأن جميعَ أهلِ الأديان يُحِبُّونَهُ. وقال السديُّ : (إنَّهُ أُرِيَ مَكَانَهُ فِي الْجَنَّةِ) ثُمَّ أعْلَمَهُ اللهُ أنَّ لَهُ مَعَ مَا أعْطَاهُ فِي الدُّنْيَا الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لقولهِ : { وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } ؛ أي إنهُ في الآخرةِ مع آبائه الْمُرسَلين في الجنَّة مثلَ آدمَ ونوحٍ.

(٠/٠)

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلُوطاً } ؛ أي وأرسَلْنا لُوطاً بالنبُوَّة ، { إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ } ؛ يعني عمَلَهم الخبيثَ الذي لَم يكن يَعْمَلُهُ أحدٌ قبلَهم.
وقولهُ تعالى : { وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ } ؛ وذلك أنَّهم كانوا يفعلونَ الفاحشةَ بمن يَمُرُّ بهم مِن المسافرين ، فلما فَعَلُوا ذلك شَاعَ الخبرُ ، فتركَ الناسُ المرورَ بهم وانقطعَ السبيلُ.
وقولهُ تعالى : { وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ } ؛ النادِي الْمَجْلِسُ وَالْمُتَحَدَّثُ ؛ أي تأتُونَ في مجالسِكم الفسقَ ، قِيْلَ : إنَّهم كانوا يفعلُ بعضُهم ببعضٍ الفاحشةَ في الْمَجَالِسِ. وَقِيْلَ : إنَّهم كانوا يصَفِّقون بأيديهم ويصَفِّرُونَ بأفواهِهم ، وقال القاسمُ بن محمَّدٍ : (هُوَ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَتَضَارَطُونَ فِي مَجَالِسِهِمْ) وَيَضْرِبُونَ بالْعُودِ وَالْمَزَامِيْرِ (وَيَلْعَبُونَ بالْحَمَامِ). وقِيْلَ : في معنَى قولهِ تعالى { وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ } قال مجاهدُ : (كَانَ يُجَامِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فِي الْمَجَالِسِ).
وسُئِلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنِ الْمُنْكَرِ الَّذِي كَانُواْ يَأْتُونَهُ قَوْمُ لُوطٍ ، فَقَالَ : "كَانُواْ يَجْلِسُونَ وَعِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قِصْعَةُ حَصَى ، فَإذا مَرَّ بِهِمْ عَابرُ سَبِيْلٍ خَذفُوهُ ، فَأَيُّهُمْ أَصَابَهُ كَانَ أَوْلَى بِهِ " ، قال صلى الله عليه وسلم : " إِيَّاكُمْ وَالْخَذْفَ ، فَإِنَّهُ لاَ يَنْكَأُ الْعَدُوَّ وَلاَ يُصِيْبُ الصَّيْدَ ، وَلَكِنْ يَفْقَأُ الْعَيْنَ وَيَكْسِرُ السِّنَّ ".

(٠/٠)

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ } ؛ أي فلمَّا أنكرَ لوطٌ على قومهِ ما كانوا يفعلون من القَبَائِحِ قالُوا استهزاءً : { ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } ؛ أنَّ العذابَ نازلٌ ، فعندَ ذلك ؛ {

قَالَ } ؛ لوطُ عيله السلام : { رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ } ؛ أي انْصُرْنِي بتحقيقِ قَوْلِي في العذاب على القومِ المفسدين العاصِين.

فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ ، وبعثَ جبريل ومعه الملائكةُ لتعذيب قومه وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى } ؛ أي بالبُشْرَى بإسحق ومِن وراءِ اسحق يعقوبُ ، { قَالُواْ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَاذِهِ الْقَرْيَةِ } ؛ يعني سدوم قريةُ لوطٍ ، { إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَالِمِينَ } ؛ بالشِّركِ والعملِ الخبيثِ ، { قَالَ } ؛ إبراهيمُ : { إِنَّ فِيهَا لُوطاً } ؛ فكيفَ تُهلِكُونَهم؟! { قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ } ؛ وأهلَ دِينه وابنَتَيْهِ زَعُورا وزَنْبَا ، { إِلاَّ امْرَأَتَهُ } واعِلَةَ ، { كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } ؛ أي مِن الباقينَ في الْمُهْلَكِيْنَ.

(٠/٠)

وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ } ؛ أي سَاءَ مَجيئَهم خَوفاً عليهم مِن قومِهِ ؛ لأنَّهم جاؤهُ على هيئة الغِلْمَانِ ، { وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً } ؛ أي ضَاقَ عليهم بسَبَبهم ، { وَقَالُواْ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } وَمُنَجُّوا ؛ قال المبَرِّدُ : (الْكَافُ فِي (مُنَجُّوكَ) مَخْفُوضَةٌ وَلَمْ يَجُزْ عَطْفُ الظَّاهِرِ عَلَى الْمُضْمَرِ الْمَخْفُوضِ ، فَمَا جُعِلَ الثَّانِي عَلَى الْمَعْنَى ، فَصَارَ التَّقْدِيْرُ : وَنُنَجِي أهْلَكَ ، أو مُنْجُونَ أهْلَكَ).

(٠/٠)

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَاذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَآءِ } ؛ أي عَذاباً بالحجارةِ ، وَقِيْلَ : الخسفَ والحصَبَ ، { بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ } ؛ أي بسَبَب فِسقِهم ، يروى أنَّ تلكَ القريةِ كانت مشتملةً على سبعمائةِ ألفِ رجُلٍ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ آيَةً بَيِّنَةً } ؛ أي آثارُ منَازِلِهم الْخَرِبَةِ ، وهي تركُ ديارهم منكوسةً عِظَةً وعبرةً ، وأظهرَ اللهُ فيها ماء أسوداً نتناً يتأذى الناسُ برائحتهِ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } ؛ أي يتفكَّرُون فيما فَعَلَ اللهُ بهم فلا يفعلونَ مِثْلَ فعلِهم.

(٠/٠)

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً } ؛ أي وأرسَلنا إلى أهل مدينَ أخاهم شُعيباً ، { فَقَالَ ياقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَارْجُواْ الْيَوْمَ الأَخِرَ } ؛ أي وَاخْشَوا البعثَ الذي فيه جزاءُ الأعمال ، { وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ } ؛ أي لا تَعْثُوا في الأرضِ بالفسادِ ، { فَكَذَّبُوهُ } ؛ بالرِّسالةِ ، { فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ } ؛ أي الزَّلزَلَةُ ، { فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } ؛ أي مَيِّتِيْنَ بَارِكِينَ على رُكَبهم.

(٠/٠)

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَاداً وَثَمُودَاْ } ؛ أي وأهلكنا عَاداً وثَمُوداً ، { وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ } ؛ أي ظَهَرَ لكم يا أهلَ مكَّة مِن منازلِهم والحجر واليمن في هلاكِهم حيث تَمرُّون بها ، { وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } ؛ القبيحةَ ، { فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ } ؛ أي فصَرَفَهم عن طريقِ الحقِّ ، { وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ } ؛ أي عُقلاءَ يُمكِنُهم تَمييزُ الحقِّ من الباطلِ ، ويقالُ كانوا مُعجَبين بضَلالِهم يَرَونَ أنَّهم على الحقِّ ، ولَم

يكونوا كذلكَ ، والمعنى : أنَّهم كانوا عندَ أنفُسِهم مستَبْصِرين فيما عَمِلُوا من الضَّلالةِ ، يحسَبُون أنَّهم على هُدَى.

(٠/٠)

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي الأَرْضِ } ؛ أي وأهلَكْنا قارونَ وفرعون وهامانَ بعدَ ما جاءَهم مُوسَى بالمعجزاتِ فَتَعَظَّمُوا عن الإيْمانِ به ، { وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ } ؛ أي لَم يكونوا فَائِتين من عذاب الله.

(٠/٠)

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ } ؛ أي كلَّ هؤلاءِ القوم الذين ذكرنَاهم عاقَبْنَاهم بذنوبهم ، { فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً } ؛ يعني الحجارةَ وهم قومُ لُوطٍ ، وَقِيْلَ : الحاصِبُ الريِّحُ التي تأتي بالْحَصْبَاءِ ، وهي الْحَصَى الصِّغار ، { وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ } ؛ وهم قومُ صالح وشُعيب ، { وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ } ؛ يعني قارونَ وأصحابَهُ ، { وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا } ؛ يعني قومَ نوحٍ وفرعونَ ، { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ } ؛ بإهلاكِهِ إيَّاهم ، { وَلَاكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } ؛ بالكُفرِ والمعاصِي.

(٠/٠)

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ } ؛ يعني الأصنامَ يتَّخذونَها أولياءَ يَرْجَوْنَ نصرَها ونفعَها ، { كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً } ، وبيتُها لا يُغنِيها عن الحرِّ والبردِ والمطر ، كذلكَ آلِهتُهم لا تَرزُقهم شيئاً ، ولا تَملِكُ لَهم ضَرّاً ولا نفعاً.

(٠/٠)

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ } أي لاَ بيتَ أضعفَ منهُ مما يتَّخذهُ الهوامُ ، { لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } ؛ إنَّ اتِّخاذهم الأولياءَ سِوَى اللهِ كاتِّخاذِ العنكبوتِ بيتاً في قلَّة النفعِ ما اتَّخذُوهم أولياءَ. وقولهُ تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ } ؛ قرأ أبو عمرٍو (يَدْعُونَ) بالياءِ لذِكْرِ الأُممِ قبلَها ، وقرأ الباقون بالتاء ، ومعنى الآيةِ ، أنهُ عالِمٌ بما عبدتُموه من دونهِ فهو يُجازيكم على كُفرِكم ، { وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }.

(٠/٠)

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتِلْكَ الأَمْثَالُ } ؛ يعني أمْثَالَ القُرْآنِ ، { نَضْرِبُهَا } ، نبيِّنُها ، { لِلنَّاسِ }. قال مقاتلُ : (يَعْنِي لِكُفَّار مَكَّةَ) { وَمَا يَعْقِلُهَآ } ؛ الأمثالُ ، { إِلاَّ الْعَالِمُونَ } ؛ أي العلماءُ.

(٠/٠)

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ } ؛ أي للحَقِّ واظهرَ الحقَّ خلْقَها ، { إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي لدلالةً على قُدرةِ الله وتوحيدِهِ.

(٠/٠)

اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ } ؛ أي إقْرَأ عليهم يا مُحَمَّدُ ما أُنْزِلَ عليكَ مِن القُرْآنِ ، وأقِمِ الصَّلواتِ الخمسِ في مواقِيتِها بشرائطِها وسُنَنِها.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ } ؛ وذلكَ أنَّ في الصَّلاةِ تكبيراً وتَسْبيحاً وقراءةً ووُقوفاً للعبادةِ على وجهِ الذُّلِّ والخشُوعِ ، وكلُّ ذلك يدعُو إلى شَكلِهِ ويصرفُ عن ضدِّهِ وهي الآمرُ والنَّاهي بالقولِ. والفَحْشَاءُ : ما قَبُحَ من العملِ ، والْمُنْكَرُ : ما لا يعرَفُ في شريعةٍ ولا سُنَّةٍ.
قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (فِي الصَّلاَةِ مُنْتَهًى وَمُزْدَجَرٌ عَنْ مَعَاصِي اللهِ) (فَمَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الْمَعَاصِي لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إلاَّ بُعداً) ، وعن أنسٍ رضي الله عنه قالَ : قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إلاَّ بُعْداً ".
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ } ؛ أي ولَذِكْرُ اللهِ إيَّاكم بالتوفيقِ والمغفرةِ والثواب أكْبَرُ من ذِكْرِكم إياهُ بالطاعةِ ، وَقِيْلَ : ذِكْرُ اللهِ في المنعِ من الفحشاءِ والمنكرِ أكبرُ مِن الصَّلاة ، ويجوزُ أن يكون أكبر في معنى الكِبَرِ في الجزاءِ والثَّواب ، كما قال عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ }[البقرة : ٤٥].
قالتِ الحكماءُ : ذِكْرُ اللهِ للعبدِ أكبرُ من ذكرِ العبد للهِ ؛ لأنَّ ذِكْرَ اللهِ للعبدِ على حدِّ الاستغناءِ ، وذِكرُ العبدِ إياه على حدِّ الافتقار ، ولأنَّ ذِكْرَ العبدِ يجرُّ نَفْعٍ أو دَفْعَ ضُرٍّ ، وذِكرُ اللهِ للعبدِ للفَضْلِ والكَرَمِ ، ولأنَّ ذكرَ العبدِ مخلوقٌ ، وذكرَ اللهِ غيرُ مخلوقٍ.
وقال صلى الله عليه وسلم فِي قولهِ تعالى { وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ } : " أيْ ذِكْرُ اللهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ أحْسَنُ وَأَفْضَلُ ، وَالذِّكْرُ أنْ تَذْكُرَهُ عِنْدَ مَا حَرَّمَ ، فَتَدَعُ مَا حَرَّمَ ، وَعِنْدَمَا أحَلَّ فَتَأْخُذُ مَا أَحَلَّ " وقال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ أحَبَّ أنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ فَلْيُكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ".
وقال أبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه : (ألاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أعْمَالِكُمْ وَأحَبِهَا إلَى مَلِيْكِكُمْ وَأَتَمِّهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أنْ تَغْزُوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُواْ رِقَابَهُمْ ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إعْطَاءِ الدَّنَانِيْرِ وَالدَّرَاهِمِ؟) قَالُواْ : وَمَا

هُوَ؟! قَالَ : (ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ }.
وقال معاذُ بنُ جَبَلٍ : " سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أيُّ الأَعْمَالِ أحَبُّ إلَى اللهِ تَعَالَى ؟ قَالَ : " أنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطِبٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ " وقال صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ قَوْمٍ جَلَسُواْ فِي مَجْلِسٍ يَذْكُرُونَ اللهَ فِيْهِ ؛ إلاَّ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلاَئِكَةُ ؛ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ؛ وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيْمَنْ عِنْدَهُ ".
ورُوِيَ أنَّ رجُلاً أعتقَ أربَعَ رقابٍ ، وآخَرَ قالَ : سُبْحَانَ اللهِ ؛ وَالْحَمْدُ للهِ ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ؛ وَاللهُ أكْبَرُ ، ثُم إنَّ الذي لَم يعتِقْ سألَ حبيبَ سرّاً وفي أصحابه فقالَ : ما تقولونَ فيمَن أعتقَ أربعَ رقابٍ وأنَا قُلْتُ : سُبْحَانَ اللهِ ؛ وَالْحَمْدُ للهِ ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ؛ وَاللهُ أكْبَرُ ، فأيُّهما أفضلُ ؟ فنظَرُوا هُنَيْهَةً وقالوا : ما نعلمُ شيئاً أفضلَ مِن ذكرِ الله.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } ؛ أي ما تعملونَ من الخيرِ والشرِّ ، لا يخفَى عليه شيءٌ.

(٠/٠)

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تُجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } ؛ أي لا تُخاصِمُوا أهلَ الكتاب إلاّ بالطريقةِ التي هي أحسنُ ، وهي أن تَعِظُوهم بالقُرْآنِ على وجهِ النُّصحِ لَهم والاستمالةِ إلى دِينِ الإسلامِ وتعظيمِ الله تعالى وطلب ثوابه ، { إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ } ؛ أي إلاَّ مَن ظَلَمَ من أهلِ الكتاب فمَنَعَ الجزيةَ أو نَقَضَ العهدَ ، وعادَ حَرْباً لكم ، فجادِلُوهم باللِّسان والسِّنَانِ ، وأغْلِظُوا عليهم حتى يُسلِمُوا ، { وَقُولُواْ } ؛ لِمن قَبِلَ الجزيةَ منهم إذا أخبَرُوكم بشيءٍ من كُتبهم : { آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ } ؛ أي آمَنَّا بالقُرْآنِ والتوراةِ والإنجيل والزبور ، { وَإِلَـاهُنَا وَإِلَـاهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } ؛ أي مُخلِصُونَ بالعبادةِ والتوحيد ، وهذه صفةُ الْمُجادَلةِ الحسَنةِ.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ } ؛ أنزلنا إليكَ يا مُحَمَّدُ القُرْآنَ كما أنزَلْنَا إليهم الكُتبَ ، { فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } أي الذين أكْرَمْنَاهم بعلمِ التَّوراة وهم عبدُاللهِ بن سلام وأصحابهُ يؤمنونَ بالقُرْآنِ بدلالةِ التَّوراةِ. وقولهُ : { وَمِنْ هَاؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ } ؛ أرادَ به من كُفَّارِ مكَّةَ من يؤمنَ به ، يعني يُسْلِمُ منهم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ الْكَافِرونَ } ؛ أي مَا يجحدُ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وبالقُرْآنِ بعدَ المعرفةِ إلاَّ الكافرونَ من اليهودِ ، وذلك أنَّهم عَرَفُوا أنَّ مُحَمَّداً نَبيٌّ والقُرْآنَ حَقٌّ فجَحَدوا وأنكَرُوا.

(٠/٠)

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ } ؛ أي ما كُنْتَ يا مُحَمَّدُ تقرأُ مِن قبلِ القرْآنِ { مِن كِتَابٍ } أي ما كُنتَ قَارئاً قبلَ الوحي ولا كَاتِباً ، وقولهُ : { وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ } ؛ ولا تكتبهُ بيمينِكَ ، ولو كُنْتَ تقرأهُ وتكتبُ لوجدَ الْمُبْطِلُونَ طريقاً إلى التَّشكيكِ في أمرِكَ والارتياب في نُبوَّتكَ ، ويقولون إنهُ يقرأهُ من الكُتُب الماضيةِ ، فلمَّا كان مَعْلُوماً عندَهم أنه عليه السَّلامُ كان لا يقرأُ ولا يكتبُ ، ثُم أتَى بالْقُرْآنِ الذي عَجَزُوا عنِ الإتيان بسورةٍ مثله ، دلَّهُم ذلك على أنه مِن عند اللهِ ، ولأنَّهُ كانت صفتهُ في التَّوراةِ والإنجيل : أُمِّيٌّ لا يقرأُ ولا يكتبُ ، ولو كُنْتَ قارئاً كاتباً لشَكَّ اليهودُ فيكَ ، وقالوا : إنَّ الذي نجدهُ في التوراةِ أُمِّيٌّ لا يقرأُ ولا يكتبُ.

(٠/٠)

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ } ؛ قال الحسنُ : (يَعْنِي الْقُرْآنَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُور الَّذِيْنَ أُوتُواْ الْعِلْمَ يَعْنِي الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ حَمَلُواْ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَحَمَلُوهُ بَعْدُ).

وقال مقاتلُ : { بَلْ هُوَ } يَعْنِي مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم { آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ } أي ذُو آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فِي

صُدُور أهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أهْلِ الْكِتَاب ؛ لأنَّهُمْ يَجِدُونَهُ بنَعْتِهِ وَصِفَتِهِ). { وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ الظَّالِمُونَ } ، يعني كفار اليهود.

(٠/٠)

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ } ؛ أي قالَ كُفَّارُ مكَّة : هَلاَّ أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ آيَةٌ من ربهِ كما كانت الأنبياءُ تَجيءُ بها إلى قومِهم ، أرادوا بها الآياتِ التي كانوا يقتَرِحُونَها عليهِ مِن قولِهم : { لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً }[الإسراء : ٩٠] الآية.
قرأ ابنُ كثيرٍ وحمزة والكسائيُّ وخلف : (آيَةٌ) على التوحيدِ ، وقرأ الباقونَ بالجمعِ.
وقولهُ تعالى : { قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ } أي في حُكْمِ اللهِ إنْ شاءَ أنزلَها ، { وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } ؛ أي رسولٌ مُخَوِّفٌ لكم بلُغَةٍ تعرِفونَها ، وليس إنزالُ الآياتِ بيدِهِ.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)

وقولهُ : { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ } ؛ معناهُ : أوَلَمْ يكن لَهم كفايةً في معرفةِ نُبوءَتِكَ أنَّا أنْزَلْنَا علَيْكَ القُرْآنَ الذي تقرأهُ عليهم بلُغَتهم مما فيه أخبارُ الأُمم الماضيةِ مع عجزِهم عن الإتيانِ بحديثٍ مثلهِ ، { إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً } ؛ أي في إنْزَالِ القُرْآنِ لَرَحْمَةً لِمن آمَنَ به وعَمِلَ بما فيهِ ، { وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } ، أي وذكرى وموعظة لهم.

(٠/٠)

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً } ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ : كَفَى اللهُ شَهيداً بأنِّي رسولٌ إليكم ، { يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ }. وقولهُ تعالى : { وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُواْ بِاللَّهِ } ؛ أي صدَّقُوا بالأصنامِ وجَحَدوا وحدَانيَّةَ اللهِ ، { أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } ؛ بالعقوبةِ وفَوْتِ الْمَثُوبَةِ.

(٠/٠)

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } ؛ أي يستعجِلُكَ كفارُ مكَّة بالعذاب قبلَ وقتهِ استهزاءً وتَكذيباً منهم بذلكَ ، { وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ } ؛ أي لَولاَ أنَّ الله جعلَ لعذابهِ أجَلاً مسمًّى قد سَمَّاهُ وهو يومُ القيامةِ. وقيل يعنِي مدَّة أعمارهم ؛ لأنَّهم إذا ماتُوا صارُوا إلى العذاب لعَجَّلَ لَهم العذابَ في الحالِ ، { وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } ؛ بإتيانهِ.

(٠/٠)

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ } ؛ فيه تَعْجِيْبٌ باستعجَالِهم مع أنَّ جهنَّمَ محيطةٌ بهم في الآخرةِ ، جامعةٌ لَهم ، { يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ } ؛ فلاَ يبقَى جزءٌ منهم إلاَّ وهو مُعَذبٌ في النار جزاءً ، ويقالُ لهم : { وَيِقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }. قرأ الكوفِيُّون ونافع : (وَيَقُولُ) بالياء ، يعني المؤَكِّلُ بعذابهم يقولُ لَهم ذلكَ ، وقرأ الباقون بالنُّونِ ؛ لأنه لَمَّا كان بأمرهِ سُبْحَانَهُ جازَ أن يُنسَبَ إليهِ.

(٠/٠)

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ } ؛ قالَ مقاتلُ : (نَزَلَتْ فِي ضُعَفَاءِ مُسْلِمِي مَكَّةَ ، تَقُولُ : إِنْ كُنْتُمْ فِي ضِيْقٍ بمَكَّةَ مِنْ إِظْهَار الإِيْمَانِ) فَاخْرُجُواْ مِنْهَا وَأُمِرُوا بالْهِجْرَةِ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي لاَ يُمْكِنُهُمْ فِيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ ، وَكَذلِكَ يَجِبُ عَلَى كُلِّ بَلَدٍ ، مَنْ كَانَ فِي بَلَدٍ فَعُمِلَ فِيْهَا بالْمَعَاصِي ، وَلاَ يُمْكِنُهُ تَغْيِيْرُ ذلِكَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى حَيْثُ يَتَهَيَّأُ لَهُ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ حَقَّ عِبَادَتِهِ.

ثُم خوَّفَهم بالموتِ لتَهُونَ عليهم الهجرةُ ؛ فقالَ : { كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ } ؛ أي كُلُّ أحدٍ مَيِّتٌ أينَما كانَ ، فلا تُقِيمُوا بدار الشِّرك خوفاً من الموتِ ، { ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } ، بعدَ الموتِ فيجزِيَكم بأعمَالِكم. وقال سعيدُ بن جبير : (مَعْنَى الآيَةِ : إذا عُمِلَ فِي أَرْضٍ بالْمَعَاصِي فَاخْرُجُواْ مِنْهَا ، فَإِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ) ، وقال عطاءُ : (إذا أُمِرْتُمْ بالْمَعَاصِي فَاهْرُبُواْ مِنْهَا ، فَإِنَّ أَرْضَ اللهِ وَاسِعَةٌ) ، وقال مجاهدُ : (إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَهَاجِرُواْ وَجَاهِدُواْ).

وقال الكلبيُّ : (نَزَلَتْ فِي الْمُسْتَضْعَفِيْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ كَانُواْ بمَكَّةَ لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى إِظْهَار الإِيْمَانِ وَعِبَادَةِ الرَّحْمَنِ ، فَحَثَّهُمْ عَلَى الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِيْنَةِ ، فَشُقَّ عَلَيْهِمْ وَقَالُواْ : كَيْفَ يَكُونُ حَالُنَا إذا انْتَقَلْنَا إِلَى دَار الْغُرْبَةِ وَلَيْسَ بهَا أَحَدٌ يَعْرِفُنَا فَيُوَاسِيْنَا ، وَلاَ نَعْرِفُ وُجُوهَ الاكْتِسَاب فِيْهَا ، فَقَطَعَ اللهُ عُذْرَهُمْ بهَذِهِ الآيَاتِ).

ومعناها : إنَّ أرضِي واسعةٌ آمِنَةٌ ، وَقِيْلَ : { وَاسِعَةٌ } أي رزْقِي لكم واسعٌ ، فاخرجُوا من هذه الأرضِ التي أنتم فيها. وعن الحسنِ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ فَرَّ بدِيْنِهِ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ وَإِنْ كَانَ شِبْراً مِنَ الأَرْضِ اسْتَوْجَبَ الْجَنَّةَ ، وَكَانَ رَفِيْقَ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ ".

ثُم ذكرَ ثوابَ مَن هاجرَ ، فقال : { وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ } ؛ يعني الْمُهَاجِرِيْنَ ، { لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (لَنُسْكِنَنَّهُمْ غُرَفَ الدُّرَّةِ وَالزُّبُرْجَدِ وَالْيَاقُوتِ ، وَلَنُنْزِلَنَّهُمْ قُصُورَ الْجَنَّةِ) ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ : (لَنُثْوِيَنَّهُمْ) يقالُ : ثَوَى الرجلُ إذا أقامَ ، وأثْوَيْتُهُ إذا أنزلتهُ منْزِلاً يقيمُ فيهِ ، والمعنى : والذينَ آمَنُوا لنُنْزِلَنَّهُمْ من الجنَّة غُرَفاً عَوالِي تَجرِي من تحتِ قصورها وأشجارها الأنهارَ ، { خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } ؛ للهِ.

ثُم وصَفَهم فقالَ : { الَّذِينَ صَبَرُواْ } ؛ أي على دِينِهم فلم يتركوهُ لشدَّةِ لَحِقَتهُمْ ، { وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أَنَّ الْمُهَاجِرِيْنَ تَوَكَّلُواْ عَلَى اللهِ وَتَرَكُواْ دُورَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ). وَقِيْلَ : معناهُ : { وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } في أرزاقِهم وجهادِ أعدائهم ومهمَّات أُمورهم.

قال مقاتلُ : (إنَّ أحَدَهُمْ كَانَ يَقُولُ بمَكَّةَ : كَيْفَ أُهَاجِرُ إلَى الْمَدِيْنَةِ وَلَيْسَ لِي بهَا مَالٌ وَلاَ مَعِيْشَةٌ).
فقالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا } ؛ أي وَكَمْ من دابَّةٍ في الأرضِ ؛ وهي كلُّ حيوان يدبُّ على الأرضِ مما يعقل ومما لا يعقلُ.
والمعنى : كَم مِن نفسٍ دابَّةٍ لا تحملُ رزقَها ؛ أي لا ترفعُ رزقَها معها ولا تَدَّخِرُ شيئاً لِغَدٍ ، { اللَّهُ يَرْزُقُهَا } ؛ حيثُ توجَّهت ، { وَإِيَّاكُمْ } ؛ يرزقُكم إن أُخرِجتُم إلى المدينةِ ، وإنْ لَم يكن لكم زادٌ ولا نفقةٌ.

(٠/٠)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ } ؛ يعني لَئِنْ سألتَ مُشركي مكَّة : مَنْ خَلَقَ السَّمَواتِ ، { وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } ؛ أي يُصْرَفونَ عن عبادةِ الله الذي هذه صفتهُ إلى عبادةِ جَماداتٍ لا تنفعُ ولا تضرُّ.

(٠/٠)

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ } ؛ أي يبسطُ الرِّزقَ على قومٍ ، ويُضَيِّقُ على قومٍ ، يفعلُ ذلك عن عِلْمٍ وحكمةٍ ، لا عن غَلَطٍ وخطأ ، { إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }.

(٠/٠)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } ؛

يعني كفَّارَ مكَّة أيضاً ، { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ } ؛ أي الحمدُ للهِ على إقرارهم ؛ لأن ذلكَ يُلْزِمُهُمْ الْحُجَّةَ ، ويوجبُ عليهم التوحيدَ. وَقِيْلَ : معناهُ : الحمدُ للهِ على هذه النِّعَمِ ، وعلى ما تَفَضَّلَ به جَلَّ ذِكْرُهُ من الإنعَامِ على العبادِ ، { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ } ؛ بتوحيدِ ربهِم مع إقرارهم بأنه خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ وأنزلَ المطرَ.

(٠/٠)

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا هَاذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ } أي باطلٌ وغُرُورٌ وعَبَثٌ تنقضِي عن قريبٍ بسرعةٍ ، { وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ } ؛ يعني الْجَنَّةَ هي الْحَيَوَانُ ؛ أي الحياةُ والدَّوامُ والبقاءُ الذي لا نَفَاذَ له ، والْحَيَوَانُ والحياةُ وأحدٌ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } ؛ أي لو كانوا يَعْلَمُونَ الفرقَ بين الحياةِ الدَّائمةِ والحياة الفَانِيَةِ لرَغِبُوا في الباقِي الدائمِ عن الفانِي الزَّائلِ ، ولكنَّهم لا يعلمونَ.

(٠/٠)

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الْفُلْكِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } ؛ يعني المشركينَ إذا رَكِبُوا في السَّفينةِ وهَاجَتِ الرياحُ واضطربَتِ الأمواجُ ، وخَافُوا الغرقَ والهلاكَ ، { عَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } أي دَعَوُا اللهَ مُفْرِدِيْنَ بالدُّعاءِ ، وتَرَكُوا شُركاءَهم وأصنامَهم فلا يدعُونَهم لإنجائِهم ، { فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ } ؛ أي فلمَّا خَلَّصَهُمْ من تلك الأهوالِ ، وأخرجَهم إلى البرِّ ؛ { إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ } ؛ أي عَادُوا إلى شُركائِهم لكي يَكْفُرُوا بما أعطيناهُم ، { وَلِيَتَمَتَّعُواْ } ؛ فِي كُفرِهم ، { فَسَوْفَ يَعلَمُونَ } ؛ جزاءَ فِعْلَتِهِمْ. قال عكرمةُ : (كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إذا رَكِبُواْ فِي الْبَحْرِ حَمَلُواْ مَعَهُمْ الأَصْنَامَ ، فَإذا اشْتَدَّتْ بِهِمْ الرِّيْحُ أَلْقَوْاْ تِلْكَ الأَصْنَامَ فِي الْبَحْرِ ، وَصَاحُواْ : يَا اللهَ يَا اللهَ).
وَقِيْلَ : إنَّ (اللام) في قوله (لِيَكْفُرُوا) لامُ الأمرِ ، ومعناها : التهديدُ والوعيدُ ، كقولهِ{ اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ

}[فصلت : ٤٠]{ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ }[الإسراء : ٦٤] ، وكذلك عَقَّبَهُ بقولهِ ، { فَسَوْفَ يَعلَمُونَ }.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ } أي ألَم يَرَ كفارُ مكَّة { أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً } يعني مكَّة ، ويُسْلَبُ الناسُ من حولِهم فيقتلونَ ويُؤسَرُونَ وتؤخذُ أموالُهم ، وأهلُ مكَّة آمِنُونَ من ذلكَ ، { أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ } ؛ أي فيقرُّون ويصدِّقون بالباطلِ وهي الأصنامُ بعد قيامِ الْحُجَّةِ ، { وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ } ؛ أي بمُحَمَّدٍ والإسلامِ يَجْحَدُونَ. والتَّخَطُّفُ : هو تناولُ الشيءِ بسُرعَةٍ.

(٠/٠)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً } ؛ أي لا أجدُ أظْلَمَ مِمَّن زعمَ أنَّ للهِ شريكاً ، { أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُ } ؛ يعني مُحَمَّداً والقُرْآن ، { أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ } ؛ أي أمَا لِهذا الكافرِ المكذِّب مأوًى في جهنَّم ، وهو استفهامٌ ، ومعناهُ : التقريرُ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } ؛ أي الذين جَاهَدُوا الكفارَ لابتغاءِ مَرْضَاتِنَا لنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا إلَى الجنَّة ؛ أي لنُوفِّقَنَّهُمْ لإصابةِ الطريقِ المستقيمة. وَقِيْلَ : معناهُ : والذين قَاتَلُوا

لأجْلِنَا أعدَاءَنا لنَهْدِيَنَّهُمْ سبيلَ الشَّهادةِ والمغفرةِ.

وقال الفُضَيْلُ : (مَعْنَاهُ : وَالَّذِيْنَ جَاهَدُواْ فِيْنَا فِي طَلَب الْعِلْمِ بالْعَمَلِ بهِ) ، وقال أبو سُليمان الدَّارَانِيُّ : (مَعْنَاهُ : الَّذِيْنَ يَعْمَلُون بمَا يَعْلَمُونَ يَهْدِيهِمْ اللهُ إلَى مَا لاَ يَعْلَمُونَ). وعنِ ابنِ عبَّاس : (أنَّ مَعْنَاهُ : وَالَّذِيْنَ جَاهَدُواْ فِي طَاعَتِنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ ثَوَابنَا).

وَقِيْلَ : معناهُ : والذينَ جاهَدُوا بالصَّبرِ على المصائب والنَّوائب لنهدينهم سُبُلَ الوصُولِ للمواهب.

وَقِيْلَ : والذين جَاهَدُوا بالثَّباتِ على الإيْمَانِ لنَهْدِيَنَّهُمْ دُخولَ الجنانِ. وقال سَهْلُ بن عبدِالله : (وَالَّذِيْنَ جَاهَدُواْ فِي إقَامَةِ السُّنَّةِ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ دُخُولِ الْجَنَّةِ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } ؛ أي مَنَّ بالنَّصرِ على أعدائِهم ، والمعونةِ في دُنياهم والثواب والمغفرة في عُقبَاهم.

وعن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْعَنْكَبُوتِ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُنَافِقِيْنَ ".

(٠/٠)

الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥)

{ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ } ؛ أي غَلَبَتْ فارسُ الرومَ ، ففرحَ بذلك كفارُ مكَّة وقالوا : الذين ليس لَهم كتابٌ غلبوا الذين لهم كتابٌ ، وافتَخَروا بذلكَ على المسلمين وقالوا لَهم : نحنُ أيضاً نغلِبُكم كما غلبَتْ فارسُ الرومَ.

وقصَّة ذلكَ : أن كِسرَى ملكَ فارس أرسلَ شهريار إلى الرُّوم ، فسارَ إليهم بأهلِ فارسَ ليغزُوَهم ، فظهرَ على الرومِ فقتلَهم وخرَّبَ مدائنَهم ، وكان قيصرُ ملكُ الرومِ قد بعثَ بجيشٍ لَمَّا سَمِعَ بقدوم شهريارَ ، فالتقيا بأَذْرُعَاتِ وَبُصْرَى وهي أدنَى الشَّام إلى أرضِ العرب والعجمِ ، فغلبَت فارسُ الرومَ حتى انتزعوا بيتَ المقدسِ من الرومِ ، وكان ذلك موضعُ عبادتِهم.

فبلغ ذلكَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَهُ بمكَّة فشُقَّ ذلك عليهم ، وكان صلى الله عليه وسلم يكرهُ أن يظهرَ الأُمِّيُّونَ من الْمَجُوسِ على أهلِ الكتاب من الرُّوم ، وفَرِحَ بذلك كفارُ مكَّة وشَمَتُوا ، فلَقُوا أصحابَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنَّكم أهلُ كتابٍ والنصَارَى أهلُ كتابٍ ، وقد ظهرَ إخوانُنا من أهلِ فارس على إخوانِكم من أهلِ الرُّومِ ، وإنَّكم إن قاتَلتُمونا لنظهرَنَّ عليكم ، فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هذه الآياتِ { الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ }.

فخرجَ أبُو بكرٍ رضي الله عنه إلى الكفَّار وقال : (أفَرِحْتُمْ بظُهُور إخْوَانِكُمْ عَلَى إخْوَانِنَا؟! فَلاَ تَفْرَحُواْ وَلاَ

يُقِرُّ اللهُ أعْيُنَكُمْ ، فَوَاللهِ لَيَظْهَرَنَّ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ ، أخْبَرَنَا بذلِكَ نَبيُّنَا) فَقَامَ إلَيْهِ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ الْجُمَحِيُّ وَقَالَ لَهُ : كَذبْتَ! فَقَالَ لَهُ أبُو بَكْرٍ : أنْتَ أكْذَبُ يَا عَدُوَّ اللهِ) فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ : كَمَا غَلَبَتْ عَبَدَةُ النِّيْرَانِ أهْلَ الْكِتَاب ، فَكَذلِكَ نَحْنُ نَغْلِبُكُمْ) وَاسْتَبْعَدَ الْمُشْرِكُونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَى فَارِسَ لِشِدَّةِ شَوْكَةِ أهْلِ فَارِسَ.

فَقَالَ أبُو بَكْرٍ لأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ : (أنَا أُرَاهِنُكَ عَلَى أنَّ الرُّومَ تَغْلِبُ إلَى ثَلاَثِ سِنِيْنَ) فَرَاهَنَهُ أُبَيُّ عَلَى خَمْسٍ مِنَ الإبِلِ ، وَقِيْلَ : عَلَى عَشْرٍ مِنَ الإبِلِ ، (فَإنْ ظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ غَرِمْتَ ، وإنْ ظَهَرَتْ فَارِسُ غَرِمْتُ أنَا) ثُمَّ جَاءَ أبُو بَكْرٍ إلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرَهُ بذلِكَ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " زِدْ فِي الْخَطَرِ وَأبْعِدْ فِي الأَجَلِ " فَفَعَلَ ذلِكَ ، وَجَعَلَ الأَجَلَ تِسْعَ سِنِيْنَ ، وَكَانَ ذلِكَ قَبْلَ تَحْرِيْمِ الْقِمَار.

رُوي أنَّ النّبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ لأَبي بَكْرٍ : " إنَّمَا الْبِضْعُ مَا بَيْنَ الثَّلاَثِ إلَى التِّسْعِ " قَرَأ : " زِدْهُ فِي الْخَطَرِ وَمَادَّهُ فِي الأَجَلِ " فَخَرَجَ أبُو بَكْرٍ فَلَقِيَ أُبَيّاً فَقَالَ : لَعَلَّكَ نَدِمْتَ! فَقَالَ : أزِيدُكَ فِي الْخَطَرِ وَأُمَادُّكَ فِي الأَجَلِ ، فَاجْعَلْهَا مِائَةَ قُلُوصٍ إلَى تِسْعِ سِنِيْنَ ، قَالَ : قَدْ أخَافُ فَعَلْتُ.

فَلَمَّا خَشِيَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ أنْ يَخْرُجَ أبُو بَكْرٍ مِنْ مَكَّةَ ، أتَاهُ فَلَزِمَهُ وَقَالَ : إنْ تَخْرُجْ مِنْ مَكَّةَ فَأَقِرَّ لِي كَفِيْلاً ، فَكَفَلَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُاللهِ بْنُ أبي بَكْرٍ ، فَلَمَّا أرَادَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ أنْ يَخْرُجَ إلَى أُحُدٍ ، أتَاهُ عَبْدُاللهِ بْنُ أبي بَكْرٍ فَلَزِمَهُ وَقَالَ : لاَ وَاللهِ لاَ أدَعُكَ حَتَّى تُعْطِيَنِي كَفِيْلاً ، فَأَعْطَاهُ كَفِيْلاً وَمَضَى إلَى أُحُدٍ ، ثُمَّ رَجَعَ فَمَاتَ بمَكَّةَ مِنْ جِرَاحَتِهِ الَّتِي جَرَحَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حِيْنَ بَارَزَهُ ، وَظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَذلِكَ عَلَى رَأسِ تِسْعِ سِنِيْنَ مِنْ مُرَاهَنَتِهِمْ ، وهذا قولُ أكثرِ المفسِّرين.

(٠/٠)

وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ } ؛ نصبَ على المصدر ؛ أي وَعْدَ اللهِ ذلِكَ وَعْداً وهو راجعٌ إلى قولهِ{ سَيَغْلِبُونَ }[الروم : ٣] أي وعدَ الله ذلك لا يخلفُ الله وَعْدَهُ بظهور الروم على فارسَ ، { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ إنَّ اللهَ لا يخلفُ وعدَهُ ؛ لأن أكثرَهم كفَّارٌ.

(٠/٠)

يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ؛ يعني معايشَهم وما يُصلِحهم. قال الحسنُ : (يَعْلَمُونَ مَتَى زَرْعُهُمْ وَمَتَى حَصَادُهُمْ ، وَيَعْلَمُونَ وُجُوهَ الاكْتِسَاب مِنَ التِّجَارَةِ وَالزِّرَاعَةِ وَالْحِرَاثَةِ وَالْغِرَاسَةِ ، وَمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) قال الحسنُ : (بَلَغَ وَاللهِ مِنْ عِلْمِ أَحَدِهِمْ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ يَنْقُرُ الدَّرَاهِمَ بِيَدِهِ فَيُخْبِرُكَ بِوَزْنِهِ وَلاَ يُحْسِنُ يُصَلِّي!).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } ؛ أي هُم مع علمِهم بأمُور الدُّنيا لا يعلمونَ ما طريقةُ الدليلِ من أمرِ الآخرة ، وما يكونُ فيها مِن البعثِ والثواب والعقاب ، فهم غَافِلُونَ عمَّا هو أوْلَى بهم ، وعما يلزَمُهم من الاستعدادِ لذلك.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ } ، أي في خَلْقِ اللهِ إيَّاهم ، { مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ } ، فتعلَمُون أنَّ الله لَم يخلُقِ السَّموات والأرضَ ، { وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ } ؛ إلاّ بالحقِّ ؛ أي إلاّ الحقَّ ، { وَأَجَلٍ مُّسَمًّى } ؛ ومعنى الآية : أوَلَمْ يتفكَّرْ أهلُ مكَّة بقلوبهم فيعلَمُون أنَّ الله مَا خلقَ السَّموات والأرضَ ، وما فيهما من العجائب والبدائع إلاّ ليُحِقَّ الحقَّ ويُبْطِلَ الباطلَ ، ويجزي كلَّ عاملٍ بما عَمِلَ عند انقضاءِ الأجَلِ المسمَّى الذي جعلَهُ اللهُ لانقضاء أمرِ السَّموات والأرضِ وهو يومُ القيامةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ } ؛ يعني كفَّارَ مكَّة ، { بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ }.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَسيرُواْ فِي الأَرْضِ } ؛ أي أوَلَمْ يُسافِروا في الأرضِ ، { فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ } ؛ صارَ أمرُ ، { الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } ؛ مِن الأُمم السالفةِ حين كذبوا الرُّسلَ إلى الهلاكِ بتكذيبهم فيَعْتَبِرُوا.
ثُم وصفَ تلكَ الأممَ فقال : { كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأَرْضَ } ؛ أي حَرَثُوها وقلَبُوها للزراعةِ والغَرسِ ، { وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا } ؛ كفارُ مكَّة لأنَّهم كانوا أطولَ عُمراً وأكثرَ عَدداً ، { وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ } ، فلم يَبْقَ منهم ولا مِن عمارَتِهم أثرٌ ، فكذلكَ يكونُ حال هؤلاء.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ } ؛ بإهلاكِهم ، { وَلَـاكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } ؛ بالكُفرِ والتكذيب.

(٠/٠)

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُواْ السُّوءَى أَن كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ } ؛ أي ثم صَارَ آخرُ أمرِ الذين أسَاءُوا بالكفرِ والمعاصي السُّوء ، يعني العذابَ والنار بسبب تكذيبهم واستهزائِهم بآيات اللهِ. قال الفرَّاء والزجَّاج : (السُّوْءَى ضِدُّ الْحُسْنَى وَهِيَ الْجَنَّةُ ، وَضِدُّهَا النَّارُ) ، وقال ابنُ قتيبةَ : (السُّوءُ جَهَنَّمُ ، وَالْحُسْنَى الْجَنَّةُ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ سُوْءَى ؛ لأَنَّهَا تَسُوءُ صَاحِبَهَا).

(٠/٠)

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } ؛ أي يخلقه من النطفة ثم يحييه بعد ما أماته { ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ؛ ثُم إلى موضعِ حسابه وجَزائِهِ يرجِعُون فيجزيَهم بأعمالِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ } ؛ أي يَيْأَسُ الْمُجرِمُونَ من رحمةِ الله ، ومِن كلِّ خيرٍ حين عَايَنُوا العذابَ.
وقال الفرَّاء : (يَنْقَطِعُ كَلاَمُهُمْ وَحُجَّتُهُمْ) ، وَقِيْلَ : معنى (يُبْلِسُ) أي يُفتَضَحُ ، وَقِيْلَ : معناهُ : يندَمُون ، وَقِيْلَ : الْمُبْلِسُ الساكتُ المنقطع عن حجَّته الآيسُ مِن أن يهتدِي إليها ، قال الشاعرُ : يَا صَاحِ هَلْ

تَعْرِفُ رَسْماً مُكْرَسا قَالَ : نَعَمْ أعْرِفُهُ وَأبْلَسَاوالْمُجرِمون هم الْمُشرِكُونَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَاءُ } ؛ أي لَم يكن للكفار مِمَّنْ أشرَكُوه في العبادةِ شفعاءَ يَشْفَعُوا لَهم إلى اللهِ ، { وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَافِرِينَ } ؛ أي يَتَبَرَّؤُنَ منها ويتبَرَّؤُنَ منهم.

(٠/٠)

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ } ؛ أي وَاذْكُرْ { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ } الخلائقُ في طريقِ النَّار. وَقِيْلَ : معناهُ : يومَ القيامةِ يتفرَّقون بعدَ الحساب إلى الجنَّة والنار فلا يَجْتَمِعُونَ أبَداً.

وقال الحسنُ : (إنْ كَانُواْ اجْتَمَعُواْ فِي الدُّنْيَا لَيَفْتَرِقُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ هَؤُلاَءِ فِي عِلِّيِّيْنَ ، وَهَؤُلاَءِ فِي أسْفَلِ سَافِلِيْنَ) ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ } ؛ أي في الجنَّة ينعَّمُون ويُكرَمُونَ بالتحف ويُسَرُّونَ.

والْحَبْرَةُ السُّرُورُ : وَقِيْلَ : الْحَبْرَةُ كلُّ نِعْمَةٍ حسنةٍ ، والتَّحبيرُ التحسينُ. وسُمِّيَ العَالِمُ حَبْراً لتَحْلُّقِهِ بأحسَنِ أخلاقِ المؤمنين ، ويسمَّى الْمِدَادُ حِبْراً لأنه تَحْسُنُ به الأوراقُ ، وَقِيْلَ : معنى الآيةِ : فَهُمْ فِي رِيَاضِ الجنَّةِ يَتلَذذُونَ.

(٠/٠)

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى { وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ الآخِرَةِ } ، وكذبوا بالبعث بعد الموت ، { فَأُوْلَائِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ } ؛ أي يُحضَرون في العذاب ، ويُحبَسُونَ.

(٠/٠)

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ } ؛ أي فَصَلُّوا للهِ ، عَلى تأويلِ : فَسَبحُواْ للهِ ، قال ابنُ عبَّاس : (جَمَعَتْ هَذِهِ الآيَةُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَمَوَاقِيْتِهَا ، فَوَقْتُ الْمَسَاءِ يُصَلَّى فِيْهِ الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ ، { وَحِينَ تُصْبِحُونَ } : صَلاَةُ الْفَجْرِ ، { وَعَشِيّاً } : الْعَصْرُ ، { وَحِينَ تُظْهِرُونَ } الظُّهْرُ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } أي يحمدُه أهلُ السَّموات وأهل الأرضِ ، ويصَلُّون له ويسجدُون. وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قَالَ : { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ... } إلى قولهِ تعالى : { وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } وآخِرُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ ، كَتَبَ اللهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ عَدَدَ نُجُومِ السَّمَاءِ ، وَقَطْرِ الْمَطَرِ ، وَعَدَدَ وَرَقِ الشَّجَرِ ، وَعَدَدَ نَبَاتِ الأَرْضِ. وَإذا مَاتَ أجْرَى اللهُ لَهُ بكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ فِي قَبْرِهِ ".

وقال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ سَرَّهُ أنْ يَكْتَالَ لَهُ بالْقَفِيْزِ الأَوْفَى فَلْيَقُلْ : { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ... } إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : { وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ... } إلَى آخِرِ السُّورَةِ ".

(٠/٠)

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ } ؛ أي الإنسانَ الحيَّ من النُّطفة الميتةِ ، { وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ } ، ويخرجُ النطفةَ وهي ميتةٌ من الإنسان الحيِّ ، ويقالُ : يخرجُ الفرخَ من البيضةِ ، والبيضةَ من الفرخِ ، { وَيُحْيِ الأَرْضَ } ، بإخراجِ الزُّروعِ منها ، { بَعْدَ مَوْتِهَا } ؛ أي بعدَ أن كانت لا تُنْبتُ ، { وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } ، مِن قبوركم يومَ القيامةِ إلى الْمَحْشَرِ ، فإنَّ بعثَكم بمنْزِلة ابتداءِ خَلْقِكم ، وهما في قدرةِ الله تستويان. قرأ حمزةُ : (تَخْرُجُونَ) بفتح التَّاءِ.

(٠/٠)

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ } ؛ أي من دلائلِ قُدرتهِ وعلاماتِ توحيده أنْ خلقَ أصلَكم من ترابٍ ، يعني آدمَ ، { ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ } ؛ أي ثُم إذا أنتم من لَحمٍ ودمٍ تنتشرونَ ؛ أي تتفرَّقُون في حوائجِكم ، وتنبسطونَ في الأرضِ ، { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا } ؛ أي من علاماتِ توحيده وقُدرته أنْ خلقَ لكم من جنسِكم نساءً لتطمَئِنُّوا إليها ، ولَم يجعلهنَّ من الجنِّ ، { وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً } ؛ أي جعلَ بين الزَّوجين مودَّةً ورحمةً ، فيما يتراحَمان ويتوادَّان ، وما مِن شيءٍ أحبُّ إلى أحدِهما من الآخرِ من غير رَحِمٍ بينهما ، حتى أنَّ كثيراً مِن الناس يهجرُ عشيرتَهُ بسبب زوجتهِ ، وكذلك مِن النِّساءِ من تَهجرُ عشيرتَها بسبب زوجِها.
والمعنَى : من دلالةِ توحيدِ الله وقدرته أنْ خلقَ من نُطفةِ الرِّجال ذُكوراً وإناثاً ؛ ليسكُنَ الذكورُ إلى الإناثِ ، والنُّطَفُ عن صفةٍ واحدة ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } ؛ في عظمةِ الله وقُدرتهِ.

(٠/٠)

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ، أي ومِن علاماتِ توحيده خَلْقُ السَّموات والأرضِ بما فيهما من العجائب ، { وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ } ، أي لُغَاتِكُمْ وأصوَاتِكم وصُوَركم وألوانِكم ، لأنَّ الخلقَ بين عربيٍّ وعجميٍّ وأسود وأحمرٍ وأبيض ، وهم وَلَدُ رجلٍ واحد وامرأةٍ واحدة ، { إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ } ؛ أي للبَرِّ والفاجرِ والإنسِ والجنِّ.

(٠/٠)

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِالَّيلِ وَالنَّهَارِ } ؛ أي ومِن آياته كيفيَّةُ نومِكم ، وكيفَ يغلبُ عليكم ،

وأين يأتيكم ، وكيف يزولُ عنكم فتطلبونَ معيشَتكم ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَابْتِغَآؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ } ؛ تقديرُ (وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ بالنَّهار) يعني تصرُّفَكم في طلب المعيشة بالنَّهار ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } القُرْآنَ ؛ سَماعَ الاستدلالِ ، والاعتبار ، والتدبُّر.

(٠/٠)

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً } ؛ أي خوفاً للمسافرِ من الصَّواعقِ ، وَطَمَعاً للمُقيمِ في المطرِ وسقي الزَّرعِ ، { فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } ؛ أي في البَرْقِ ، وإنزالِ المطر وإحياءِ الأرض بعد قحْطِها ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }.

(٠/٠)

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ } ؛ يعني مِن غيرِ عَمَدٍ تحتَهُما ، ولا علاقةَ فوقَهما بقدرةِ الله وتسكِينه ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ } ؛ أي ثُم إذا دعَاكُم من القُبور عند النفخةِ الثَّانيةِ يدعُو إسرافيلَ بأمرِهِ من صخرَةِ بيت المقدسِ : أيَّتُهَا الأجسادُ الباليةُ والعروق المتمزِّقة والشُّعورُ المتمرِّطة ، { إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ } ؛ مِن قبوركم مُهْطِعِيْنَ إلى الدَّاعي.

(٠/٠)

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي هم عبيداً ومُلكاً ، { كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ } ، أي كلٌّ له

مُطيعون في الحياةِ والبقاء والموتِ والبعث ، وإنَّ عَصَوْا في العبادةِ فَهُمْ منقادونَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ لا يقْدِرون على الامتناعِ مِن شيءٍ يرادُ بهم صحَّة ومرضٍ وغِنًى وفقرٍ وحياة وموتٍ.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } ؛ أي هو الذي يبدأُ الخلقَ مِن النطفةِ ثُم يُميتهُ فيصير تُراباً كما كانَ ، ثُم يبعثهُ في الآخرةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } ؛ أي الإعادةُ هَيِّنَةٌ عليهِ ، وما شيءٌ عليه بعسيرٍ ، وقد يذكرُ لفظ (يَفْعَلُ) بمعنى (فَعِيْلٌ) كقولهِ (اللهُ أَكْبَرُ) بمعنى كبيرٍ ، وكذلك أهوَنُ أو هيِّنٌ عليه. قال الفرزدقُ : لَعَمْرُكَ مَا أدْري وَإنِّي لأَوْجَلُ عَلَى أيِّنَا تَعْدُو الْمَنِيَّةُ أوَّلُيريدُ بقولهِ : لأَوْجَلُ ؛ أي وَجِلٌ ، وقالَ أيضاً : إنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتاً قَوَائِمُهُ أعَزُّ وَأطْوَلُأي عزيزةٌ طويلةٌ. وإنَّما قِيْلَ على هذا التأويلِ ؛ لأنه لا يجوزُ أن يكون بعضُ الأشياءِ على الله أهْوَنُ من بعضٍ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي له الصِّفةُ العُليا وهي القدرةُ التي لا يجرِي عليها العجزُ ، { وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ؛ أي القاهرُ لكلِّ شيء ، الْحَكِيْمُ في جميعِ أفعاله.

(٠/٠)

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ } ؛ أي وَصَفَ لكم أيُّها المشركونَ مَثَلاً مِن أنفُسِكم ، وبيَّن لكم ذلك الْمَثَلَ من أنفسِكم ، ثُم بَيَّنَهُ فقالَ { هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ } ، أي هل لَكم من عبيدِكم وإمائكم مِن شركاءٍ فيما رزقنَاكم من الأموالِ ؛ أي هل يُشاركونَكم في أموالِكم فتكونوا أنتم مع عبيدِكم سواءٌ فيما أعطينَاكُم ، { فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ } ، أي تخافُونَ عبيدَكم أنْ يُقاسِموكم في مالِكم كما تخافونَ نساءكم وأقاربكم أن يورثوكم بعدَكم ، أو تخافُوا لائمةَ عبيدِكم إذا لَم تعطُوهم حقَّهم ، كما تخافون لاَئِمَةَ بعضِكم بعضاً من الأقارب

والشُّركاء إذا لَم يؤدُّوا حقَّهم إليهم.
قالوا : لاَ! فقال : أفَتَرْضَوْنَ للهِ تعالى ما لا ترضَونَ لأنفُسِكم ، تُشرِكون عبيدَ الله في مُلكهِ ، وقد خلَقَهم ، ولا تشركون عبيدكم فيما رزَقَكم اللهُ وأنتم لَم تخلِقُوهم ، وتجعلونَ الْخَوْفَ من عبيدِ الله كالخوفِ من الله إذ تعبدُونَهم كعبادةِ الله تعالى ، { كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } ؛ أي هكذا يبيِّنُ الآياتِ واحدةً بعد واحدةٍ ليكون ذلك أقربَ إلى الفهمِ وواقع في القلب.
ومعنى { أَنفُسَكُمْ } ها هنا : أمثَالَكُمْ من الأحرار ، كقوله{ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ }[الحجرات : ١١].
ومعنى الآيةِ : كيفَ رضِيتم أن تكون آلِهتُكم التي تعبدونَها لِي شركاءَ وأنتُم عبيدي وأنا مَالِكُهم جميعاً ، فكما لا يجوزُ استواءُ المملوكِ مع سيِّده ، كذلك لا يجوزُ استواءُ المخلوق مع خالقهِ.

(٠/٠)

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَهْوَآءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ } ؛ أي ليسَ لَهم في الإشراكِ شبهةٌ من حيث الحجةُ ، ولكنَّهم يُشرِكون باللهِ بناءً على الجهلِ وهوَى النفسِ { فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ } ؛ أي لا هاديَ لِمن أضلَّهُ اللهُ ، { وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } ؛ أي ما لَهم من مَانِعين من عذاب الله.

(٠/٠)

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً } ؛ أي فأقِمْ يا مُحَمَّدُ على دِين الإسلامِ ، وقوله { حَنِيفاً } أي مائِلاً عن كلِّ دينٍ إلاَّ الإسلامُ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فِطْرَتَ اللَّهِ } ؛ أي اتَّبعْ دِينَ اللهِ ، والفطرةُ : الْمِلَّةُ ؛ وهي الإسلامُ والتوحيدُ ، { الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } ؛ أي خَلَقَ اللهُ المؤمنين عليها ، وقد وَرَدَ في الحديثِ : "كُلُّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ " إلى آخرِ الحديثِ.
وانتصبَ قولهُ (فِطْرَةَ اللهِ) على الإغراءِ ، وَقِيْلَ : على معنى : اتَّبعْ فطرةَ اللهِ.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } ؛ أي لا تغييرَ لدِين اللهِ الذي أمرَ الناسَ بالثَّباتِ عليهِ ، وهو نفيٌ

معناه النهيُ ؛ أي تُبدِّلُوا دينَ اللهِ الذي الذي هو التوحيدُ بالشِّركِ. وقولهُ تعالى : { ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } يعني التوحيدَ هو الدينُ المستقيم ، { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ } ؛ يعني كفَّارَ مكَّة ، { لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ توحيدَ اللهِ ودِينَ الإسلامِ هو الحقُّ.

(٠/٠)

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ } ؛ أي أقِيمُوا وجُوهَكم راجعينَ إلى اللهِ في كلِّ ما أمَرَكم به ، لا تَخرجُون عن شيءٍ من أوامرِهِ ، وهذا لأنَّ الخطابَ في أوَّلِ هذه الآياتِ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم بقولهِ { فَأَقِمْ وَجْهَكَ } ، والمرادُ به أُمتهُ ، كما في قولهِ{ ياأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ }[الطلاق : ١] فكأنَّهُ قالَ : أقِيمُوا وجُوهَكم مُنِيْبِيْنَ ؛ أي رَاجِعين إلى أوامرِهِ ، وقولهُ تعالى { وَاتَّقُوهُ } أي اتَّقُوا مُخالَفتَهُ ، { وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ } ؛ أي زَايَلُوا دِينَهم الذي أُمِرُوا بالثبات عليهِ.
وَمن قرأ (فَرَّقُواْ دِيْنَهُمْ) فمعناهُ : صَارُوا فِرَقاً ، وذلكَ معنى قولهِ : { وَكَانُواْ شِيَعاً } ، أي صارُوا جماعةً ، { كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } ، أي كلُّ جماعةٍ اختَارَتْ دِيناً مثل اليهودِ والنَّصارى وسائرِ الْمِلَلِ ، كلُّ أهلِ دِينٍ يفرحون بما عندَهم من الدِّين.

(٠/٠)

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُمْ } ؛ أي إذا أصَابَ الناسَ شدَّةٌ وبَلِيَّةٌ وقحطٌ وغلاءٌ يعني كفَّارَ مكَّة ، دَعَوا ربَّهم لدفعِ الشِّدة ، { مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ } ؛ أي رَاجِعين إليه ، مُنقَطِعين من الْخَلْقِ ، لا يَلجَأُونَ في شَدائدِهم إلى أوثَانِهم ، { ثُمَّ إِذَآ } ؛ أذهبَ عنهُم تلكَ الشدَّةَ و { أَذَاقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً } ؛ أي أعطَاهم من عندهِ المطرَ ، { إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } ؛ أي يَعُودُونَ إلى الشِّركِ { لِيَكْفُرُواْ بِمَآ

آتَيْنَاهُمْ } ؛ فيبدِّلُوا الشُّكرَ كُفراً ، { فَتَمَتَّعُواْ } ؛ أي تلَذذُوا في الدُّنيا ، { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } ، مَاذا ينْزِلُ بكم.

(٠/٠)

أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً } ؛ أي أمْ أنزَلنا على هؤلاءِ حُجَّةً وبرهاناً وكِتَاباً من السَّماء ، { فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ } ، يشهدُ وينطقُ بأنَّ اللهَ أمَرَهم بما يفعلون. وهنا استفهامُ إنكارٍ ؛ أي ليسَ الأمرُ على هذا.

(٠/٠)

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا } ؛ أي إذا أذقْناهم نعمةً استبشَرُوا بها ، { وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ } ؛ شِدَّةٌ ومِحنَةٌ وبليَّةٌ ، { بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } ؛ في الشِّركِ من المعاصي { إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } ؛ أي إذا هم يَيْأَسُونَ من رحمةِ الله.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ } ؛ أي ويُضَيِّقُ ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ } ؛ أي في البَسْطِ والتَّقتيرِ ، { لآيَاتٍ } ؛ دالَّةٍ على التوحيدِ ، { لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }.

(٠/٠)

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ } ؛ أي أعْطِ ذا القُربَى في الرَّحِمِ حَقَّهُ من الصِّلةِ والبرِّ ، وَأعْطِ { وَالْمِسْكِينَ } ؛ الذي يطوفُ على الأبواب حَقَّهُ أيضاً ، وهو التَّصَدُّقُ عليهِ ، وَأعطِ { وَابْنَ السَّبِيلِ } ؛ النازِلِ بكَ حَقَّهُ ؛ أي ضيافتَهُ ، يعني أكْرِمِ الضَّيْفَ النازلَ بك ، { ذَلِكَ خَيْرٌ } ؛ أي الذي ذكرتُ مِن الصِّلةِ والإعطاء والضِّيافة خيرٌ ، { لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ } ؛ يعني رضَا اللهِ ؛ أي إعطاءُ الْحُرِّ أفضلُ من الإمساكِ { وَأُوْلَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } ؛ أي الفائزونَ السُّعداءُ الباقون في الجنَّة ، ومَن أعطَى أحَداً لا يريدُ به وجهَ اللهِ ذهبَ مالهُ مِن غير أن يحصلَ على شيءٍ ، فلذلك قالَ : { يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ }.

(٠/٠)

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَاْ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُواْ عِندَ اللَّهِ } ؛ أي ما تعاطيتُم مِن عقدِ الرِّبَا رجاءَ أن تزيدُوا أموالَكم فلا يزيدُ في حُكْمِ اللهِ ، وعلى الآخذِ أن يَرُدَّهُ على المأخوذِ منهُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَاواْ }[البقرة : ٢٧٦].

قرأ ابنُ كثيرٍ (أَتَيْتُمْ) مقصوراً غيرَ ممدودٍ. وقولهُ تعالى (لِيَرْبُوَا) ، قرأ الحسنُ ونافع : (لِتُرْبُو) بتاءٍ مضمومةٍ وجزمِ الواو على الخطاب ؛ أي لتُرْبُو أنتُم ، وقرأ الباقونَ (لِيَرْبُوَا) بياءٍ مفتوحة ونصب الواو ، وجعلوا الفعلَ للرِّبَا.

وقولهُ تعالى : { وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ } ؛ أي ما أعطيتُم من صدقةٍ تريدون بها رضَا اللهِ ، { فَأُوْلَائِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } ؛ الذين يُضَاعَفُ لَهم في العاجلِ والآجلِ ، يقالُ : رجلٌ مُضْعِفٌ ؛ أي ذُو أضْعَافٍ كما يقالُ : رجلٌ مُقَوٍّي ذو قوَّةٍ ، وموسِرٌ ؛ أي صاحبُ يَسَارٍ.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قولهِ تعالى { وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن رِّباً } : (الرِّبَا هَا هُنَا هُوَ هِبَةُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ يُرِيْدُ أنْ يُثَابَ أفْضَلَ مِنْهُ). وقال السديُّ : (هُوَ الْهَدِيَّةُ يُهْدِيْهَا الرَّجُلُ لأَخِيْهِ يَطْلُبُ الْمُجَازَاةَ ، فَإنَّ ذلِكَ لاَ يَرْبُو عِنْدَ اللهِ ، وَلاَ يُؤْجَرُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ وَلاَ إثْمَ عَلَيْهِ) ، وقال الزجَّاجُ : (هُوَ دَفْعُ الإنْسَانِ

الشَّيْءَ لِيُعَوَّضَ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ ، وَذلِكَ لَيْسَ بحَرَامٍ وَلَكِنَّهُ لاَ ثَوَابَ فِيْهِ ؛ لأَنَّ الَّذِي يُهْدِيْهِ يَسْتَدْعِي مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ هُوَ الْعَطِيَّةُ الَّتِي لاَ يُطْلَبُ بهَا الْمُكَافَأَةَ ، وَلاَ يُرَادُ بهَا إلاَّ رضَا وَجْهِ اللهِ).

(٠/٠)

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ } ؛ أي خلَقَكم في بُطونِ أُمَّهَاتكم ثُم أخرَجكم ، { ثُمَّ يُمِيتُكُمْ } ؛ بعد انقضاءِ آجَالِكم ، { ثُمَّ يُحْيِيكُمْ } ؛ بعدَ الموتِ ، { هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَالِكُمْ مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }.

(٠/٠)

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } ؛ أي قُحِطَ المطرُ ونَقُصَتِ الغلاَّتُ وذهبَتِ البركةُ في البَرِّ والبحرِ ، أي أجدبَ الْبَرُّ وانقطعت مادَّةُ البحرِ ، { بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ } ؛ أي بشُؤْمِ ذنُوبهم ومعاصيهم ، الناسُ كفَّارُ مكَّة ، { لِيُذِيقَهُمْ } ؛ اللهُ بالجوعِ في السِّنين السبعِ ، يعني { بَعْضَ الَّذِي عَمِلُواْ } ؛ أي جزاؤهُ ليكونَ عقوبةً معجَّلةً ، { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ؛ من الكُفْرِ إلى الإيْمانِ ، ومن المعصيةِ إلى الطاعةِ ، فيكشفُ الله عنهم الشدَّةَ. وفي هذا تَنبيْهٌ على أنَّ الله تعالى إنَّما يقضي بالْجُدُوبَةِ ونقصِ الثَّمراتِ والنباتِ لُطْفاً منه في رجوعِ الخلقِ عن المعصيةِ.

(٠/٠)

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ } ؛ أي قُلْ لأهلِ مكَّة سافِرُوا في الأرضِ ، { فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ } ، أي كيفَ صارَ إجرامُ ، { الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ } ؛ أي انظُرُوا إلى ديار عَادٍ وثَمُودَ وقومِ لُوطٍ لِيَدُلَّكُمْ ذلك على أنهُ لاَ ينبغِي لأحدٍ أن يَكْفُرَ باللهِ تعالى.

(٠/٠)

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقِيِّمِ } ؛ أي أقِمْ قَصْدَكَ وعملكَ ، واجعل جِهَتَكَ اتِّباعَ الدِّين القَيِّمِ وهو الإسلامُ المستقيمُ الذي لا عِوَجَ فيه ، واعمَلْ به أنتَ ومَن تَبعَكَ ، { مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ } ؛ يعني يومَ القيامةِ ، { يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ } ؛ أي يومَ القيامةِ يتفرَّقون بعدَ الحساب إلى الجنَّة والنار.

(٠/٠)

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ } أي ضَرَرُ كُفْرِهِ ، { وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ } ؛ أي يَطَأُونَ لأنفسهم منازلَهم في الجنةِ ، { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ } ؛ ثوابَهم ، ثُم يزيدَهم { مِن فَضْلِهِ } ؛ أي يُثِيبَهُمْ أكثرَ مِن أعمالِهم ، { إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ } ؛ أي يُكرِمُهم ولا يُثيبهم ولا يرضَى عنهم.

(٠/٠)

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ } ؛ أي مِن علاماتِ توحيده إرسالهُ الرياحَ للبشَارَةِ بالمطرِ ، { وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ } ؛ يعْني الغيثَ والخِصْبَ ، { وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ } ؛ أي السفنُ تجري في البحرِ بتلكَ الرِّياحِ ، { بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ } ؛ أي ولتَسْلُكوا في البحرِ على السُّفن للتجارةِ وطلب الرزقِ بهذه الرياح ، { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ؛ هذه النِّعَمَ فتوحِّدُونه.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ } ؛ أي بالدَّلاَلاتِ الواضحاتِ فكذبُوا بها ، { فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ } ؛ أي عذبنا الذين كذبُوهم ، { وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي كان وَاجِباً علينا إنْجاءُ المؤمنين مع الرُّسُلِ من عذاب الأُمَمِ ، وفي هذا تبشيرٌ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بالظَّفَرِ والنصرِ على مَن كذبَ بهِ.

(٠/٠)

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً } ؛ أي تُزْعِجُهُ مِن حيث هو ، وذلك أنَّ اللهَ يُحْدِثُ السَّحابَ عُقيبَ الرياحِ فترفعهُ الرياحُ في الهواءِ ، { فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً } أي قِطَعاً بعضُها فوق بعضٍ ، { فَتَرَى الْوَدْقَ } يعني المطرَ ، { يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ } ؛ أي وَسَطِهِ إلى قومٍ

دونَ قوم ، { فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ } ؛ بذلك المطرِ ، { مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } ؛ يفرَحُون بالمطرِ ، { وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ } ؛ المطرُ { مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ } ؛ أي يائسين من ذلك ، كرَّرَهُ للتأكيدِ ، والْمُبْلِسُ هو الآيسُ القَانِطُ.

(٠/٠)

فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ } ، الخطابُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم وغيرِه. وآثارُ الرحمةِ هي أنواعُ النَّباتِ الذي ينبتُ من المطرِ من بين أخضرٍ وأحمر وغيرِ ذلك من الألوان.
وقولهُ { كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ } كيف يجعلُ الأرضَ مُخْضَرَّةً بعد يُبْسِهَا ، { إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى } ، أي الذي فَعَلَ ذلك هو الذي يُحيي الموتَى للنُّشُور ، فإنه كما يعيدُ الشجرَ الذي ظَهَرَ يُبْسُهُ ، ويعيدُ فيه الْخُضْرَةَ والنورَ والثمرةَ ، كذلك يُحيي الموتَى ، { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ؛ من الموتِ والبعثِ قديرٌ.

(٠/٠)

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً } ، ولَئِنْ أرسَلْنَا ريْحاً حارَّةً أو باردةً فأَيبَسَتْ زُرُوعَهم ، ورأوُا الزرعَ مُصْفَرّاً بعد خُضرتِه ، { لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ } ، لصَارُوا بعد اصفرار النَّبتِ يَجْحَدُونَ ما سَلَفَ من النعمةِ ، يعني أنَّهم يفرحون عند الخصب ، وإذا استبطأُوا الخصبَ والرزق جَزِعُوا فكَفَرُوا بالنِّعَمِ.

(٠/٠)

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى } ؛ يعني الكفارَ لا يُسْمِعُ ، والأعمالُ الذي لا يُبصِرون ، ولذلك قال : { وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلاَلَتِهِمْ } ؛ أي لا تقدرُ أن تُجْبرَهم على الْهُدَى ، وإنَّما بُعِثْتَ داعياً ومُبَلِّغاً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا } ؛ أي إلاَّ مَن يُصَدِّقُ بكِتَابنَا ، { فَهُمْ مُّسْلِمُونَ } ؛ أي هم الذين يَسْتَبْدِلُونَ به فهم مُخلِصُونَ مُنقَادُونَ لأمرِ الله.

(٠/٠)

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ } ؛ أي مِن نطفةٍ ضَعيفةٍ بُطونِ الأُمَّهَاتِ ، ثُم أطْفَالاً لا يَملكون لأنفُسِهم نَفْعاً ولا ضرّاً ، { ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً } ، ثُم جعلَكم أقوياءَ بما أعطاكم مِن العقلِ والاستطاعة والهدايةِ والتصرُّف في اختلاف المنافعِ ودفع المضارِّ ، { ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ } ؛ قُوَّةِ الشَّباب ، { ضَعْفاً } ؛ عند الكبر والهرمِ ، { وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ } ؛ مِن ضعفٍ وقوة وشَيبةٍ وشبَابٍ ، { وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ } ؛ أي العَلِيْمُ بخلقهِ القَادِرُ على تَحويلِهم من حالٍ إلى حال.

(٠/٠)

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ } ؛ أي تقومُ السَّاعة ، يحلِفُ المشركون ما لَبثُوا في القبور غيرَ ساعةٍ واحدة. وَقِيْلَ : ما لَبثُوا في الدُّنيا غيرَ ساعةٍ يَسْتَقِلُّونَ في جنب

أيَّام الآخرةِ ، { كَذَلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ } ؛ أي هكذا كانوا يَكْذِبُونَ في الدُّنيا بجهلهم وغفلتِهم كما كذبُوا في الآخرةِ.

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ } ؛ أرادَ بالذينَ أوُتوا العلمَ : الملائكةَ والأنبياء والمؤمنونَ ، يقولون للكفَّار بعدَ ما أقْسَمُوا : لقد لَبِثْتُمْ فيما كَتَبَ اللهُ لكم من اللُّبثِ إلى يومِ البعث ، وَقِيْلَ : في حُكْمِ اللهِ ، وَقِيْلَ : فيه تقديمٌ وتأخيرٌ ؛ تقديرهُ : وقال الذين أوتُوا العلمَ في كتاب الله ، وهم الذين يعلمونَ كتابَ اللهِ. وقولهُ : { فَهَاذَا يَوْمُ الْبَعْثِ } ؛ أي يوم الذي كنتم تُنْكِرُونَهُ في الدُّنيا ، وتكذِّبون بهِ ، { وَلَاكِنَّكُمْ كُنتمْ لاَ تَعْلَمُونَ } ؛ وقُوعَهُ في الدُّنيا فلا ينفعُكم العلمُ به الآنَ.

(٠/٠)

فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَيَوْمَئِذٍ لاَّ ينفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ } ؛ أي اعتِذارُهم من الذُّنوب إن اعتَذروا ، { وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } ؛ أي لا يُجَابُونَ إلى ما يطلُبون من الرَّجعةِ إلى الدُّنيا ، فإنَّهم يقُولون : { رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً }[السجدة : ١٢]. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (لاَ يُقْبَلُ مِنَ الَّذِيْنَ أشْرَكُواْ عُذْرٌ وَلاَ عِتَابٌ وَلاَ تَوْبَةٌ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ).

(٠/٠)

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَاذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ } ؛ أي بَيَّنَّا لَهم في القُرْآنِ من كلِّ صِفَةٍ ، { وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ } ؛ مثلَ العصَا واليدِ وبكلِّ حُجَّةٍ ، { لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ } ؛ أي مَا أنتم إلاّ على الباطلِ يا مُحَمَّدُ وأصحابُكَ!.

(٠/٠)

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ أي يَخْتِمُ على قلوب الذين لا يعلمُون توحيدَ اللهِ ، فكلُّ مَن لا يعلمُ توحيدَ الله فذلك لأجلِ ما طَبَعَ اللهُ على قلبهِ.

(٠/٠)

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } ؛ أي اصْبِرْ يا مُحَمَّدُ على تبليغِ الرِّسالة والوحيِ ، وعلى مَا يلحقُكَ من أذِيَّةِ الكفَّار ، فإنَّ ما وَعَدَ اللهُ من النَّصرِ وإظهار دِين الإسلامِ صدقٌ كائن يأتيكَ في حينهِ.
والمعنى : (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ) بنصرِ دِينِكَ وإظهاركَ على عَدُوِّكَ حقٌّ فلا يَحْمِلَنَّكَ تكذيبُ الكفار الذين لا يَسْتَيْقِنُونَ بأمرِ الله على الحقِّ ، وكُنْ حَلِيماً صَبُوراً.
وقوله : { وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ } ، لا تَعْجَلْ بالدُّعاءِ عليهم فيما يستَعجِلون مِن العذاب لقولِهم : { ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ }[العنكبوت : ٢٩] ، و{ مَتَى هَاذَا الْوَعْدُ }[سبأ : ٢٩] و{ عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ }[ص : ١٦]. ومعنى الآيةِ : (وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّ) رأيَكَ وحِلمَكَ يا مُحَمَّدُ { الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ } ؛ بالبعثِ والحساب.

(٠/٠)

الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

{ الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } ؛ أي هذه السورةُ آياتُ الكتابِ الحكيم الذي وعدَكَ اللهُ أن يُنْزِلَهُ عليكَ.

وانتصبَ (هُدًى وَرَحْمَةً) على الحالِ. وقرأ حمزةُ بالرفعِ على الابتداء ، وَقِيْلَ : على إضمار هُوَ. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (مَعْنَى الآيةِ : هُدًى مِنَ الضَّلاَلَةِ وَرَحْمَةً مِنَ الْعَذَابِ لِلمُوَحِّدِيْنَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم) وما بعدَ هذا قد تقدَّمَ تفسيرهُ.

(٠/٠)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ } ؛ نزلت هذه الآيةُ وما بعدَها في النَّضرِ بن الحارثِ ، كان اشترَى كُتباً فيها أخبارُ الأعاجمِ ، ويحدِّثُ بها أهلَ مكَّة ، ويتمَلَّقُ بها في المجالسِ ، ويقولُ : إنَّ مُحَمَّداً يحدِّثُكم أحاديثَ عادٍ وثَمودَ ، وأنا أُحدِّثُكم أحاديثَ فارس والروم ، وأقرأُ عليكم كما مُحَمَّدٌ يقرأ عليكم أساطيرَ الأوَّلين هو يأتِيكم بكتابٍ فيه قصصُ الأممِ الماضيةِ ، وأنا أتيتُ بمثلِهِ! وكانوا يستَمْلِحُون حديثَهُ ، وكان إذا سَمِعَ شيئاً من القُرْآنِ يهزأُ به ويُعرِضُ عنهُ. فذلكَ قولهُ : { وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } ؛ أي ليصرِفَ الناسَ عن دِين الله بلا علمٍ ، ومن قرأ (لِيَضِلَّ) بفتحِ الياء ، فمعناهُ : ليتَشَاغَلَ بما يُلهِيهِ ، وليصير أمرهُ إلى الضَّلال والباطلِ.

ومعنى قولهِ تعالى { لَهْوَ الْحَدِيثِ } أي باطلُ الحديثِ ، هذا قولُ الكلبيِّ ومقاتل ، وَقِيْلَ : المرادُ بلَهْوِ الحديثِ الغناءُ ، وعن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لاَ يَحِلُّ تَعْلِيْمُ الْمُغَنِّيَاتِ وَلاَ بَيْعُهُنَّ وَلاَ شِرَاؤُهُنَّ ، وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ؛ مَا رَفَعَ رَجُلٌ قَطُّ عَقِيْرَتَهُ يَتَغَنَّى إلاَّ ارْتَدَفَهُ

شَيْطَانَانِ يَضْرِبَانِ بأَرْجُلِهِمَا عَلَى ظَهْرِهِ وَصَدْرِهِ حَتَّى يَسْكُتْ " ، وهذا قولُ سعيدِ بن جُبير ومجاهد وابنِ مسعودٍ ، قالوا : (هُوَ وَاللهِ الْغِنَاءُ ، وَاشْتِرَاءُ الْمُغَنِّيَةِ وَالْمُغَنِّي بالْمَالِ).

وقال صلى الله عليه وسلم : " " مَنْ مَلأَ مَسَامِعَهُ مِنْ غِنَاءٍ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ أنْ يَسْمَعَ أصْوَاتَ الرُّوحَانِيِّيْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " قِيْلَ : وَمَا الرُّوحَانِيُّونَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : " أَهْلُ الْجَنَّةِ " " ، وعن إبراهيمَ النخعيِّ أنه قالَ : (الْغِنَاءُ يُنبتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْب) وقال مكحولُ : (مَنِ اشْتَرَى جَارِيَةً ضَرَّابَةً لِيُمْسِكَهَا لِغِنَائِهَا وَضَرْبِها مُقِيْماً عَلَيْهِ حَتَّى يَمُوتَ لَمْ أُصَلِّ عَلَيْهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بِغَيْرِ عِلْمٍ } أي أنه جاهلٌ فيما يفعلُ ، لا يفعلهُ عن عِلْمٍ ، { وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً } بالرفعِ عطفاً على { مَن يَشْتَرِي } ، وبالنصب عَطفاً على { لِيُضِلَّ } ، والكتابةُ المذكورة تعودُ إمَّا إلى الآياتِ المذكورةِ في أوَّل السورةِ ، وإما إلى (سَبِيْلِ اللهِ) ، والسبيلُ يُؤَنَّثُ لقولهِ{ قُلْ هَاذِهِ سَبِيلِي }[يوسف : ١٠٨].

(٠/٠)

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً } ؛ أي أعرَضَ عن قَبولِها متعظِّماً عنِ الإيْمان بها ، { كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً } ؛ أي ثُقْلاً يَمنعهُ عن السَّماعِ ، { فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } ؛ وَجِيْعٍ في الدُّنيا قبل أن يَصِلَ إلى الآخرةِ ، وهو ما رُوي : (أَنَّهُ أُخِذَ أَسِيْراً يَوْمَ بَدْرٍ فَقُتِلَ صَبْراً).

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ؛ ظاهُر المعنَى.

(٠/٠)

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠)

وقولهُ تعالى : { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ } ؛ أي جِبَالاً ثُم أُرْسِيَتِ أوتادٌ لَها لِئَلاَّ تَميدَ بأهلِها ، { وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ } ؛ أي فرَّقَ الدوابَّ الكثيرةَ في الأرضِ ، { وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً } ؛ يعني المطرَ ، { فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ } ؛ أي مِن كلِّ نوعٍ حسَنٍ.

(٠/٠)

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١)

وقولهُ تعالَى : { هَاذَا خَلْقُ اللَّهِ } ؛ أي هذا الذي ذكرتُ لكم مما تُعاينُونَ خَلْقُ اللهِ ، { فَأَرُونِي } ؛ أيُّها الكفارُ ، { مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ } ؛ أيُّ شيءٍ خَلَقَهُ الذي تعبدونَ مِن دونهِ ، فلم تَجِدُوا شَيئاً يشيرونَ إليهِ من خَلْقِ غيرهِ ، ولَم يقدِرُوا على جواب هذا الكلامِ ، فقِيْلَ : { بَلِ الظَّالِمُونَ } ؛ أي الكافِرون ، { فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ }.

(٠/٠)

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ } ؛ يعني العقلَ والعلم والعملَ به ، والإصابةَ في الأمور.
واتَّفقَ العلماءُ على أن لُقْمَانَ حكيماً ، ولَم يكن نَبيّاً إلاّ عكرمةُ وحدَهُ فإنه قال : (كَانَ لُقْمَانُ نَبيّاً) ، وقال بعضُهم : خُيِّرَ لقمانُ بين النبوَّة والحكمةِ فاختارَ الحكمةَ!
وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ؛ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ : " حَقّاً أقُولُهُ : لَمْ يَكُنْ لُقْمَانُ نَبيّاً ، وَلَكِنْ عَبْداً صَمْصَامَةً ، كَثِيْرَ التَّفَكُّرِ ، حَسَنَ الْيَقِيْنِ ، أحَبَّ اللهَ فَأَحَبَّهُ ، فَمَنَّ عَلَيْهِ

بالْحِكْمَةِ " ورويَ أنه كان تَتَلْمَذَ لألفِ نبيٍّ عليهم السَّلام.
واختَلفُوا في حِرفتهِ ، فقالَ الأكثرُون : كان نَجَّاراً ، ويقالُ : كان خيَّاطاً ، ويقالُ : كان راعياً ، ويروى : كان عَبْداً حَبَشِيّاً غليظَ الشَّفتين مشقوقَ الرِّجلين.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (مَرَّ رَجُلٌ بلُقْمَانَ وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ حَوْلَهُ وَهُوَ يَعِظُهُمْ ، فَقَالَ : أَلَسْتَ الْعَبْدَ الأَسْوَدَ الَّذِي كُنْتَ تَرْعَى الْغَنَمَ؟! قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَمَا بَلَغَ بكَ إِلَى مَا أَرَى ؟ قَالَ : صِدْقُ الْحَدِيْثِ ؛ وَأَدَاءُ الأَمَانَةِ ؛ وَتَرْكُ مَا لاَ يَعْنِيْنِي).
وعن أنسٍ : (أنَّ لُقْمَانَ كَانَ عَبْدَ دَاوُدَ عليه السلام وَهُوَ يَسْرِدُ دِرْعاً ، فجَعَلَ لُقْمَانَ يَتَعَجَّبُ مِمَّا يَرَى ، وَيُرِيْدُ أنْ يَسْأَلَهُ فَمَنَعَتْهُ حِكْمَتُهُ مِنَ السُّؤَالِ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا ، جَعَلَهَا عَلَيْهِ وَقَالَ : نِعْمَ دِرْعُ الْحَرْب هَذَا وَنِعْمَ حَامِلُهُ ، فَقَالَ لُقْمَانُ : الصَّمْتُ حِكْمَةٌ وَقَلِيْلٌ فَاعِلُهُ).
وقال عكرمة : (كَانَ لُقْمَانُ مِنْ أهْوَنِ مَمَالِيْكِ سَيِّدِهِ ، فَبَعَثَ مَوْلاَهُ مَعَ عَبِيْدٍ لَهُ إِلَى بُسْتَانٍ لِمَوْلاَهُمْ يَأْتُونَهُ مِنْ ثَمَرِهِ ، فَجَاءُوا وَلَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ، وَقَدْ أكَلُواْ الثَّمَرَةَ ، وَأحَالُواْ عَلَى لُقْمَانَ بذَلِكَ! فَقَالَ لُقْمَانُ لِمَوْلاَهُ : إنَّ ذَا الْوَجْهَيْنِ لاَ يَكُونُ عِنْدَ اللهِ أمِيْناً ، فَاسْقِنِي وَإِيَّاهُمْ مَاءً حَمِيْماً ، فَسَقَاهُمْ فَجَعَلُواْ يَتَقَيَّؤُن الْفَاكِهَةَ ، وَجَعَلَ لُقْمَانُ يَتَقَيَّأُ مَاءً بَحْتاً ، فَعَرَفَ صِدْقَهُ وَكَذِبَهُمْ).
قال : (وَأَوَّلُ مَا رُوِيَ مِنْ حِكْمَتِهِ أنَّهُ جَاءَ مَعَ مَوْلاَهُ فَدَخَلَ الْمَخْدَعَ ، فَأَطَالَ الْجُلُوسَ فِيْهِ ، فَنَادَاهُ لُقْمَانُ : إنَّ طُولَ الْجُلُوسِ عَلَى الْحَاجَةِ يَتَجَمَّعُ مِنْهُ الْكَدَرُ ، وَيُورِثُ الْبَاسُورَ ، وَتَصْعَدُ الْحَرَارَةُ إِلَى الرَّأسِ ، فَاجْلُسْ هُوَيْناً وَقُمْ هُوَيْناً ، قَالَ : فَخَرَجَ وَكَتَبَ حِكْمَتَهُ عَلَى بَاب الْحَشِّ).
ومعنى الآية { وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ } عِلْمَ التوحيدِ والمواعظِ والفقهِ والعقل والإصابة في القولِ ، وألْهَمناهُ أن يشكرَ اللهَ على ما أعطاهُ من الحكمةِ.
ومعنى قولهِ : { أَنِ اشْكُرْ للَّهِ } ؛ أي قُلنا له : اشْكُرِ اللهَ فيما أعطاكَ من الحكمةِ ، { وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ } ؛ أي مَن يشكرُ نِعَمَ اللهِ فإنا منفعةَ شُكرهِ راجعةٌ إلى نفسهِ ، { وَمَن كَفَرَ } ؛ فلم يُوَحِّدْ ، { فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ } ؛ عن شُكرهِ ، { حَمِيدٌ } ؛ يحمَدهُ الشاكرُ ويثبته إلى شُكرهِ.

(٠/٠)

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ } ؛ أي واذْكُرْ : إذْ قَالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : { يابُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ } ؛ أحَداً في العبادةِ ، { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } ؛ عندَ اللهِ ؛ أي ليس مِن الذُّنوب شيءٌ

أعظمُ من الشِّرك باللهِ ؛ لأنَّ الله تعالى هو الحيُّ المميتُ الخالق الرازقُ ، فإذا أشركتَ به أحداً غيرَهُ فقد جعلتَ النعمةَ لغير ربها ، وذلك من أعظمِ الظُّلمِ.

(٠/٠)

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ } ؛ نزل في سَعدِ بن أبي وقَّاص ؛ لَمَّا آمَنَ بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أُمُّهُ لاَ تَذُوقُ طَعَاماً وَلاَ شَرَاباً وَلاَ يُظِلُّهَا شَيْءٌ حَتَّى يَرْجِعَ سَعْدُ إِلَى دِينْهِ ، فَمَضَتْ عَلَى هَذَا أيَّاماً ، فَبَلَغَ مِنْ أمْرِهَا إِلَى تَدَاخَلَ بَعْضُ أسْنَانِهَا فِي بَعْضٍ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ، فَقَالَ سَعْدٌ : (لَوْ كَانَ لَهَا سَبْعُونَ نَفْساً فَخَرَجَتْ مَا ارْتَدَدْتُ عَنِ الإِسْلاَمِ) فَفَتَحَ فَاهَا وَصَبَّ فِيْهِ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ. ومعنى { وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ } أي أمرناهُ ببرِّ والدَيه عطفاً عليهما.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ } ؛ أي ضَعْفاً على ضعفٍ ، ومشقَّةً على مشقةٍ ، كلَّما ازدادَ الولدُ في الرَّحمِ كِبر ، ازدادت الأمُّ ضَعفاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ } ؛ أي وفِطَامُهُ في انقضاءِ عامَين ، وقدَّرَهُ بعامين بناءً على الأغلب ، ولأنَّ الرَّضاع لا يستحقُّ بعد هذه المدَّة. والفِصَالُ هو الفِطَامُ ، وهو أن يُفْصَلَ الولدُ عن الأمِّ كي لا يرضع. والمعنى بهذا ذكرُ مشقَّة الوالدةِ بإرضاعِ الولد عامَين. ورُوي عن يعقوب : (وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ) بغير ألفٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ } ؛ أي قُلنا له اشكُرْ لِي على خلْقِي إياكَ ، وعلى إنعامِي عليكَ ، واشكُرْ لوالديكَ على تربيَتهما إياكَ. وقال مقاتلُ : (اشْكُرْ لِي إذْ هَدَيْتُكَ للإِسْلاَمِ ، وَلِوَالِدَيْكَ بمَا أوْلَيَاكَ مِنَ النِّعَمِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلَيَّ الْمَصِيرُ } ؛ أي مصيرُكَ ومصيرُ والدَيك ، وعن سُفيان بن عُيينةَ في قولهِ : { أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ } قال : (مَنْ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فَقَدْ شَكَرَ اللهَ ، وَمَنْ دَعَا لِلْوَالِدَيْنِ فِي إدْبَار الصَّلَوَاتِ فَقَدْ شَكَرَ لِلْوَالِدَيْنِ).

(٠/٠)

وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا } ؛ أي أجْهَدَا عليكَ لتُشرِكَ بي جَهلاً بغيرِ علمٍ فَلاَ تُطِعْهُمَا ، فإنَّ حقَّهما وإنْ عَظُمَ فليس بأعظمَ من حقِّي.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً } ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " حُسْنُ الْمُصَاحَبَةِ أنْ تُطْعِمْهُمَا إذَا جَاعَا ، وَتَكْسُوهُمَا إذَا عَرِيَا ، وَعَاشِرْهُمَا عِشْرَةً جَمِيْلَةً " { وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ } ؛ أي واتَّبع طريقَ مَن رجعَ إلَيَّ ؛ أي مَنْ سَلَكَ طريقَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وأصحابِه. والمعنى : واتَّبِعِ دِينَ من أقبل إلى طَاعَتِي وهو النبيُّ صلى الله عليه وسلم.

وقال عطاءُ عن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ : (يَعْنِي أبَا بَكْرٍ الصِّدِّيْقَ رضي الله عنه أنَّهُ حِيْنَ أتَاهُ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَسَعْدُ بْنُ أبي وَقَّاصٍ وَسَعِيْدُ بْنُ زَيْدٍ وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ فَقَالُواْ : يَا أبَا بَكْرٍ آمَنْتَ وَصَدَّقْتَ مُحَمَّداً ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَأَتَوْاْ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَآمَنُواْ بِهِ وَصَدَّقُواْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى يَقُولُ لِسَعْدٍ : (وَاتَّبِعْ سَبِيْلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ) يَعْنِي أبَا بَكْرٍ الصِّدِّيْقَ رضي الله عنه).

ويستدلُّ مِن قولهِ تعالى { وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً } على أنَّ الابنَ لا يستحقُّ القَوَدَ على أبيهِ ، ولا يُحَدُّ الأبُ بقَذفَةِ الابنِ ، ولا يحبسُ الأبُ بدَينِ الابنِ ، لأن في إيجاب القَوَدِ والحدِّ والحبسِ له عليه ما يُنافِي مُصَاحبتَهما.

وعن أبي يوسفَ : (أنَّ الْقَاضِي يَأْمُرُ الأبَ بقَضَاءِ دَيْنِ الابْنِ ، فَإنْ تَمَرَّدَ حَبَسَهُ لاسْتِخْفَافِ أمْرِهِ) وقال محمَّدُ بن الحسنِ : (يُحْبَسُ الأَبُ فِي نَفَقَةِ الابْنِ الصَّغِيْرِ ، وَلاَ يُحْبَسُ بالدَّيْنِ الَّذِي لَهُ عَلَيْهِ ؛ لأنَّهُ لَوْ لَمْ يُحْبَسْ فِي نَفَقَةِ الصَّغِيْرِ لَتَضَرَّرَ الْوَلَدُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ } ؛ أي مرجِعُكم ومرجعُ آبائِكم ، { فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ من الخيرِ والشرِّ. وقد تضمَّنت هذه الآيةُ النَّهيَ عن صُحبة الكفَّار والفُسَّاقِ ، والترغيبَ في صُحبةِ الصالِحين لقولهِ تعالى { وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ }.

(٠/٠)

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يابُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ } ؛ وذلك أنَّ ابنَ لُقمان سألَ أباهُ فقالَ : أرأيتَ الحبَّة التي تكون في قَعْرِ البحار ؛ أيعلَمُها اللهُ ؟ فأعلَمَهُ أنَّ الله يعلمُ الحبَّة أينما كانت.

وَقِيْلَ : إنَّ ابنَ لُقمان قال لأبيهِ : يا أبَتِ! إنْ عَمِلْتُ بالْخَطِيْئَةِ حيثُ لا يَرانِي أحدٌ ، كيف يعلَمُها اللهُ ؟ فقال لُقمان لابنهِ : { إِنَّهَآ إِن تَكُ } يعني إنَّ المعصيةَ إن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكون في صَخرَةٍ التي تحتَ الأرضين السَّبع أو في السَّموات أو في الأرضِ يأتِ بها اللهُ للجزاءِ عليها.

ومَن قرأ برفعِ (مِثْقَالُ) فتقديرهُ : أن تَقَعَ مثقالُ حبَّة.

وقولهُ تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } ؛ أي قَادِرٌ على الإتيانِ بها ، خَبيرٌ بموضِعها ، يُوصِلُها إلى صاحبها حيث كانَ. واللَّطِيْفُ : العالِمُ بكلِّ دقيقٍ وجليل. ومعنى الآيةِ : أن اللهَ تعالى ضَرَبَ هذا مَثلاً لأعمالِ العبادِ ، يعني أنه يأتِي بأعمالِهم يومَ القيامةِ ، وإنْ كان العملُ الصالح في الصِّغَرِ بوزنِ حبَّة مِن خردلٍ ، فاللهُ تعالى يحفظهُ ولا يخفَى عليه مكانهُ حتى يجازيه عليهِ ، ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ }[الزلزلة : ٧-٨].

(٠/٠)

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ } ؛ أي أقِمِ الصَّلاةَ التي افترضَها اللهُ عليكَ ، وأمُرْ بالطاعةِ وَانْهَ عن المعصيةِ ، { وَاصْبِرْ عَلَى مَآ أَصَابَكَ } ؛ من الأذِيَّةِ في الأمرِ بالمعروف والنَّهيِ عن المنكرِ ، وقولهُ تعالى : { إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ } ؛ أي الصَّبْرُ على ما أصابَكَ في ذات اللهِ مِن الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر مِن عِظَامِ الأُمور. وَقِيْلَ : مِن حقِّ الأُمور التي أمرَ اللهُ بها.

(٠/٠)

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ } ؛ قرأ نافعُ وأبو عمرو وحمزةُ والكسائي وخلف (تُصَاعِرْ)

بالألفِ ، وقرأ الباقونَ (تُصَعِّرْ) بغيرِ ألف. قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : لاَ تَتَكَبَّرْ فَتَحْقِرُكَ النَّاسُ ، وَلاَ تُعْرِضْ عَنْهُمْ بوَجْهِكَ إِذَا كَلَّمُوكَ) ، يقالُ : صَعَّرَ خَدُّكَ وَصَاعَرَ ، إذا مَالَ وأعرضَ تكبُّراً. والمعنى : لا تَتَعَظَّمْ على خلقِ الله ، ولا تُعرِضْ عنِ الناسِ تكبُّراً عليهم ، بل يكونُ الفقيرُ والغنيُّ عندَكَ سواءٌ ، ولا تَعْبَسْ في وجهِ أحدٍ مِن الناسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً } ؛ أي ولا تَمْشِ في الأرضِ بالإعجَاب والبَطَرِ وَازْدِرَاءِ الناسِ ، قال الحسنُ : (أَنَّى لابْنِ آدَمَ الْكِبَرُ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ مَخْرَجِ الْبَوْلِ مَرَّتَيْنِ؟!).

وروي : أنَّ الْمُهَلَّبَ بْنَ أبي صُفْرَةَ مَرَّ عَلَى مُطَّرِفِ بْنِ عَبْدِاللهِ وَهُوَ يَتَبَخْتَرُ فِي جُبَّةِ خَزٍّ ، فَقَالَ : (هَذِهِ مِشْيَةٌ يَبْغَضُهَا اللهُ وَرَسُولُهُ) فَقَالَ لَهُ الْمُهَلَّبُ : مَا تَعْرِفُنِي؟! قَالَ : (بَلَى ؛ أعْرِفُكَ ، أوَّلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ ، وَآخِرُكَ جِيْفَةٌ قَذِرَةٌ ، وَتُحْمَلُ بَيْنَ الْعُذْرَةِ) فَمَضَى الْمُهَلَّبُ وَتَرَكَ مِشْيَتَهُ تِلْكَ.

وروي : أنَّ عَبْدَاللهِ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ خَرَجَ يَوْماً يَتَمَشَّى ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ : (مَنْ هَذَا؟!) قَالُواْ : هَذَا وَلَدُكَ عَبْدُاللهِ ، قَالَ : ادْعُوهُ ، فَجَاؤُا بِهِ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ : (يَا بُنَيَّ! أتَدْرِي بكَمِ اشْتَرَيْتُ أُمَّكَ ؟ اشْتَرَيْتُهَا بثَلاَثِمِائَةِ دِرْهَمٍ ، وَأَبُوكَ لاَ كَثَّرَ اللهُ مِنْ مِثْلِهِ فِي النَّاسِ ، أتَمْشِي هَذِهِ الْمِشْيَةَ؟!).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } ؛ الاخْتِيَالُ : هو التَّبَخْتُرُ في المشي ، والفَخُورُ : هو الْمُتَطَاوِلُ بذِكْرِ المناقب على السَّامعِ والافتخار عليه ، وذلك مذمومٌ لأن المستحقَّ على نِعَمِ اللهِ شُكراً لا الْفِخْرَ.

(٠/٠)

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ } ؛ أي تَوَاضَع ولا تتبختر ، وليكن مشيُكَ قَصْداً لا تبختُراً ولا إسراعاً. قال صلى الله عليه وسلم : " سُرْعَةُ الْمَشْيِ تَذْهَبُ بَهَاءَ الْمُؤْمِنِ " يقالُ : قَصَدَ فلانٌ في مشيتِهِ إذا مشَى مُستوِياً ، وقال مقاتلُ : (لاَ تَخْتَالْ فِي مِشْيَتِكَ) ، وقال عطاءُ : (قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ } أيْ امْشِ بالْوَقَارِ وَالسَّكِيْنَةِ) كقولهِ تعالى : { وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً }[الفرقان : ٦٣] ، والمعنى : اقصِدْ في الْمَشْيِ ، لا تعجَلْ ولا تَمشِ بالْهُوَيْنَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ } ؛ أي اخفِضْ صوتَكَ ولا ترفعْهُ على وجهِ انتهار النَّاس وإظهار الاستخفافِ بهم ، وقال عطاءُ : (مَعْنَاهُ : اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِذَا دَعَوْتَ وَنَاجَيْتَ رَبَّكَ) ، وكذلك وصيَّةُ الله تعالى في الإنجيلِ لعِيسَى عليه السلام : مُرْ عِبَادِي يَخْفِضُوا أصْوَاتَهُم إذا دَعَونِي ، فإنِّي أسمعُ وأعلَمُ ما في قلوبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ } ؛ أي أقبحُ الأصواتِ صوتُ الحميرِ ؛ لأن أوَّلَهُ زفيرٌ وآخرهُ شهيقٌ. قال ابن زيدٍ : (لَوْ كَانَ فِي رَفْعِ الصَّوْتِ خَيْراً مَا جَعَلَهُ اللهُ لِلْحَمِيْرِ) ، وعن أُمِّ سعدٍ قالت : قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْغَضُ ثَلاَثَةَ أَصْوَاتٍ : نَهِيْقُ الْحِمَار ، وَنُبَاحُ الْكَلْب ، وَالدَّاعِيَةُ بالْوَيْلِ وَالْحَرْب " وقال سُفيان : (صِيَاحُ كُلِّ شَيْءٍ تَسْبِيحُهُ اللهَ إِلاَّ الْحِمَارُ فَإِنَّهُ يَنْهَقُ بلاَ فَائِدَةٍ).

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } ؛ أي أَلَمْ تَرَوا أنَّ اللهَ خَلَقَ وذَلَّلَ لِمنافِعِكم ولِمصَالحِكم ما في السَّمواتِ من الشَّمسِ والقمر والنجومِ والسَّحاب والمطَرِ ، وفي الأرضِ من الأشجارِ والأنْهَارِ والبحارِ والدَّواب.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً } ؛ أي أتَمَّ عليكم ووسَّعَ لكم نِعَمَهُ (ظَاهِرَةً) من الْخَلْقِ الحسنِ وسلامةِ الأعضاء الظاهرة ، (وبَاطِنَةً) من العقلِ والفهمِ والفطنة والمعرفةِ بالله.

وَقِيْلَ : النعمةُ الظاهرة هي الإسلامُ ، والباطنةُ ما يخفَى من الذُّنوب ويُسْتَرُ من العوراتِ. وَقِيْلَ : الظاهرةُ ما يعلمُ الناس من حسنَاتِكَ ، والباطنةُ ما لا يعلمون من السيِّئات.

وقال الضحَّاك : (الظَّاهِرَةُ : حُسْنُ الصُّورَةِ وَامْتِدَادُ الْقَامَةِ وَتَسْوِيَةُ الأَعْضَاءِ ، وَالْبَاطِنَةُ الْمَعْرِفَةُ). وَقِيْلَ : الظاهرةُ الإسلامُ وما أفْضَلَ عليكَ من الرِّزق ، والباطنةُ ما سَتَرَ من سوءِ عمَلِكَ.

وَقِيْلَ : الظاهرةُ نِعْمُ الدُّنيا ، والباطنةُ نِعَمُ العُقبَى. وَقِيْلَ : الظاهرةُ تسويةُ الظواهرِ ، والباطنةُ تصفيةُ السرائرِ. وَقِيْلَ : الظاهرةُ الرِّزْقُ الذي يكتسبُ ، والباطنةُ الرزقُ مِن حيث لا تحتسبُ. وَقِيْلَ : الظاهرةُ المدخل للغداءِ ، والباطنة المخرجُ للأذَى.

وَقِيْلَ : الظاهرةُ نِعْمَةٌ عليكَ بعد ما خرجتَ من بطنِ أُمِّكَ ، والباطنةُ نعمةٌ عليك وأنتَ في بطنِ أُمِّكَ.

وَقِيْلَ : الظاهرةُ ألوانُ العطَايَا ، والباطنةُ غفرانُ الخطايَا. وَقِيْلَ : الظاهرةُ المالُ والأولاد ، والباطنة الْهُدَى والإرشادُ. وَقِيْلَ : الظاهرة التوفيق للعبادات ، والباطنةُ الإخلاصُ من الْمُرَاءَاتِ. وَقِيْلَ : الظاهرةُ ما أعطى من النَّعماءِ ، والباطنة ما زوى من أنواعِ البلاء. وَقِيْلَ : الظاهرةُ إنزالُ القَطْرِ والأمطارِ ، والباطنةُ إحياءُ الأقطار والأنصار. وَقِيْلَ : الظاهرةُ ذِكْرُ اللسانِ ، والباطنةُ ذكر الجِنَانِ. وَقِيْلَ : الظاهرةُ ضياءُ النَّهار ، والباطنةُ ظلمة الليلِ للسُّكون والقرار.

ومَن قرأ (نِعْمَةً) على التوحيدِ فهي واحدةٌ تُبنَى على الجميعِ ، كما في قولهِ{ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا }[إبراهيم : ٣٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ } ؛ يعني النَّضْرَ بن الحارثِ يخاصمُ في آياتِ الله وفي صفاتهِ جَهْلاً بغير علمٍ ولا حجَّة ، { وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ } ؛ وقد تقدَّم تفسيرهُ في سُورةِ الحجِّ.

(٠/٠)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ } ؛ أي اعْمَلُوا بما أنزلَ اللهُ ، { قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَا } ؛ قالوا بل نعملُ بما وجدنا عليه آباءَنا ، وقد تقدَّم تفسيرُ ذلك في سُورة البقرةِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } ؛ فيتَّبعونَهُ.

(٠/٠)

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } ؛ أي مَن يُخْلِصُ طاعتَهُ للهِ وهو محسنٌ فيها فيفعَلُها على موجب الشَّريعة فقد أخذَ بالأمرِ الأوثقِ ، { وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ } ؛ تَرْجِعُ خواتِمُ { الأُمُورِ } ؛ كلِّها ، فيجزِي كلَّ عاملٍ بما عَمِلَ.

قرأ السُلَمِيُّ : (وَمَنْ يُسْلِّمْ) بالتَّشديدِ. ومعنى قولهِ تعالى { فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } أي اعْتَصَمَ بالطَّرَفِ الأوثقِ الذي لا يخافُ انقطاعَهُ. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (هُوَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ).

(٠/٠)

وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ } ؛ وذلك أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يُحْزِنُهُ كفرُهم مخافةَ أن يكون ذلك لتقصيرٍ من جهتهِ ، فَأَمَّنَهُ اللهُ مِن ذلكَ ، والمعنى : مَن كَفَرَ فلا تَهْتَمَّ لكُفرهِ ، فإنَّ رجوعَهم إلينا وحِسابُهم علينا ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ } ؛ أي نُخبرُهم بقبائحِ أعمالِهم في الدُّنيا ، ونجزيهم عليها ، { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } ؛ أي عليمٌ بما في القلوب من خيرٍ وشرٍّ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً } ؛ أن نُمهِلُهم في الدُّنيا يَسِيراً ، { ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ } ؛ أي ثُم نُجَلِّيهِمْ في الآخرةِ إلى عذابٍ شديدٍ.

(٠/٠)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ.

(٠/٠)

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : " وَذَلِكَ أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ ، أَتَتْهُ أَحْبَارُ الْيَهُودِ فَقَالُواْ : بَلَغَنَا أنَّكَ قُلْتَ : { وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً } أَعَنَيْتَنَا أمْ عَنَيْتَ قَوْمَكَ ؟ فَقَالَ : " بَلْ عَنَيْتُ الْجَمِيْعَ " فَقَالُواْ : أَلَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ أنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى وَفِيْهَا أنْبَاءُ كُلِّ شَيْءٍ

وَقَدْ خَلَّفَهَا فِيْنَا فَهِيَ مَعَنَا ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " التَّوْرَاةُ وَمَا فِيْهَا مِنَ الأَنْبَاءِ قَلِيْلٌ فِي عِلْمِ اللهِ " فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ".

والمعنى : لو جُعِلَ ما في الدُّنيا من الأشجار أقلاماً يكتبُ بها ، وصارَتِ الجنُّ والإنسُ كُتَّاباً ، والبحارَ مِدَاداً يَمدُّها من بعدِها سبعةَ أبْحُرٍ ؛ أي سبعةَ أمثالِ بحرِ الدُّنيا ، وكتبَ بها كلماتِ الله وحِكَمَهُ ، لانكسرَتِ الأقلامُ ، وأُعيَتِ الإنسُ والجنُّ ، وَفَنِيَتِ البحارُ قبل أن ينقطعَ كلامُ اللهِ وحِكَمُهُ ، { إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } ؛ أي عَزِيزٌ في سُلطانهِ ذُو حكمةٍ في قولهِ وأفعالهِ.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ معنى (كَلِمَاتُ اللهِ) تعالى في هذه الآيةِ : مَعانِي القُرْآنِ وفوائدِهِ ، وقال بعضُهم : وهي نِعَمُ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ ، وإن نِعَمَهُ في الآخرةِ غيرُ متناهيةٍ.

(٠/٠)

مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ } ؛ قال مقاتلُ : (قَالَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ : إِنَّ اللهَ خَلَقَنَا أَطْوَاراً نُطْفَةً ثُمَّ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً ثُمَّ لَحْماً ، فَكَيْفَ يَبْعَثُنَا خَلْقاً جَدِيْداً فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى { مَّا خَلْقُكُمْ } " أيها الناسُ على اللهِ سُبحَانَهُ " في القدرة إلاّ كخلقِ نفسٍ واحدةٍ ، وبعثِ نفسٍ واحدةٍ ؛ { وَلاَ بَعْثُكُمْ } في قدرةِ اللهِ على بعثِ الْخَلْقِ كلِّهم (إلاّ) كقدرتهِ على بعثِ نفس واحدةٍ ، { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ } ؛ لِما قالوا من أمرِ الخلقِ والبعثِ ، { بَصِيرٌ } ؛ بهِ.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ } ؛ أي أَلَمْ تَعلَمْ أنَّ اللهَ يزيدُ من ساعاتِ اللَّيل في ساعاتِ النهار صَيفاً ، ويزيدُ في ساعاتِ النَّهار في ساعاتِ الليل شتاءً ، { وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } ؛ أي ذَلَّلهما لِمنافعِ بني آدم يَجريان إلى يومِ القيامة ، ثُم

يسقُطان ، وينقطعُ جَريُهما ، { وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } ؛ أي خَبيْرٌ بأعمالِكم في الدُّنيا ويُجازيكم عليها.

(٠/٠)

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ } ؛ أو لِتعلَمُوا أنَّ عبادةَ الله حقٌّ ، { وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ } ؛ من عباده ، { الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ } ؛ بصفاتِهِ ، { الْكَبِيرُ } ؛ الذي لا شَيءَ مثلهُ في كِبريائِهِ وعَظَمتِهِ.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ } ؛ أي أَلَمْ تعلَمْ أنَّ السُّفنَ تجري في البحرِ بإنعَامِ اللهِ تعالى ، لو لَم يخلُقِ الرِّياح والماءَ على الهيئةِ التي خلَقَها الله عليها لَما جَرَتِ السُّفن على ظهرِ الماءِ ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ } ؛ أي لدلالات على توحيد الله ، { لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } ؛ أي كثيرِ الصَّبرِ على الطاعات والْمِحَنِ ، شَكُوراً أي كثيرَ الشُّكر على نِعَمِ الله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم : " إنَّ أحَبَّ الْعِبَادِ إلَى اللهِ مَنْ إذَا أُعْطِيَ شَكَرَ ، وَإذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ ".

(٠/٠)

وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } ؛ أي إذَا أصابَهم في البحرِ مَوْجٌ كالجبالِ في الارتفاعِ دَعَوُا اللهَ مُخلِصِينَ له الدُّعاء ، { فَلَمَّا نَجَّاهُمْ } ؛ من البحرِ وأهوالِهِ ، { إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ } ؛ أي منهم مَن يثبتُ على ذلكَ ، ومنهم مَن يجحَدُ. ثُم قال : { وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ } ؛ أي لاَ ينكِرُ دلائلَ توحيدِنا ، { إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ } ؛ أي غَدَّارٍ ، { كَفُورٍ } ؛ أي أكثرَ الكُفْرَ بآياتِ الله ونِعَمِهِ. والْخَتْرُ في اللُّغة : أقبحُ الغَدْر. والظُّلَلُ : جمعُ ظُلَّةٍ وهي السَّحابةُ التي ترتفعُ فتغَطِّي ما تحتَها.

وإنَّ هذه الآيةَ كانت سببَ إسلامِ عِكْرِمَةَ بن أبي جهلٍ ، وذلك أنَّهُ لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ ، أَمَّنَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم النَّاسَ إلاَّ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ ، فَإِنَّهُ قَالَ : " اقْتُلُوهُمْ ، وَلَوْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِيْنَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ : عِكْرِمَةُ بْنُ أبي جَهْلٍ ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ الأَخْطَلِ ، وَمَقِيْسُ بْنُ صَبَابَةَ ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ سَعْدِ بنِ أبي سَرْحٍ ".

فأمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ فِي الْبَحْرِ ، فَأَصَابَهُمْ رِيْحٌ عَاصِفٌ ، فَقَالَ أَهْلُ السَّفِيْنَةِ : أَخْلِصُواْ فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً هَا هُنَا ، فَقَالَ عِكْرِمَةُ : (لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي فِي الْبَحْرِ إلاَّ الإِخْلاَصُ مَا يُنْجِيْنِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ) ثُمَّ قَالَ : (اللَّهُمَّ إنَّ لَكَ عَهْداً إنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيْهِ أَنْ آتِيَ مُحَمَّداً حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ) فَجَاءَ فَأَسْلَمَ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَاخْشَوْاْ يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ } ؛ أي اتَّقُوا مخافةَ ربكُم ، واخشَوا عذابَ يومٍ لا يُغنِي والدٌ عن ولدهِ ، { وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً } ؛ لاشتغالِ كلٍّ منهُم لنفسهِ.

وَقِيْلَ : معنى { لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ } أي لا يَحْمِلُ شيئاً من سيِّئاتهِ ولا يُعطيهِ شيئاً من طاعتهِ ، { إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } ؛ في البعث والجزاء أي صدق كائن ، { فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } ؛ فلاَ تغترُّوا بالحياة الدُّنيا وما فيها من زينَتِها وزهرَتِها ، { وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ } ؛ الشَّيطانُ ، فإنه هو الغَرُورُ ، وهو الذي مَن يشاءُ أن يُغَرَّ ، وغُرُورُ الشَّيطانِ تَمْنِيَتُهُ العبدَ : فإنَّ اللهَ تعالى غَفُورٌ ، فَهَوَّنَ عليه رُكوبَ المعاصِي وما يَهواهُ.

ومَن قرأ (الْغُرُورُ) بضمِّ الغَينِ فهي مصدرٌ ، ومعناهُ : الأبَاطِيلُ. وعن سعيدِ بنِ جُبير : (إنَّ الْغُرُورَ تَمَنِّي الْمَغْفِرَةِ مَعَ الإصْرَار عَلَى الْمَعْصِيَةِ).

(٠/٠)

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ } ؛ نزلت هذهِ الآيةُ في الْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ ، أتَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : إنَّ أرْضَنَا أجْدَبَتْ ، فَمَتَى الْغَيْثُ ؟ وَقَدْ تَرَكْتُ امْرَأتِي حُبْلَى ، فَمَاذَا تَلِدُ ؟ وَقَدْ عَلِمْتُ بأَيِّ أرْضٍ وُلِدْتُ – أيْ عَلِمْتُ أيْنَ وُلِدْتُ – فَبأَيِّ أرْضٍ أمُوتُ ، وَقَدْ عَلِمْتُ مَا عَمِلْتُ الْيَوْمَ ، فَمَا أعْمَلُ غَداً ؟ وَمَتَى السَّاعَةُ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

وقال صلى الله عليه وسلم : " مَفَاتِيحُ الْغَيْب خَمْسَةٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إلاَّ اللهُ ، لاَ يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إلاَّ اللهُ ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إلاَّ اللهُ ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا كَسْبُهُ فِي غَدٍ إلاَّ اللهُ ، وَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ بأَيِّ أرْضٍ تَمُوتُ إلاَّ اللهُ ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى يَنْزِلُ الْغَيْثُ إلاَّ اللهُ ".

يقالُ : إنَّ هذه الخمسة الأشياءِ التي ذَكَرَها اللهُ في هذه الآيةِ هي مفاتيحُ الغَيْب لا يعلمُها إلاَّ اللهُ ، استأثَرَ اللهُ بهِنَّ ، فلم يُطْلِعْ عليهِنَّ مَلَكاً مُقرَّباً ولا نَبيّاً مُرسَلاً.

ومعنى الآيةِ : { إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ } قيامِ { السَّاعَةِ } ، فلا يدري أحدٌ سواهُ متى تقومُ ، في أيِّ سَنةٍ أو في أيِّ شهرٍ ، ليلاً أو نَهاراً. وقوله { وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ } معناهُ : هو المختصُّ بإنزالِ الغيثِ ، وهو العالِمُ بوقتِ إنزالهِ ، (ويَعْلَمُ مَا فِي الأَرْضِ) أي لا يعلمُ أحدٌ ما في الأرحامِ أذكرٌ أم أُنثَى ، أحمرٌ أم أسودٌ ، وإنَّما يعلمهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نطفةً وعلقة ومُضغةً ، وذكراً أم أُنثى ، وشقِيّاً وسَعيداً ، ومتى ينفصلُ عن أُمِّهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى { وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً } يعنِي : ماذا تكسبُ من الخيرِ والشرِّ ، أي مَا تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً خَيراً أو شرّاً ، { وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ } أي في بَرٍّ أو بحرٍ أو سَهلٍ أو جبلٍ. قال ابنُ عبَّاس : (هَذِهِ الْخَمْسَةُ لاَ يَعْلَمُهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلاَ نَبيٌّ مُرْسَلٌ مُصْطَفَى ، فَمَنِ ادَّعَى أنَّهُ يَعْلَمُ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ فَقَدْ كَفَرَ بالْقُرْآنِ لأنَّهُ خَالَفَهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } ؛ أي عَلِيمٌ بخَلقهِ ، خَبيْرٌ بأعمالِهم وبما يصيبُهم في مستقبلِ عُمرِهم.

وروي أن يهودياً كان في المدينة يحسب حساب النجوم ، فقال اليهوديُّ لابن عباس : إن شئت أنبأتك

عن ولدك وعن نفسك ، إنك ترجع الى منزلك فتلقى إبناً لك محموماً ، ولا يمكث عشرة أيام حتى يموت الولد ، وأنت لا تخرج من الدنيا حتى تعمى ، فقال ابن عباس : وأنت يا يهودي ، قال : لا يحول عليَّ الحول حتى أموت ؟ قال : فأين موتك يا يهودي ؟ قال ما أدري ، قال ابن عباس : صدق الله { وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ } قال فرجع ابن عباس فلقي إبناً له محموماً ، فلما بلغ عشراً مات الصبي ، ويقال عن اليهودي " أنه ماتَ قبل الحول " ، وما خرج ابن عباس من الدنيا حتى كُفَّ بصره.

(٠/٠)

الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)

{ الم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ أي الم هو تنْزيلُ الكتاب ، لا شكَّ فيه أنه تَنَزَّلَ من رب العالمين ، { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ } ؛ معناهُ : يقول أهلُ مكَّة : اخْتَلَقَهُ مُحَمَّد من تلقاءِ نفسه ، وليس كما يقولون ، { بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً } ؛ أي لتخوِّفَ بالقرآن قَوماً ؛ { مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ } ؛ لم يشاهدوا قبلَكَ في زمانِهم الذي هم فيه رسُولاً مُخَوِّفاً ؛ { لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } ؛ أي لكي يهتَدُوا إلى الإيمانِ.

(٠/٠)

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } ؛ أي في مقدار ستَّة أيام من أيامِ الدنيا ، أوَّلُها يوم الأحدِ ، { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } ؛ أي استولَى عليه ، وقد تقدَّم في ذلك في سورة الأعرافِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ } ؛ أي قريبٍ ينفعُكم ، { وَلاَ شَفِيعٍ } ؛ يشفعُ لكم ، { أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ } ؛ أي أفلاَ تعتَبرون.

(٠/٠)

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الأَرْضِ } ؛ أي يدبرُ اللهُ أمرَ الدنيا مدَّة أيامها ، فيُنْزِلُ القضاءَ والقدرَ من السَّماء إلى الأرضِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } ؛ قال ابنُ عباس : مَعْنَاهُ يَعُودُ إِلَيْهِ الأَمْرُ وَالتَّدْبيرُ حِينَ يَنْقَطِعُ أَمْرُ الأُمَرَاءِ وَأَحْكَامُ الْحُكَّامِ ، وَيَنْفَرِدُ اللهُ تَعَالَى بالأَمْرِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ) يَعْنِي أنَّ يَوْماً مِنْ أيَّامِ الآخِرَةِ مِثْلَ أَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ مِنْ أيَّامِ الدُّنْيَا ، وَأرَادَ بهَذا الْيَوْمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقِيْلَ : معناهُ : يقطع الملَكُ من المسافةِ نازلاً وصاعداً في يومٍ واحد وهو مسيرةُ ألفِ عام مما يعدُّه أهل الدنيا بمسيرِهم ، وذلك أنَّ بين السماءِ والأرض مسيرةَ خمسمائة عامٍ لبني آدمَ ، وصعودهُ من الأرضِ إلى السماء كذلكَ ؛ والملَكُ يقطعهُ في يومٍ واحد. ولو أرادَ الله من الملَك الصعودَ والنُّزول بدون مقدارِهِ (اليومَ) لفعلَهُ الملَك.

وأما قولهُ{ تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ }[المعارج : ٤] فإنْ كان أرادَ مدَّةَ المسافةِ من الأرض إلى سِدْرَةِ المنتهَى التي فيها مقامُ جبريل ، فالمعنى يسيرُ جبريلُ والملائكة الذين معه من أهلِ مقامه مسيرةَ خمسين ألفَ سنةٍ في يوم واحدٍ من أيامِ الدنيا ، فيكون معنى قوله تعالى : { إِلَيْهِ } على هذا التأويلِ ؛ أي إلى مكان الملَك الذي أمرَهُ الله أن يعرجَ إليه ، وكقول إبراهيمَ عليه السلام : { إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي }[الصافات : ٩٩] أي حيث أمرَني ربي بالذهاب إليه ، وهو الشَّام.

وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ }[النساء : ١٠٠] أي إلى المدينةِ. ولم يكن اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالمدينةِ ولا بالشام.

وعن أبي هريرةَ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " أتَانِي مَلَكٌ لَمْ يَنْزِلْ إِلَى الأَرْضِ قَبْلَهَا قَطُّ بِرِسَالَةٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ رَفَعَ رِجْلَهُ فَوَضَعَهَا فَوْقَ السَّمَاءِ وَالأُخْرَى فِي الأَرْضِ لَمْ يَرْفَعْهَا ".

(٠/٠)

ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } ؛ أي ذلك الذي صَنَعَ ما ذكرناهُ من خلقِ السموات والأرض ، هو عالِمُ ما غابَ عن الخلقِ وعالِمُ ما خفِيَ ، لا يقدرُ عليه سواهُ كما لا يعلم الغيبَ غيرهُ.
وقوله تعالى : { الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } ؛ أي القادرُ الذي لا يُقاوَم ، المنيعُ في مُلكهِ ، المنعِمُ على عبادهِ.

(٠/٠)

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨)

وقولهُ تعالى : { الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ } ؛ قرأ نافع وأهل الكوفة : (خَلَقَهُ) بفتحِ اللام على الفعل ؛ أي أحكمَ كلَّ شيء مما خلَقهُ. وقرأ الباقون : (خَلْقَهُ) بسكون اللام ؛ أي أحسنَ خلقَ كلِّ شيء ، فيكون نصبُ قوله : (خَلْقَهُ) على البدلِ. وقال مقاتلُ : ((مَعْنَاهُ : الَّذِي عَلِمَ كَيْفَ يَخْلُقُ الأَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ أنْ يُعْلِّمَهُ أحَدٌ)). وقال السديُّ : ((أحْسَنَهُ : لَمْ يُعَلِّمْهُ مِنْ أحَدٍ)).
قِيْلَ : إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا طوَّل رجل البهيمةِ والطير ، طوَّل عُنقَهُ لئلا يتعذرَ عليه تناولُ قُوتِه من الأرض ، ولو لم يطوِّل عنُقه لما نالَ معيشته.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ } ؛ يعني آدمَ عليه السلام كان أول طيناً ، { ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ } ؛ أي ذرِّيته ، { مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ } ؛ أي من قليلٍ من الماء ينسَلُّ من صُلب الرجل وترائب المرأة ، وهي النطفةُ ، ووصفَها بالـ (مُهِينٍ) لأنه لا خطرَ له عند الناسِ. وسُميت سُلالةً لأنَّها تَنْسَلُّ من الإنسانِ ؛ أي تخرجُ. والهيِّنُ هو الضعيفُ.

(٠/٠)

ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ } ؛ رجعَ إلى ذكرِ آدم ، يعني سوَّى خلقَهُ ونفخَ فيه من روحهِ ؛ ثم عادَ إلى ذُريَّته فقال : { وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ } ؛ بعد أنْ كنتم نُطَفاً. والأفئدةُ هي القلوبُ ، { قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ } ؛ هذه النِّعَمَ فتوحِّدونَهُ. والمعنى : خلقَ لكم السمعَ فاستمِعُوا إلى الحقِّ ، والأبصارَ فأبصِرُوا الحقَّ ، والأفئدةَ ؛ أي القلوبَ ؛ فاعقِلُوا الحقَّ.

وَقِيْلَ : معنى { ثُمَّ سَوَّاهُ } يعني الماءَ المهينَ جَمَعَهُ وخلقَهُ وصوَّرَهُ ونفخَ فيه من روحِهِ ؛ أي نفخَ فيه الروحَ الذي يحيا به الناسُ. أضافَ الله ذلك إلى نفسهِ لأنه هو الخالقُ.

(٠/٠)

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } ؛ أي قال الكفارُ : إئذا هلَكنا وانقطعت أوصالُنا وذهبت آثارُنا وصِرنَا تُراباً ، فلم يتبيَّن شيءٌ من خلقِنا ، أنُبعَثُ بعد ذلك؟! هذا لا يكونُ أبداً. ومعنى الضَّلالة في اللغة : الغيبوبةُ ، يقال : ضلَّ متاعُ فلان وضاعَ ، بمعنى واحد.
وقولهُ تعالى : { بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ } ؛ أي ليس كما يقولون أنَّهم لا يُبعثون ، بل هم بلقاءِ ربهم كافِرُون.

(٠/٠)

قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ } ؛ أي يقبضُ أرواحَكم أجمعين ملكُ الموتِ ، { الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ } ؛ قال مجاهد : ((حُوِيَتْ لَهُ الأَرْضُ فَجُعِلَتْ لَهُ مِثْلَ طِسْتٍ ، يَتَنَاوَلُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ)). وقال الكلبيُّ : ((اسْمُ مَلَكِ الْمَوْتِ عِزْرَائِيلُ ، وَلَهُ أَرْبَعَةُ أَجْنِحَةٍ : جَنَاحٌ مِنْهَا بِالْمَشْرِقِ ، وَجَنَاحٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَالْخَلْقُ بَيْنَ رِجْلَيْهِ وَرَأْسِهِ وَجَسَدِهِ ، وَجُعِلَتْ لَهُ الدُّنْيَا مِثْلَ رَاحَةِ الْيَدِ لِصَاحِبِهَا ، يَأْخُذُ مِنْهَا مَا أُمِرَ بِقَبْضِهِ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلاَ عَنَاءٍ ، وَلَهُ أَعْوَانٌ مِنْ مَلاَئِكَةِ الرَّحْمَةِ وَمِنْ مَلاَئِكَةِ الْعَذَابِ)).
وعن أنسِ بن مالك قال : [لَقِيَ جِبْرِيْلُ مَلَكَ الْمَوْتِ بنَهْرِ فَارسَ ، فَقَالَ : يَا مَلَكَ الْمَوْتِ كَيْفَ تَسْتَطِيعُ قَبْضَ الأَنْفُسِ ، هَا هُنَا عَشْرَةُ آلاَفٍ ، وَهَا هُنَا كَذا وَكَذا ؟ قَالَ عِزْرَائِيلُ : تُزْوَى لِيَ الأَرْضُ حَتَّى كَأَنَهَا بَيْنَ فَخِذيَّ فَأَلْتَقِطُهُمْ بِيَدَيَّ].
وقالَ صلى الله عليه وسلم : " إذا حَانَ أَجَلُ الرَّجُلِ ، أَتَاهُ مَلَكٌ فَقَالَ : أَيُّهَا الْعَبْدُ كَمْ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ ، وَكَمْ رَسُولٌ بَعْدَ رَسُولٍ ؟ أَنَا الْخَبِيرُ لَيْسَ بَعْدِي خَبِيرٌ ، وَأَنَا الرَّسُولُ لَيْسَ بَعْدِي رَسُولٌ ، أَجِبْ رَبَّكَ طَائِعاً أَوْ مَكْرُوهاً. فَإِذا قُبِضَتْ رُوحُهُ وَتَصَارَخُوا عَلَيْهِ ، قَالَ : عَلَى مَنْ تَصْرِخُونَ وَعَلَى مَنْ تَبْكُونَ ؟ وَاللهِ مَا

ظَلَمْتُ لَكُمْ أجَلاً وَلاَ أكَلْتُ لَكُمْ رزْقاً ، بَلْ دَعَاهُ رَبُّهُ ، فَلْيَبْكِ الْبَاكِي عَلَى نَفْسِهِ ، فَإنَّ لِي فِيكُمْ عَوْدَاتٍ وَعَوْدَاتٍ حَتَّى لاَ أُبْقِي مِنْكُمْ أحَداً ".

وقولهُ تعالى : { ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } ؛ أي تصِيرون إليه أحياءً فيجزِيَكم بأعمالِكم.

(٠/٠)

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ } ؛ يعني كفارَ مكَّة ناكِسُوا رؤوسهم حياءً وندماً ، والمعنى : ولو تَرَى يا مُحَمَّدُ إذِ المجرمون مُطرِقوا رؤوسهم من الخزْيِ وشدة الندمِ في يومِ القيامة عند علمِهم بأن الحجَّةَ قد قامت عليهم من كلِّ جهةٍ ، وأنَّهم لا مهربَ لهم من العذاب ، وذلك هو الغايةُ في الوجَلِ والخجلِ ، يقولون : { رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا } ؛ أي لكَ الحجَّة علينا لأنا أبصَرْنا رسُلكَ وسمعنا كلامَهم ، { فَارْجِعْنَا } ؛ أي ولكن نسألُكَ أن تُرجِعَنا إلى الدُّنيا حتى ، { نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ } ؛ بكَ وبكتابك وبرسُلكَ ، وهذه الآية محذوفةُ الجواب ؛ أي لو رأيتَ يا مُحَمَّد ، لرأيتَ غايةَ ما تعتبرُ به.

(٠/٠)

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا } ؛ قال الحسنُ : ((أرَادَ بِهِ مَشِيئَةَ الْقَدَرِ مِنَ اللهِ تَعَالَى ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَعْجَزْ عَنْ شَيْءٍ ، وَلَكِنَّهُ لاَ يُجْبِرُ الْعِبَادَ عَلَى ذلِكَ لِكَيْ لاَ يُبْطِلَ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ)). والمعنَى : ولو شِئنا لآتَينا كلَّ نفسٍ رُشدَها وثباتَها ، ومثلُ ذلك{ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً }[يونس : ٩٩]{ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى }[الأنعام : ٣٥].

وقوله تعالى : { وَلَـاكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي } ؛ معناه : ولكن وجب قولي عليهم بالعذاب ، { لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } ؛ بكفرهم وذنوبهم.

(٠/٠)

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)

وقولهُ تعالى : { فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَاذَآ } ؛ معناهُ : يقال لأهلِ النار إذا دخَلوها : ذُوقوا العذابَ بما نسيتُم لقاءَ يومِكم هذا ؛ أي بما تركتُم الإيمانَ بيومكم هذا. وقولهُ تعالى : { إِنَّا نَسِينَاكُمْ } ؛ أي تركناكم في العذاب وأحلَلناكم محلَّ المنسيِّ ، { وَذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ } ؛ أي الذي لا ينقطعُ ، { بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ من الكفرِ والتكذيب.

(٠/٠)

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا } ؛ معناه : إنما يُقِرُّ ويصدِّقُ بدلائلنا ، { الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا } ؛ أي وُعِظُوا بها ، { خَرُّواْ سُجَّداً } ؛ للهِ مُصَلِّين مع الإمامِ ، { وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } ؛ أي عظَّمُوا اللهَ ونزَّهوهُ في صلاتِهم حامِدين لربهم ، { وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ } أي يُعفِّروا وجوهَهم صاغِرين.

(٠/٠)

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ } ؛ أي ترفعُ لأجلِ الصلاة ، قال مجاهد : ((هُمُ الَّذِينَ لاَ يَنَامُونَ حَتَّى يُصَلُّوا الْعِشَاءَ الآخِرَةَ)). والمضاجِعُ : هي الفُرُشُ التي يضطَجِعون عليها للنوم ، واحدُها مَضْجِعٌ.

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال : ((نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعَاشِرَ الأَنْصَار ، حَتَّى كُنَّا نُصَلِّي الْمَغْرِبَ فَلاَ نَرْجِعُ حَتَّى نُصَلِّي الْعِشَاءَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم)). ورُوي : أنَّ امرأةً جاءت إلى أنسِ بن

مالك فقالت : إنِّي أنامُ قبلَ العشاءِ ، فقال : ((لاَ تَنَامِي ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ لاَ يَنَامُونَ قَبْلَ الْعِشَاءِ ، تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ)).

وقال الحسنُ : ((المُرَادُ بالآيَةِ قِيَامُ اللَّيْلِ وَالتَّجَهُّدُ)) ، وكان يقولُ : ((هُمْ قَوْمٌ أخْفُوا للهِ تَعَالَى عَمَلاً ، وَأخْفَى لَهُمْ ثَوَاباً)).

وعن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ ، فَإِنَّهُ دَأبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ ، وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللهِ تَعَالَى ، وَمُنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ ، وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ ، وَمَطْرَدَةُ للدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ " وقال الضحَّاك : ((هُوَ أنْ يُصَلِّيَ الرَّجُلُ الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً } ؛ أي خَوفاً من عذاب الله وطَمعاً في رحمةِ الله. وانتصبَ (خَوْفاً) و(طَمَعاً) لأنه مفعولٌ له. وقولهُ تعالى : { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } ؛ أي ومما أعطَيناهم من المالِ يتصدَّقون واجباً وتطوُّعاً.

(٠/٠)

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)

وقولهُ تعالى : { فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ } ؛ أي لا يعلمُ أحدٌ ما أخفَى اللهُ لهم مما تُقَرُّ به أعينُهم وتطيبُ به أنفسهم ، { جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ في الدُّنيا من الأعمالِ الصَّالحة.

قال ابنُ مسعود : ((إنَّ فِي التَّوْرَاةِ مَكْتُوبٌ : لَقَدْ أعَدَّ اللهُ لِلَّذِينَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْب بَشَرٍ ، وَمَا لَمْ يَحْمِلْهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ، وَإِنَّهُ فِي الْقُرْآنِ : { فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }.)).

قرأ حمزةُ : (مَا أُخْفِيْ لَهُمْ) بإسكان الياء ؛ أي ما أُخفِي لهم أنَا ، وحجَّتهُ (قُرَّة). وقرأ عبدُالله : (نُخْفِي لَهُمْ) بالنون. وقرأ مُحَمَّد بن كعبٍ : (مَا أخْفَى لَهُمْ) بفتح الألف والفاء ، يعني أخفَى اللهُ لهم.

(٠/٠)

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ } ؛ قال ابنُ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا :

((نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَلِيِّ بْنِ أبي طَالِبٍ وَالْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أبي مُعَيْطٍ ، جَرَى بَيْنَهُمَا تَنَازُعٌ وَتَسَابٌّ ، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ : اسْكُتْ فَإِنَّكَ صَبِيٌّ وَأَنَا وَاللهِ أَحَدُّ مِنْكَ لِسَاناً وَأَبْسَطُ مِنْكَ فِي الْقَوْلِ ، وَأَمْلأُ مِنْكَ فِي الْكَتِيبَةِ. فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه : أَسْكُتْ فَإِنَّكَ فَاسِقٌ تَقُولُ الْكَذِبَ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)).

والمرادُ بالمؤمنِ : عليَّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، وبالفاسق : الوليدَ بن عُقبة.

وقال الزجاجُ : ((إِنَّهُ لَمْ يُرِدْ بالْمُؤْمِنِ مُؤْمِناً ، وَلِذلِكَ قَالَ : (لاَ يَسْتَوُونَ) وَلَمْ يَقُلْ : لاَ يَسْتَوِيَانِ)). وقال قتادةُ في معنى الآيةِ : ((وَاللهِ مَا اسْتَوَواْ لاَ فِي الدُّنْيَا وَلاَ عِنْدَ الْمَوْتِ وَلاَ فِي الآخِرَةِ)).

(٠/٠)

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى } ؛ التي يأوي إليها المؤمنون ، وقوله : { نُزُلاً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ أي مُعدَّة لهم بأعمالِهم.

(٠/٠)

وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)

وقولهُ تعالى : { وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ } ؛ أي وأما الذين خرَجُوا من طاعةِ الله بكُفرِهم ، فمأواهُم النارُ ، { كُلَّمَآ } ؛ رفعَهم لَهبُ النار إلى أعلاها ، فظَنُّوا أنَّهم يخرُجون منها فـ ، { أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا } ، ردَّتْهم ملائكةُ العذاب إلى أسفلِها بمقامعَ من حديدٍ ، { وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } ؛ في الدُّنيا.

(٠/٠)

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)

وقوله تعالى : { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى } ؛ قِيْلَ : إن المرادَ بالعذاب الأدنى هو القحطُ والجوع الذي أصابَ أهل مكَّة سبعَ سنين حتى أكَلُوا الجيفَ والعظامَ والكلاب. وَقِيْلَ : هو القتلُ يومَ بدرٍ. وَقِيْلَ : العذابُ الأدنَى هو مصائبُ الدنيا وأسقامها وبلاؤها. وَقِيْلَ : العذابُ الأدنى هو عذابُ القبرِ ، والعذابُ الأكبر هو عذابُ يومِ القيامة. وقولهُ تعالى : { دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ } ؛ يعني بالعذاب الأكبر عذابَ الآخرة ، وقوله تعالى : { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ؛ أي أخبَرناهم ليرجِعُوا عن الكفرِ.

(٠/٠)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ } ؛ ظاهرُ المعنى. قولهُ : { إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ } ؛ يعني الذين قُتلوا ببدر ، وعجَّلنا أرواحَهم إلى النار. وأرادَ بالْمُجرِمين المشركين. وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ثَلاَثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ أَجْرَمَ : مَنْ عَقَدَ لِوَاءً فِي غَيْرِ حَقٍّ ، أَوْ عَقَّ وَالِدَيْهِ ، أَوْ مَشَى مَعَ ظَالِمٍ لِيَنْصُرَهُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ } ".

(٠/٠)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)

قَولُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } ؛ أعطيناهُ التوراةَ جُملةً واحدةً ، { فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ } ؛ وعَدَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن سيَلقى موسَى قبل أن يموتَ ، ثم لَقِيَهُ في السَّماء ليلةَ المعراجِ أو في بيت المقدس حين أُسرِيَ به ، والمعنى : فلا تكن في شكٍّ من لقاءِ موسى. قال ابنِ عباس : ((يَعْنِي لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ)). ويقال : أرادَ به لقاؤهما في الجنَّة. ويقال : أرادَ به لقاءَ الله. ويقال : أرادَ به أن يلقَى مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم من قومهِ الأذى مثلَ ما لَقِيَ موسى من قومهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ } ؛ أي جعَلنا التوراةَ هُدًى لبني إسرائيلَ من الضَّلالة ، { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً } ؛ أي جعَلنا من بني إسرائيل أئمَّة ، { يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا } ؛ يدُلُّون الناسَ على ديننا فيُقتدَى بهم ، فهم أنبياؤهُم ومَنِ استقامَ منهم على الدِّين. وقوله تعالى : { لَمَّا صَبَرُواْ } ؛ أي لما صبَرُوا جعلناهم أئمَّة ، كأنه قال : إنْ صبَرتُم على طاعتنا وصبرتُم على معصيتنا جعلناكم أئمَّة.

قرأ حمزةُ والكسائي : (لِمَا صَبَرُوا) بكسرِ اللام وتخفيف الميم ؛ أي لِصَبْرِهِمْ. ومعنى القراءةِ الأُولى : حين صَبَروا. والمعنى : لَمَّا صبَروا على دينهم وعلى البلاءِ من عدوِّهم بمصر ، { وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } ؛ أي ولكونِهم موقنين بآياتِنا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ؛ أي هو الذي يقضِي بين المؤمنين والكفار يومَ القيامة ، { فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } ؛ من الدِّين.

ثم خوَّفَ كفارَ مكة فقال : { أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ } ؛ أي أوَلَمْ يتبيَّن لهم آثارُ عذاب الاستئصالِ فيمَن أُهلِكَ قبلَهم من الأُمم الماضية المكذِّبة ما يكون عبرةً لهم ، يَمشُونَ في مساكنِ المهلَكين على منازلهم وقُراهم ، مثل آثار عادٍ وثَمود وقومِ لوط وغيرهم ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ } ؛ أي إنَّ في إهلاكِنا إياهم بالتكذيب ، { لآيَاتٍ } ؛ لدلالاتٍ واضحة لِمَن بعدَهم ، { أَفَلاَ يَسْمَعُونَ } ؛ سماعَ القبول والطاعةِ. ومن قرأ (أوَلَمْ نَهْدِ) بالنون ، فالمعنى بإضافةِ الفعلِ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ الْمَآءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ } ؛ معناه : أوَلَمْ يعلَمُوا أنا نسوقُ المطرَ بالسَّحاب والرياح إلى الأرضِ اليابسة التي لا نباتَ فيها ولا شجرَ ، { فَنُخْرِجُ بِهِ } ؛ بذلك المطرِ ، { زَرْعاً } ؛ رزْقاً ، { تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ } ؛ أي تأكلُ أنعامهم من سَاقِها ، { وَأَنفُسُهُمْ } ؛ وهم يأكلون مِن حبها ، { أَفَلاَ يُبْصِرُونَ } ؛ أفلا يعقِلون.

والأرض الْجُرُزُ : هي التي تأكلُ نباتَها ، يقال : ناقة جَرُوزٌ إذا كانت أكُولاً ، وسيفٌ جِرَازٌ إذا كان مُستأصِلاً ، ورجلٌ جُرُزٌ إذا كان أكُولاً. قال ابنُ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : ((هِيَ أَرْضٌ بالْيَمَنِ)). وقال مجاهدُ : ((هِيَ أَبْيَنُ)).

(٠/٠)

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَقُولُونَ مَتَى هَاذَا الْفَتْحُ } ؛ وذلك أن كفارَ مكة كانوا يُؤذون أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يقولون : يوشِكُ أن يكون لنا يومٌ نستريحُ فيه من شِركهم ، فكان الكفارُ يهزَءون بهم ويقولون : متى هذا الفتحُ ؛ أي الحكمُ الذي بيننا وبينكم ، { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } ؛ فيما تقولُون.

والمعنى : أنَّ كفارَ مكة يقولون : متى هذا الفتحُ ؛ أي القضاءُ وهو يوم البعثِ ، يقضي فيه اللهُ بين المؤمنين والكافرين.

فقالَ اللهُ تعالى : { قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ } ؛ يعني يومَ القيامة ويومَ القضاءِ والفصل ، { لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِيمَانُهُمْ } ؛ لو آمَنُوا يومئذٍ ، { وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ } ؛ أي ولا هم يُمهَلون ، ولا يؤخَّرون لمعذرةٍ أو توبة ، ولا تؤخَّرُ عنهم عقوبتُهم.

وعن ابنِ عبَّاس في هذه الآيةِ : ((الْمُرَادُ بالْفَتْحِ فَتْحُ مَكَّةَ ، وَأَنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي بَنِي خُزَيْمَةَ ، كَانُوا هُمُ الَّذِينَ يَسْتَهْزِئُونَ بأَصْحَاب النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم " حِينَ كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم يَتَذَاكَرُونَ وَهُمْ بمَكَّةَ فَتْحَ مَكَّةَ لَهُمْ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ تَكَلَّمَتْ بَنُو خُزَيْمَةَ بكَلِمَةِ الإِسْلاَمِ ، فَقَتَلَهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ إِسْلاَمَهُمْ)) وَكَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ " ".

(٠/٠)

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } ؛ أي عن جوابهم ، { وَانتَظِرْ } ، الفريضةَ فيهم ، { إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ } ؛ الفرصةَ فيك. قال ابنُ عبَّاس : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } نَسَخَتْهُ آيَةُ السَّيْفِ)). وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ } أيْ مُنْتَظِرُونَ لَكَ حَوَادِثَ الأَزْمَانِ مِنْ مَوْتٍ أوْ قَتْلٍ فَيَسْتَرِيحُونَ مِنْكَ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١)

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : " وَذلِكَ أنَّ أبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ ؛ وَعِكْرِمَةَ بْنَ أبي جَهْلٍ ؛ وَأبَا الأَعْوَر السُّلَمِيِّ قَدِمُواْ فَنَزَلُواْ عَلَى عَبْدِاللهِ بْنِ أُبَيٍّ رَأسِ الْمُنَافِقِيْنَ ؛ وَجَدِّ ابْنِ قَيْسٍ ؛ وَمُعْتَب ابْنِ قَسْرٍ الْمُنَافِقَيْنِ.

وَكَانَ يَوْمَئِذٍ مَعَ الْمُشْرِكِيْنَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أبي سَرْحٍ ، فَطَلَبُواْ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وَقَدْ كَانُواْ طَلَبُواْ مِنْهُ الأَمَانَ عَلَى أنْ يُكَلِّمُوهُ ، فَقَالُواْ لَهُ : يَا مُحَمَّدُ ارْفُضْ ذِكْرَ آلِهَتِنَا اللاَّتَ والْعُزَّى وَمَنَاتَ ، وَقُلْ : إنَّ لَهَا شَفَاعَةً فِي الآخِرَةِ وَمَنْفَعَةً لِمَنْ عَبَدَهَا ، وَنَدَعُكَ أنْتَ وَرَبُّكَ! فَشُقَّ ذلِكَ عَلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم.

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب رضي الله عنه : ائْذنْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ فِي قَتْلِهِمْ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " إنِّي قَدْ أعْطَيْتُهُمُ الأَمَانَ ". فَأَمَرَ النَّبيُّ عُمَرَ أنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الْمَدِيْنَةِ ، فَقَالَ لَهُمْ عُمَرُ رضي الله عنه : أُخْرُجُواْ فِي لَعْنَةِ اللهِ وَغَضَبِهِ " ، وَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

ومعناهَا : يا أيُّها النبيُّ اتَّقِ اللهَ في نقضِ العهد الذي بينَكَ وبين أهلِ مكَّة لا تَنْقِضْهُ قبلَ أجَلِهِ { وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } فيما دعَوكَ إليه ، ولا تَمِلْ إليهم ، ولا تَرْفِقْ بهم ظَنّاً منكَ أن ذلك أقربُ إلى استِمَالَتِهم إلى الإيْمانِ ، فإن ذلك يؤدِّي إلى أن يُظَنَّ بك مقارنة القومِ على كُفرِهم ، فمعنى قولهِ { وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } يعني أبَا سُفيان وأبا الأعور وعِكرمةَ ، والمنافقين عبداللهِ بنِ أُبَي وجَدِّ بنِ قَيْسٍ وغيرِهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً } ؛ أي عَلِيماً بأحوَالِهم ، حَكِيماً فيما أوجبه عليك في أمرِهم وفيما يخلقهُ.

(٠/٠)

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ } ؛ أي اعمَلْ بما أمرَكَ اللهُ في القُرْآنِ من مُجانَبَةِ الكفَّار والمنافقينَ وتَرْكِ مُوافَقَتِهم ، { إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } ؛ قرأ بالياءِ أبو عمرٍو ، وقرأ الباقونَ بالتَّاء أي خَبيرٌ بكَ وبهم.

(٠/٠)

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } ؛ أي فَوِّضْ أمرَكَ إلى اللهِ واعتمِدْ عليه في مُعاملتِهم بما أُمِرْتَ به في شأنهم ، { وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } ؛ أي حَافِظاً وناصِراً.

(٠/٠)

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أبي مُعَمَّرٍ جَمِيْلِ بْنِ أبي رَاشِدٍ الْفِهْرِيِّ ، وَكَانَ رَجُلاً حَافِظاً لَبِيْباً لِمَا يَسْمَعُ ، وَكَانَ يَقُولُ : إنَّ فِي جَوْفِي لَقَلْبَيْنِ ، أعْقِلُ بكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أفْضَلَ مِنْ عَقْلِ مُحَمَّدٍ! وَكَانَتْ قُرَيْشُ تُسَمِّيْهِ ذا الْقَلْبَيْنِ لِدَهَائِهِ وَكَثْرَةِ حِفْظِهِ لِلْحَدِيْثِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الآيَةَ تَكْذِيْباً لَهُمْ ، فَأَخْبَرَ أنَّهُ مَا خَلَقَ لأَحَدٍ قَلْبَيْنِ.

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْر وَهُزِمَ الْمُشْرِكُونَ وَفِيْهِمْ أبُو مُعَمَّرٍ ، تَلَقَّاهُ أبُو سُفْيَانَ وَهُوَ يَعْدُو وَإِحْدَى نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ وَالأُخْرَى فِي رِجْلِهِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أبَا مُعَمَّرٍ مَا فَعَلَ النَّاسُ ؟ قَالَ : انْهَزَمُواْ. فَقَالَ لَهُ : مَا بَالُ إحْدَى نَعْلَيْكَ فِي يَدِكَ وَالأُخْرَى فِي رِجْلِكَ؟! فَقَالَ : مَا شَعَرْتُ إلاَّ أنَّهُمَا فِي رِجْلِيَّ. فَعَرَفُواْ يَوْمَئِذٍ أنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ قَلْبَانِ مَا نَسِيَ نَعْلَهُ فِي يَدِهِ).

وقال الزهريُّ : ومقاتلُ : (هُوَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلْمُظَاهِرِ امْرَأتَهُ وَالْمُتَبَنِّي وَلَدَ غَيْرِهِ ، يَقُولُ : فَكَمَا لاَ يَكُونُ لِلرَّجُلِ قَلْبَانِ ، لاَ تَكُونُ امْرَأةُ الْمُظَاهِرِ أُمَّهُ حَتَّى لاَ يَكُونَ لَهُ أُمَّانِ ، وَلاَ يَكُونُ وَلَدٌ ابْنَ رَجُلَيْنِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ } ؛ أي ما جَعَلَ نساءَكم اللاَّئي تقولونَ لَهُن : أنتُنَّ علينا كظُهور أُمَّهاتِنا ، لَم نجعلَهن كأُمَّهاتِكم في الْحُرْمَةِ. وكانت العربُ تُطَلِّقُ نساءَها في الجاهلية بهذا اللفظِ ، فلما جاءَ الإسلامُ نُهُوا عنه ، وأُوجِبَتِ الكفارةُ في سورةِ الْمُجادلَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ } ؛ أي ما جعلَ مَن تدَّعُونَهُ ابناً من أبناءِ غيرِكم كأبنائكم

الذين مِن أصْلاَبكم في الانتساب والْحُرمَةِ والْحُكْمِ ، وكان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَدْ تَبَنَّى زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ بَعْدَ أنْ أعْتَقَهُ ، فَكَانَ يُقَالُ : زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، فَلَمَّا جَاءَ الإسْلاَمُ أُمِرَ أنْ تُلْحَقَ الأدْعِيَاءُ بآبَائِهِم ، وَكَانَ يَوْمَ تَبَنَّاهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ الْوَحْيِ.

قرأ نافعُ وأبو عمرٍو (وَتَظَّهَّرُونَ) بفتح التاءِ وتشديد الظَّاء والهاءِ من غير ألِف ، وقرأ الشَّاميُّ كذلك إلاّ أنَّه بألف ، وقرأ حمزةُ والكسائي مثلَ قراءةِ شامي إلاّ أنه بالتخفيفِ ، وقرأ عاصمُ والحسن بضمِّ التاء وتخفيف الظَّاء وبألف وكسرِ الهاء ، قال أبو عمرٍو : (وَهَذا مُنْكَرٌ ؛ لأَنَّ التَّظَاهُرَ مِنَ التَّعَاوُنِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَالِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ } ؛ أي الذي تقولونَهُ من إضافةِ القَلبَينِ إلى الرجُل الواحدِ ، وقولِ الرجُل لامرأتِهِ : أنتِ عليَّ كظهرِ أُمِّي ، وقولِ الرجُل لغيرِ ابنه : هذا ابْني ، قَولهُ : تقولونَ بأفواهِكم من غيرِ أن يكون له حقيقةٌ ولا عليه دلالةٌ ولا حُجَّةٌ ، { وَاللَّهُ } ؛ تعالَى : { يَقُولُ الْحَقَّ } ؛ أي يُبَيِّنُ أنَّ الذين يقولونه قولٌ باطل ، { وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ } ؛ أي يَدُلُّ على طريقِ وإلى الدِّين المستقيمِ.

(٠/٠)

ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ادْعُوهُمْ لآبَآئِهِمْ } ؛ أي نَسِّبُوا هؤلاءِ الأدعياء إلى الآباءِ الذين قد وُلِدُوا على فِرَاشِهم وقولوا : زيدُ بنُ حارثةَ ، ولا تقولوا : زيدُ بن مُحَمَّدٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ } ؛ أي أعْدَلُ في حُكمِ الله من نِسبَتِكم إياهم إلى الذين تبنَّوهُم. وعن ابنِ عمرَ رضي الله عنه أنه كان يقولُ : (مَا كُنَّا نَدْعُوا زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ إلاَّ زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ حَتَّى نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { ادْعُوهُمْ لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ }.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن لَّمْ تَعْلَمُواْ آبَاءَهُمْ فَإِخوَانُكُمْ فِي الدِّينِ } ؛ فهم إخوانُكم في الدِّين ؛ أي مَن أسْلَمَ منهم ، { وَمَوَالِيكُمْ } ؛ أي وبنُو أعمَامِكم ، فقولوا : يا أخِي ويا ابنَ عَمِّي في الآيةِ إباحةُ إطلاق اسم الأُخُوَّةِ وحظْرُ اطلاقِ اسم الأبوَّةِ ، وفي ذلك دليلٌ على أن مَن قال لعبدِهِ : هذا أخِي ؛ لَم يُعْتَقْ لأنه يحتملُ الأخُوَّة في الدِّين ، وإن قال : هذا ابنِي ؛ عُتِقَ لأن ذلك ممنوعٌ في غير النَّسب.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُمْ بِهِ } ؛ أي ليس عليكم إثْمٌ في نِسْبَةِ الرجُل إلى غير أبيه على وجهِ الخطأ. قال قتادةُ : (وَلَوْ دَعَوْتَ رَجُلاً لِغَيْرِ أبيْهِ وَأنْتَ تَحْسَبُ أنَّهُ أبُوهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ بَأْسٌ) ، { وَلَاكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } ؛ أي ولكنِ الإثمُ عليكم فيما تعمَّدونَهُ من ادعائهم إلى غيرِ آبائهم ، { وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً } ؛ أي لِمَن تعمَّدَ ثم تابَ ، { رَّحِيماً } ؛ به بعدَ التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } موضع قوله (مَا) خُفِضَ عطفاً على قولهِ { فِيمَآ أَخْطَأْتُمْ } تقديرهُ : ولكن فيما تعمَّدت قلوبُكم.

(٠/٠)

النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ } ؛ أي هو أشْفَقُ وأبَرُّ وأحقُّ بالمؤمنين مِن بعضهم ببعضٍ ، وهو أولَى بكلِّ إنسانٍ منه بنفسهِ. وَقِيْلَ : معناهُ : إذا حَكَمَ فيهم بشيءٍ نَفَذ حكمهُ فيهم ، ووجبَتْ طاعتهُ عليهم.

وقال ابنُ عبَّاس : (إذا دَعَاهُمُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلَى شَيْءٍ ، وَدَعَتْهُمْ أنْفُسُهُمْ إلَى شَيْءٍ ، كَانَتْ طَاعَةُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أوْلَى بهِمْ مِنْ طَاعَةِ أنْفُسِهِمْ). وقال مقاتلُ : (مَعْنَاهُ طَاعَتُهُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أوْلَى بهِمْ مِنْ طَاعَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ).

وقال الحكماء : النبيُّ أولَى بالمؤمنينَ مِن أنفُسِهم لأنفُسِهم ، تدعُوهم إلى ما فيه هلاكُهم ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى ما فيهِ نَجاتُهم. وقال أبُو بكرٍ الورَّاق : (لأَنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يَدْعُوهُمْ إلَى الْعَقْلِ ، وَأنْفُسُهُمْ تَدْعُوهُمْ إلَى الْهَوَى). وقال بَسَّامُ بنُ عبدِالله : (لأَنَّ أنْفُسَهُمْ تُحْرَسُ مِنْ نَار الدُّنْيَا ، وَالنَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يَحْرِسُهُمْ مِنْ نَار الآخِرَةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ } ؛ أي كأُمَّهَاتِهم في تَعْظِيْمِ حَقِّهِنَّ وفي تحريم نكَاحِهن ، فلا يَحِلُّ لأحدٍ أن يتزوَّجَ بهنَّ ، كما لا يجوزُ التزويجُ بالأُمِّ. ولَم يُرِدْ إثباتَ الأُميَّة من جميعِ الوُجُوهِ ، ألاَ ترَى أنه لا تحلُّ رؤيَتُهن ولا يَرَيْنَ المؤمنين بخلافِ الأُمَّهات ، وكذلك لا يخلُو بهنَّ ، ولا يسافرُ بهم ، ولا يرثُهن ولا يرِثونَهُ ، ولو كنَّ كالأُمَّهات من جميعِ الوجوه لكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم لا يزوِّجُ بناتَهُ من أحدٍ مِن الناسِ ؛ لأن البناتَ يكُنَّ أخَواتِ المؤمنينَ.

ومِن هذا المعنى ما رُوي : أنَّ امْرَأةً قَالَتْ لِعَائِشَةَ : يَا أُمِّ ، قَالَتْ : (لَسْتُ لَكِ بأُمٍّ ، إنَّمَا أنَا أُمُّ رجَالِكُمْ) فبَانَ بهذا أنَّ معنى الأُمومَةِ تحريمَ نكاحِهن فقط. ولِهذا لا يجوزُ أن يقالَ لبنَاتِهن أنَّهن أخواتُ المؤمنينَ.

وفائدةُ تحريمِ نكاح أزواجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم على المؤمنين في حياتهِ وبعد وفاتهِ تعظيمُ أمرهِ وتفخيمُ شأْنِه ، ولذلكَ حَرُمَ على الابنِ نكاحُ امراةِ أبيهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ } ؛ أي وذوُ القرابةِ بعضُهم أحقُّ بميراث بعضٍ في حُكمِ اللهِ ، { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ } ؛ إذا لَم يكونوا قرابةً ، وذلك أنَّهم كانوا

يتوَارَثُونَ في ابتداءِ الإسلامِ بالهجرةِ والْمُوَآخَاةِ.
قال الكلبيُّ : (آخَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَيْنَ النَّاسِ ، فَكَانَ يُوَآخِي بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ ، وَإذا مَاتَ أَحَدُهُمْ وَرِثَهُ الثَّانِي دُونَ عُصْبَتِهِ وَأَهْلِهِ ، فَمَكَثُواْ كَذلِكَ مَا شَاءَ اللهُ حَتَّى نَزَلَتْ الآيَةُ { وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ } مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ آخَا رَسُولُ اللهِ بَيْنَهُمْ وَالْمُهَاجِرِيْنَ ، فَنَسَخَتْ هَذِهِ الآيَةُ الْمُوَارَثَةَ بالْمُوَآخاةِ وَالْهِجْرَةِ ، وَصَارَتْ لِلأَدْنَى فَالأَدْنَى مِنَ الْقَرَابَاتِ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ أَن تَفْعَلُواْ إِلَى أَوْلِيَآئِكُمْ مَّعْرُوفاً } ؛ { مَّعْرُوفاً } استثناءٌ ليس مِن الأول ، ومعناهُ : لكن فِعْلُكم إلى أوليائِكم جائزٌ ، يريدُ أن يُوصِي الرجلُ لِمَنْ يتوَلاَّهُ ممن لا يرثهُ بما أحبَّ من ثُلْثِ مالِهِ ، فيكونُ الموصَى له أولَى بقدر الوصيَّة من القريب الوارث ، وقال ابنُ زيدٍ : (مَعْنَاهُ إلاَّ أنْ تُوصُواْ لأَوْلِيَاءِكم مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً } ؛ أي كانَ الميزانُ للأقرباءِ ، والوصيةُ للأصدقاءِ ، ونُسِخَ الميراثُ بالهجرةِ ورَدَّهُ إلى ذوي الأرحامِ مَكتوباً في اللَّوح المحفوظِ.

(٠/٠)

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّيْنَ مِيثَاقَهُمْ } ؛ أي واذْكُرْ إذ أخَذْنا مِن النَّبِيِّينَ عُهودَهم ؛ أي يصدِّقُ بعضُهم بعضاً ، ويبَشِّرُ الأولُ بالآخرِ ، ويأخذُ كلُّ رسول منهم على قولِهِ بما أمرَ اللهُ به ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } ؛ قِيْلَ : إنَّ الواو مقحمةٌ ؛ وتقديره : منكَ ومِن نوحٍ ، فيكونوا (مِنْكَ) ما بعدَهُ تفسيرُ (النَّبِيِّيْنَ).
والفائدةُ في تخصيصِ هؤلاء الأنبياءِ الخمسة بالذِّكر ؛ لأنَّهم أهلُ الشرائعِ والكتب ، وأُوْلُو العَزْمِ من الرُّسُلِ ، ولَهم الأُمَمُ والتَّبَعُ. وقَدَّمَ ذِكْرَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم لأن الخطابَ معه. وجاء في التفسيرِ : أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : " إنِّي خُلِقْتُ قَبْلَ الأَنْبيَاءِ وَبُعِثْتُ بَعْدَهُمْ ".
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقاً غَلِيظاً } ؛ أي عَهْداً وَثِيقاً بأن يَعبدوني ولا يُشرِكون بي شيئاً. وَقِيْلَ : وأخَذْنا منهم عَهْداً شديداً على الوفَاءِ بما حُمِّلُوا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ } ؛ أي لكَي يسألَ الْمُبَلِّغِيْنَ عن تبليغِهم وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَاذَآ أَجَبْتُمُ }[القصص : ٦٥].
وفائدةُ سؤالِ الرُّسُلِ وهم صادِقُون ؛ لتكذيب الذينَ كفَرُوا بهم فيكون هذا السؤالُ احْتِجَاجاً على الكاذِبين ، وإذا سُئِلَ الصَّادِقُونَ ، فكيفَ يُظَنُّ بالكاذِبين؟! وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً } ؛ أي أعَدَّ للَّذين كفَرُوا بالرُّسُلِ عذاباً شَديداً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } ؛ يُذكِّرُهم اللهُ إنْعَامَهُ عليهم في دفعِ الأحزَاب عنهم من غيرِ قتالٍ ، وذلك : أنَّ الْكُفَّارَ جَاءُوا بأَجْمَعِهِمْ فِي وَقْعَةِ الْخَنْدَقِ ، وَأحَاطُواْ بالْمَدِيْنَةِ مِنْ أعْلاَهَا وَأسْفَلِهَا ، طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدِ الأَسَدِي وَأصْحَابُهُ مِنْ فَوْقِ الْوَادِي ، وَكَانَ أبُو الأَعْوَرِ السُّلَمِيُّ وَأصْحَابُهُ مِنْ أسْفَلِ الْوَادِي ، وَكَانَ أبُو سُفْيَانٍ وَأصْحَابُهُ وَيَهُودُ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي مُوَاجَهَةِ الْمُؤْمِنِيْنَ ، فَاشْتَدَّ الْخَوْفُ بالْمُؤْمِنِيْنَ وَزَاغَتْ أبْصَارُهُمْ ؛ أيْ مَالَتْ مِنَ الْخَوْفِ ، وَيُقَالُ : مَالَتْ أبْصَارُ الْمُنَافِقِيْنَ خَوْفاً مِنَ النَّظَرِ إلَيْهِمْ. وكانَ الكُفَّارُ خَمْسَةَ عَشَرَ ألْفاً ، وبَلَغَتْ قُلُوبُ الْمُسْلِمِيْنَ الْحَنَاجِرَ ؛ أيْ كَادَتْ تَبْلُغُ الْحُلُوقَ ، وَذلِكَ أنَّ شِدَّةَ الْخَوْفِ تَرْفَعُ الرِّئَةَ ، فترفعُ الرِّئَةُ القلبَ.

كما رُوي : " أنَّ الْمُؤْمِنِيْنَ قَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " قُولُواْ : اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا ، يَكْفِيْكُهُمُ اللهُ تَعَالَى " فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَى الْكُفَّار ريْحاً بَارِدَةً مُنْكَرَةً شَغَلَتْهُمْ عَنِ الاسْتِعْدَادِ لِلحَرْب ، وَمَنَعَتْهُمْ مِنَ الثَّبَاتِ عَلَى الْمَكَانِ ، وَقَلَعَتْ خِيَامَهُمْ وَأكْفَأَتْ أوَانِيَهِمْ ، وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَالْمُسْلِمُونَ مِنْهَا فِي سَلاَمَةٍ ، وَلَيْسَ بَيْنَهُمْ إلاَّ مَسَافَةُ الْخَنْدَقِ ، وَكَانَ ذلِكَ إحْدَى مُعْجِزَاتِهِ عليه السلام كَمَا قَالَ صلى الله عليه وسلم : " نُصِرْتُ بالصَّبَا ، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُور " ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ } ؛ يعني الذين تَحَزَّبُوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ الخندق ، وهم عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وأبُو سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وبَنُو قُرَيْظَةَ ، { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً } ، وهي الصَّبَا ، أُرسِلَتْ عليهم حتى أكفَأَتْ قدورَهم ونزعت فَسَاطِيْطَهُمْ ، وقوله : { وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا } ، يعني الملائكةَ ؛ { وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً }.

" ورُوي : أنَّ شَابّاً مِنْ أهْلِ الْكُوفَةِ قَالَ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ : يَا أبَا عَبْدِاللهِ هَلْ رَأيْتَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؟ قَالَ : (إيْ وَاللهِ لَقَدْ رَأيْتُهُ) قَالَ : وَاللهِ لَوْ رَأيْنَاهُ لَحَمَلْنَاهُ عَلَى رِقَابِنَا ، وَمَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ ، فَقَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ : (يَا ابْنَ أخِي أفَلاَ أُحَدِّثُكَ عَنِّي وَعَنْهُ؟) قَالَ : بَلَى. قَالَ : (وَاللهِ لَوْ رَأيْتَنَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ ، وَبِنَا مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ مَا لاَ يَعْلَمُهُ إلاَّ اللهُ. قَامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَصَلَّى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللهُ ، ثُمَّ قَالَ : " ألاَ رَجُلٌ يَأْتِي بخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ رَفِيْقِي فِي الْجَنَّةِ ؟ " فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنَّا أحَدٌ مِمَّا بنَا مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَالْجَهْدِ. ثُمَّ صَلَّى مَا شَاءَ اللهُ ، ثُمَّ قَالَ : " ألاَ رَجُلٌ يَأْتِيْنِي بخَبَرِ الْقَوْمِ

جَعَلَهُ اللهُ رَفِيْقِي فِي الْجَنَّةِ ؟ " فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنَّا أَحَدٌ مِمَّا بنَا مِنَ الْجَهْدِ وَالْخَوْفِ وَالْجُوعِ. فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ ، دَعَانِي فَلَمْ أَجِدْ بُدّاً مِنْ إِجَابَتِهِ ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : " اذْهَبْ فَجِئْ بِخَبَرِ الْقَوْمِ ، وَلاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئاً حَتَّى تَرْجِعَ ".

قَالَ حُذَيْفَةُ : قُمْتُ وَجَنْبَيَّ يَضْطَرِبَانِ ، فَمَسَحَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَأْسِي وَوَجْهِي ، ثُمَّ قَالَ : " اللَّهُمَّ احْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، وَعَنْ يَمِيْنِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ، وَمِنْ فَوْقِهِ وَمِنْ تَحْتِهِ ". قَالَ : فَانْطَلَقْتُ أَمْشِي حَتَّى أَتَيْتُ الْقَوْمَ ، وَإِذا رِيْحُ اللهِ وَجُنُودُهُ يَفْعَلُ بِهِمْ مَا يَفْعَلُ ، مَا يَسْتَمْسِكُ لَهُمْ بِنَاءٌ ، وَلاَ تَثْبُتُ لَهُمْ نَارٌ ، وَلاَ يَطْمَئِنُّ لَهُمْ قِدْرٌ. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذلِكَ ، إِذْ خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ مِنْ رَحْلِهِ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ مَا أَنْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ ، لَقَدْ هَلَكَتِ الْخُفُّ وَالْحَافِرُ وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ ، وَهَذِهِ الرِّيْحُ لاَ يَسْتَمْسِكُ لَنَا مَعَهَا شَيْءٌ ، وَلاَ تَثْبُتُ لَنَا نَارٌ وَلاَ تَطْمَئِنُّ قِدْرٌ. ثُمَّ عَجَّلَ فَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ ، وَإِنَّهَا لَمَعْقُولَةٌ مَا حَلَّ عِقَالَهَا إِلاَّ بَعْدَمَا رَكِبَهَا.

فَقَالَ حُذَيْفَةُ : فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَوْ رَمَيْتُ عَدُوَّ اللهِ فَكُنْتُ قَدْ صَنَعْتُ شَيْئاً ، فَأَوْتَرْتُ قَوْسِي وَأَنَا أُرِيْدُ أَنْ أَرْمِيَهُ ، ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " وَلاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئاً حَتَّى تَرْجِعَ ". فَحَطَطْتُ الْقَوْسَ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يُصَلِّي ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ : " مَا الْخَبَرُ ؟ " فَأَخْبَرْتُهُ بذلِكَ ، فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ. ثُمَّ أَدْنَانِي مِنْهُ وَبِي مِنَ الْبَرْدِ مَا أَجِدُهُ ، فَأَلْقَى عَلَيَّ طَرَفَ ثَوْبِهِ ، وَأَلْزَقَ صَدْرِي بِبَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي) ".

(٠/٠)

إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ جَآءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ } أي مَالَتْ عن كلِّ شيء ، فلم تَنْظُرْ إلاَّ إلى عدُوِّها مُقبلاً مِن كلِّ جانب ، { وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ } ، وَالْحَنْجَرَةُ جَوْفُ الْحَلْقِ. قال قتادةُ : (شَخَصَتِ الْقُلُوبُ مِنْ مَكَانِهَا ، فَلَوْلاَ أَنَّهُ ضَاقَ الْحُلْقُومُ عَنْهَا أَنْ تَخْرُجَ لَخَرَجَتْ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا }[الأحزاب : ٩] يعني الملائكةَ ، بَعَثَ اللهُ ملائكةً على المشركين فقَلَعَتْ أوتادَ الخيلِ وأطْنَابَ الْفَسَاطِيْطِ ، وأطفأَتِ النيرانَ وجالَتِ الخيلُ بعضُها في بعضٍ ، وكَثُرَ تكبيرُ الملائكةِ في جوانب عسكَرِهم حتى وقعَ بهم الرعبُ فانْهَزَمُوا من غيرِ قتالٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ جَآءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ } ، أي مِن فوق الوادِي مِن قِبَلِ المشرقِ عليهم مالكُ بن عوفٍ البَصْرِيّ ، وعُيَيْنَةُ بن حِصْنٍ الفزَّاري في ألْفٍ مِنْ غَطَفَانَ ، { وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ } ، يعني

مِن قِبَلِ المغرب فيهم أبُو سفيانَ في قُريشٍ ومَن تَبعَهُ ، وأبو الأعْوَر السُّلمي من قِبَلِ الخندقِ.
وكانَ مِن حديثِ الخندقِ : " أنَّ نَفَراً مِنَ الْيَهُودِ مِنْهُمْ حَيِيُّ بْنُ أخْطَبَ وَكِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ وَهَوْذَةُ بْنِ قَيْسٍ وَأبُو عُمَارَةَ الْوَائِلِيُّ ، وَجَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي النَّضِيْرِ خَرَجُواْ حَتَّى قَدِمُواْ عَلَى قُرَيْشٍ فَدَعَوْهُمْ إلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَأَجَابُوهُمْ فَاجْتَمَعُواْ مَعَ قُرَيْشٍ. فَسَارَتْ وَقَائِدُهَا عُيَيْنَةُ بْنُ حُصَيْنٍ الْفَزَّاريُّ ، وَسَارَتْ بَنُو مُرَّةَ وَقَائِدُهَا الْحَارثُ بْنُ عَوْفٍ ، وَسَارَتْ بَنُو أشْجَعَ وَقَائِدُهَا مُسْعِرُ بْنُ رَخَيْلَةَ الأَشْجَعِيُّ ، وَسَارَتْ قُرَيْشُ وَقَائِدُهَا أبُو سُفْيَانَ.
فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ضَرَبَ الْخَنْدَقَ عَلَى الْمَدِيْنَةِ ، وَكَانَ الَّذِي أشَارَ بالْخَنْدَقِ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم سَلْمَانُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إنَّا كُنَّا بفَارسَ إذا حُوصِرْنَا خَنْدَقْنَا. فَحَفَرَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَالْمُسْلِمُونَ حَتَّى أحْكَمُوهُ.
فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ حَفْرِ الْخَنْدَقِ ، أقْبَلَتْ قُرَيْشُ حَتَّى نَزَلَتْ بمَجْمَعِ الأَسْيَالِ مِن رُومَة ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَالْمُسْلِمُونَ وَهُمْ ثَلاَثَةُ آلاَفٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ ، فَكَانَ الْخَنْدَقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِيْنَ ، وَعَظُمَ عِنْدَ ذلِكَ الْبَلاَءُ وَاشْتَدَّ الْخَوْفُ ، وَأتَاهُمُ الْعَدُوُّ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ أسْفَلَ مِنْهُمْ ، حَتَّى ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ كُلَّ ظَنٍّ ، وَظَهَرَ النِّفَاقُ فِي الْمُنَافِقِيْنَ ، حَتَّى قَالَ مُعْتَبُ بْنُ بَشِيْرٍ الْمُنَافِقُ : كَانَ مُحَمَّدُ وَعَدَنَا أنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ ، فَأَحَدُنَا لاَ يَقْدِرُ أنْ يَذْهَبَ إلَى الْغَائِطِ ، مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إلاَّ غُرُوراً. فذلك قوله تعالى : { وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا }.
فَأَقَامَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وَأقَامَ الْكُفَّارُ مَعَهُ بضْعاً وَعِشْرِيْنَ لَيْلَةً قَرِيْباً مِنْ شَهْرٍ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْقَوْمِ إلاَّ الرَّمْيَ بالنَّبْلِ وَالْحَصَى وَالْحِصَار.
فَلَمَّا اشْتَدَّ الْبَلاَءُ عَلَى النَّاسِ وَاسْتَطَالَ ، بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلَى عُيَيْنَةَ بْنِ حُصَيْنٍ وَإلَى الْحَارثِ بْنِ عَوْفٍ وَهُمَا قَائِدَا غَطَفَانَ ، وَأعْطَاهُمَا ثُلُثَ ثِمَار الْمَدِيْنَةِ عَلَى أنْ يَرْجِعَا بمَنْ مَعَهُمَا مِنَ الْقَوْمِ ، فَجَرَى بَيْنَهُمَا الصُّلْحُ حَتَّى وَقَعَ الْكِتَابُ وَلَمْ تَقَعِ الشَّهَادَةُ ، فَذكَرَ ذلِكَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَاسْتَشَارَهُمَا فِي ذلِكَ ، فَقَالاَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أهَذا شَيْءٌ أمَرَكَ اللهُ بِهِ أمْ أمْرٌ تُحِبُّهُ أنْتَ أمْ أمْرٌ تَصْنَعُهُ لَنَا ؟ فَإنْ كَانَ أمْراً مِنَ اللهِ لَكَ فَلاَ بُدَّ لَنَا مِنَ الْعَمَلِ بِهِ ، وَإنْ كَانَ أمْراً تُحِبُّهُ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ ، وَإنْ كَانَ شَيْئاً تَصْنَعُهُ لَنَا فَعَرِّفْنَا بِهِ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " بَلْ وَاللهِ مَا صَنَعْتُ ذلِكَ إلاَّ أنِّي رَأيْتُ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ بقَوْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَكَالَبُوكُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَأَرَدْتُ أنْ أكْسِرَ عَنْكُمْ شَوْكَتَهُمْ ".
فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ : يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ لَقَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلاَءِ الْقَوْمِ عَلَى الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ لاَ نَعْبُدُ اللهَ وَلاَ نَعْرِفُهُ ، وَهُمْ لاَ يَطْمَعُونَ أنْ يَأْكُلُوا مِنْ ثِمَارنَا تَمْرَةً إلاَّ قِرَاءً أوْ شِرَاءً ، فَكَيْفَ وَقَدْ أكْرَمَنَا اللهُ بالإسْلاَمِ وَأعَزَّنَا بكَ نُعْطِيْهِمْ أمْوَالَنَا! مَا لَنَا بهَذا مِنْ حَاجَةٍ ، وَاللهِ لاَ نُعْطِيْهِمْ إلاَّ السَّيْفَ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، فقال صلى الله عليه وسلم : " فَأَنْتَ وَذاكَ ". فَتَنَاوَلَ سَعْدٌ الصَّحِيْفَةَ الَّتِي كَتَبُواْ فِيْهَا صُلْحَهُمْ فَمَحَاهَا.

ثُمَّ إنَّهُمْ تَرَامَواْ بالنَّبْلِ ، فَوَقَعَتْ رَمْيَةٌ فِي أَكْحَلِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَقَطَعَتْهُ ، رَمَاهُ ابْنُ الْعُرْقَةِ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَمَا زَالَ أَكْحَلُهُ يَسِيْلُ دَماً حَتَّى خِيْفَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ سَعْدٌ : اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْب قُرَيْشٍ فَأَبْقِنِي لَهَا ، فَإِنَّهُ لاَ شَيْءَ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ جِهَادِ قَوْمٍ آذواْ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَكَذبُوهُ وَأَخْرَجُوهُ ، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْعَلْهُ لَنَا شَهَادَةً وَلاَ تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ.
ثُمَّ أَتَى نَعِيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ الْغَطَفَانِيُّ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ قَدْ أَسْلَمْتُ وَإنَّ قَوْمِي مِنْ غَطَفَانَ لَمْ يَعْلَمُواْ بإسْلاَمِي ، فَمُرْنِي فِيْهِمْ بمَا شِئْتَ ، فَقَالَ عليه السلام : " إنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَخَذِّلْ عَنَّا إنِ اسْتَطَعْتَ ". فَخَرَجَ نَعِيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَكَانَ لَهُمْ نَدِيْماً فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَقَالَ لَهُمْ : يَا بَنِي قُرَيْظَةَ ؛ لَقَدْ عَلِمْتُمْ وُدِّي لَكُمْ وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ المَحَبَّةِ. قَالُواْ : صَدَقْتَ ؛ لَسْتَ عِنْدَنَا بمُتَّهَمٍ ".

(٠/٠)

هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ } أي في تلكَ الحالِ اخْتُبِرَ المؤمنونَ بالقتالِ ليَتَبيَّن المخلصُ من المنافقِ. وَقِيْلَ : معناهُ : امْتُحِنَ المؤمنونَ بالخوفِ الشَّديد الذي عندَهُ يظهرُ المؤمن القويُّ من المؤمنِ الضعيفِ ، وذوُوا العزمِ الصحيح من غيرِهم. وقوله : { وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً } ؛ أُزْعِجُواْ وحُرِّكُوا تَحريكاً شديداً ، وذلك أن الخائفَ يكون قَلِقاً مُضطرباً لا يستقرُّ على مكانهِ.

(٠/٠)

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً } معناهُ : وإذ يقول الذين يستبطنون الكفرَ والذين في قُلوبهم شَكٌّ وضَعْفُ اعتقادٍ : مَا وَعَدَنا مُحَمَّدٌ أنَّ فارسَ والرومَ يُفتحان علينا ونحنُ في مكاننا هذا الذي لا يقدرُ أحدٌ أن يَبْرُزَ لحاجتهِ إلاَّ باطلاً. قال قتادةُ : (قَالَ نَاسٌ مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ : يَعِدُنَا مُحَمَّدٌ أنْ نَفْتَحَ قُصُورَ الشَّامِ وَفَارسَ ، وَأَحَدُنَا لاَ يَسْتَطِيْعُ أنْ يُجَاوزَ رَحْلَهُ ، هَذا وَاللهِ الْغَرُورُ).

(٠/٠)

وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ياأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ } ؛ قال مقاتلُ : (هُمْ بَنُو سَالِمٍ مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ) ، وقال السديُّ : (عبدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ وَأصْحَابُهُ). (يَا أَهْلَ يَثْرِبَ) أي يا أهلَ المدينةِ ، قال أبو عُبيدة : (يَثْرِبُ اسْمُ أرْضٍ ، وَمَدِيْنَةُ الرَّسُولِ فِي نَاحِيَةٍ مِنْها). وقَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ مُقَامَ لَكُمْ } أي لاَ مَوْقِفَ لكم في هذا الموضعِ ، فارجِعُوا إلى المدينةِ.

وقرأ عاصمُ (لاَ مُقَامَ) بضمِّ الميمِ ؛ أي لا إقامةَ لكم ها هُنا ؛ لكثرةِ العدُوِّ وغلبةِ الحِرَاب ، فارجِعُوا إلى منازلِكم ، أمَرُوهم بالهرب من عسكرِ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ } ؛ معناهُ : ويستأذنُ فريقٌ منهم النبيَّ عليه السلام في الرُّجوعِ إلى منازلِهم بالمدينةِ ؛ وهم بنُو حَارِثَةَ وبَنُو سَلَمَةَ ، وكانوا يعتَلُّون في الاستئذانِ بقولِهم : { يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ } ؛ أي بيُوتُنا خاليةٌ من الرِّجالِ نخافُ عليها ، وَقِيْلَ : معناهُ : إنَّ بيوتَنا ليست بجديدةٍ.

وقال مقاتلُ والحسن : (مَعْنَاهُ : قَالُواْ بُيُوتُنَا ضَائِعَةٌ نَخْشَى عَلَيْهَا السُّرَّاقَ). وقال قتادةُ : (قَالُوا بُيُوتُنَا مِمَّا يَلِي الْعَدُوَّ وَلاَ نَأْمَنُ عَلَى أَهْلِنَا). فكذبَهم اللهُ تعالى وَأعْلَمَ أنَّ قصدَهم الهربُ ، فقال عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً } ؛ مِن القتالِ ونُصرةِ المؤمنينَ.

وقرأ ابنُ عبَّاس وأبو رجاءٍ : (إنَّ بُيُوتُنَا عَوِرَةٌ) بكسرِ الواو ؛ أي قصيرةُ الجدران ، فيها خلَلٌ وفُرجَةٌ. قال الزجَّاجُ : (يُقَالُ : عَوَرَ الْمَكَانُ يَعْوَرُ عَوْراً وَعَوْرَةً ، وَبُيُوتٌ عَوْرَةٌ وَعَوِرَةٌ ، وَهِيَ مَصْدَرٌ). والْعَوْرَةُ في اللغة : ما ذهَبَ عنه السَّتْرُ والحِفظُ ، تقولُ العربُ : اعْوَرَّ الفارسُ إذا كان فيه موضعُ خللٍ للضَّرب ، وعَوَرَ المكانُ إذا بَدَتْ منه عورةٌ. قال الشاعرُ : مَتَى تَلْقَهُمْ ، لاَ تَلْقَ لِلْبَيْتِ عَوْرَةً وَلاَ الضَّيْفَ مَحْرُوماً وَلاَ الْجارَ مُرْمِلايقال : أرْمَلَ القومُ إذا فرغَ زادُهم.

(٠/٠)

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا } ؛ أي لو دُخلَتِ المدينةُ على هؤلاءِ المنافقين مِن أطرَافِها ، يعني : لو دَخَلَ عليهم هؤلاءِ الأحزابُ من نواحِيها ، { ثُمَّ سُئِلُواْ الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا } ؛ أي ثُم دُعُوا إلى الشِّركِ لأجَابُوها سَريعاً وأعطَوها من أنفُسِهم. والمعنى : لو أنَّ الأحزابَ دخَلُوا المدينةَ ، ثُم أمَرُوهم بالشِّركِ لأشْرَكُوا.

وقرأ أهلُ المدينةِ (لأَتَوْهَا) بالقصرِ ؛ أي لفَعَلُوها بأنفُسِهم ، { وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلاَّ يَسِيراً } ؛ أي وما يلبَثُون بإجَابتِها إلاَّ قليلاً حتى يَقْبَلُوا. قال قتادةُ : (وَمَا احْتَبَسُواْ عَنِ الإجَابَةِ إِلَى الْكُفْرِ إِلاَّ قَلِيْلاً) ، ويقالُ : ما يتلَبَّثُونَ بالمدينةِ بعدَ إجابَتِهم إلاَّ يَسِيراً حتى يَهْلَكُوا.

(٠/٠)

وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهَدُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ } ؛ قِيْلَ : إنَّهم بنُو حارثةَ هَمُّوا يومَ أُحُدٍ أن يَفْشَلُوا مع بني سَلَمَةَ ، فلمَّا نزلَ فيهم ما نزلَ ، عاهَدُوا اللهَ أن لا يعُودُوا لِمثلِها. وقال قتادةُ : (هُمْ قَوْمٌ كَانُواْ غَابُواْ عَنْ وَقْعَةِ بَدْر ، وَرَأَواْ مَا أَعْطَى اللهُ أَهْلَ بَدْر مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْفَضِيْلَةِ ، فَقَالُواْ : لَئِنْ أَشْهَدَنَا اللهُ قِتَالاً لَنُقَاتِلَنَّ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَاب لَمْ يَفُواْ بذلِكَ الْعَهْدِ).

ومعنى الآيةِ : ولقد كانُوا عاهَدُوا اللهَ من قَبْلِ غَزوةِ الخندق { لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ } أي لا ينهَزِمون ولا يُوَلُّونَ العدوَّ ظُهورَهم. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً } ؛ أي مُطَالَباً مَسْؤُولاً عنه مُحَاسَباً عليهِ ، يُسأَلُونَ عنه في الآخرةِ.

ثُم أخبرَ اللهُ أنَّ الفرارَ لا يزيدُهم في آجالِهم ؛ فقالَ : { قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ } ؛ أي مِن حَضَرَ ماتَ أو قُتِلَ ، فكلاهُما مكتوبٌ عليكم. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً } ؛ أي إنْ فَرَرْتُمْ من الموتِ أو القَتْلِ في هذه الوقعةِ لَمْ يُمَتَّعُوا إلاَّ قليلاً حتى يلحَقُكم أحدُ الأمرَين. والمعنى : لا تَمَتَّعُونَ بعدَ الفرار في الدُّنيا إلاَّ مدَّةَ أجَلِكُمْ.

ثُم أخبرَ اللهُ تعالى أنَّ ما قَدَّرَهُ عليهم وأرادَهُ بهم لا يُدْفَعُ عنهم ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللَّهِ } ؛ أي مَن الذي يُجِيرُكم ويَمنعُكم من اللهِ ، { إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً } ؛ أي هَلاكاً وهزِيْمةً ، { أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً } ؛ أي خَيراً وهو النصرُ. وهذا كُلُّهُ أمرٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم أن

يُخاطِبَهم بهذه الأشياءِ.
ثُم أخبرَ الله أنه لا ينفَعُهم قريبٌ ولا نَاصِرٌ ينصرُهم من اللهِ ، فقال تعالَى : { وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً }.

(٠/٠)

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَآئِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا } ؛ قال المفسِّرون : هؤُلاءِ قومٌ مِن المنافقين ، كانوا يبطئون الْمُجَاهِدِيْنَ ويَمْنَعُونَهُمْ عنِ الجهاد. يقال : عَاقَ يَعُوقُ ؛ إذا مَنَعَ ، وَعَوَّقَ إذا اعتادَ المنعَ ، وعَوَّقَهُ إذا صَرَفَهُ عنِ الوجهِ الذي يريدهُ.
قال قتادةُ : (هُمْ قَوْمٌ مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ ، كَانُواْ يَقُولُونَ : مَا مُحَمَّدٌ وَأصْحَابُهُ إلاَّ أكَلَةُ رَأسٍ ، وَلَوْ كَانُواْ لَحْماً لاَلْتَهَمَهُمْ أبُو سُفْيَانَ وَحِزْبُهُ ، دَعُواْ هَذا الرَّجُلَ فَإنَّهُ هَالِكٌ ، فَخَلُّوهُمْ وَتَعَالُواْ إلَيْنَا).
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْقَآئِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا } أي ويعلمُ القائلينَ لإخوانِهم تعالَوْا إلينا ودَعُوا مُحَمَّداً فلا تشهَدُوا معه الحربَ ، فإنَّا نخافُ عليكم الهلاكَ ، وقَوْلُهُ : { وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً } ؛ أي لا يحضُرونَ القتالَ في سبيلِ الله إلاَّ قَلِيْلاً ؛ أي لا يُقاتِلُونَ إلاَّ رِيَاءً وسُمعةً من غيرِ احتسابٍ ، ولو كان ذلك القليلُ للهِ لكانَ كثيراً.

(٠/٠)

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩)

قَوْلُهُ : { أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ } ؛ أي بُخْلاءَ عليكمُ بأنفُسِهم وأموالِهم ، لا ينفقونَ شيئاً منها في سبيلِ الله ونُصرةِ المؤمنين. ثُم أخبر عن جُبْنِهِمْ فقالَ تعالى : { فَإِذَا جَآءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ } ، من الخوفِ والفَزَعِ كما تدورُ أعْيُنُ الذي يحضرهُ الموت فيُغشَى عليهِ ، ويذهبُ عقله ويَشخَصُ بصرهُ فلا يطرفُ ، كذلك هؤلاءِ تَشْخَصُ أبصارُهم وتُحَارُ أعينُهم

لِما يلحَقُهم من الخوفِ ، { فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ } ؛ أي بَسَطُوا ألسِنَتَهم وأرسَلُوها ، طاغِينَ عليكم. قال الفرَّاء : (مَعْنَاهُ : آذوْكُمْ بالْكَلاَمِ وَعَضُّوكُمْ بأَلْسِنَةٍ سَلِيْطَةٍ ذربَةٍ) يُقَالُ : خَطِيْبٌ مِسْلاَقٌ إذا كَانَ بَلِيْغاً فِي خِطَابِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ } ؛ أي بُخْلاءَ بالغَنيمةِ ، يخاصِمُون فيها ويُشَاحُّونَ المؤمنينَ عليها عند القِسْمَةِ ، فيقولونَ : أعْطُونَا فلَسْتُمْ أحقَّ مِنَّا! وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْلَائِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ } ؛ أي هُم وإنْ أظهَرُوا الإيْمانَ ونَافَقُوا فليسوا بمؤمنينَ ، { فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ } ؛ أي أبْطَلَ جهادَهم وثوابَ أعمالِهم ؛ لأنه لَم يكن في إيْمانٍ ، { وَكَانَ ذَلِكَ } الإحباطُ ، { عَلَى اللَّهِ يَسِيراً } ؛ قال مقاتلُ : (مَعْنَى الآيَةِ : فَإذا ذهَبَ الْخَوْفُ وَجَاءَ الأَمْنُ وَالْغَنِيْمَةُ ، سَلَقُوكُمْ بألْسِنَةٍ حِدَادٍ ؛ أيْ بَسَطُواْ ألْسِنَتَهُمْ فِيْكُمْ وَقْتَ قِسْمَةِ الْغَنِيْمَةِ ، وَسَيَقُولُونَ : أعْطُونَا فَلَسْتُمْ أحَقَّ بهَا مِنَّا! فَأَمَّا عِنْدَ الْبَأْسِ وَالْقِتَالِ فَأَجْبَنُ قَوْمٍ وَأخْذلُهُمْ ، وَأَمَّا عِنْدَ الْغَنِيْمَةِ فَأَشَحُّ قَوْمٍ).

(٠/٠)

يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ } أي يَظُنُّ المنافقونَ مِن جُبْنِهم وخُبْثِهم أنَّ الأحزابَ لَم يذهَبُوا إلى مكَّة وقد ذهبُوا ، { وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ } ؛ في المرَّة الثانيةِ ؛ أي يرجِعُون إلى القتالِ ، { يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ } ؛ داخلونَ في البادِيةِ معَ الأعراب ، { يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ } ؛ أي يَتَمَنَّوْنَ لو كانوا في باديةٍ بالبُعْدِ منكُم ، يسألونَ عن أخباركم يقولونَ : مَا فَعَلَ مُحَمَّدٌ وأصْحَابُهُ؟! فيعرفُون حالَكم بالاستخبار لا بالمشاهدةِ. والمعنَى بسُؤالِهم : أنه إذا كان الظَّفَرُ لكم شارَكُوكم ، وإنْ كان للمشركين شارَكُوهم ، كلُّ هذا مِن الْخَوْفِ وَالْجُبْنِ. قرأ يعقوبُ (يَسَّاءَلُونَ) بالتشديد والمدِّ ، بمعنى يَتَسَاءَلُونَ ؛ أي يَسأَلُ بعضُهم بعضاً عن أخباركم ، { وَلَوْ كَانُواْ فِيكُمْ مَّا قَاتَلُواْ إِلاَّ قَلِيلاً } ؛ لو كانَ هؤلاءِ المنافقونَ فيكم ما قَاتَلُوا إلاَّ رَمْياً بالحجارةِ من غير احتسابٍ.

(٠/٠)

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } ؛ أي لقد كان لكُم في رسولِ اللهِ قُدْوَةٌ حَسَنَةٌ في الصَّبر على القتالِ والثَّباتِ عليه واحتمالِ الشَّدائد في ذاتِ اللهِ ، { لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ } ؛ يرجو ثوابَ اللهِ ، { وَالْيَوْمَ الآخِرَ } ، وثواب الدنيا والآخرةَ ، { وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً } ، وذلكَ : أنَّ كل من ذادَ أو ذكَرَ اللهَ في لسانهِ ازدَادت رغبتهُ في الاقتداءِ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم.
ومعنى الآيةِ : لقد كان لكُم في رسولِ الله اقتداءٌ لو اقتديتُم به ، والصبرُ معه في مواطنِ القتال كما فَعَلَ هو يومَ أُحُد إذ كُسِرَتْ رباعيَّتهُ وشُجَّ حاجبهُ وقُتِلَ عمُّه ، فواسَاكم مع ذلك بنفسهِ ، فهلاَّ فعلتم مثلَ ما فعلَ هو. وقوله تعالى : { لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ } يدلُّ من قوله (لَكُمْ) وهو تخصيصٌ بعد التعميمِ للمؤمنين.

(٠/٠)

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُواْ هَاذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ } ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قد وَعَدَهم في سُورةِ البقرةِ{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَآءُ وَالضَّرَّآءُ }[البقرة : ٢١٤]... إلى قولهِ{ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ }[البقرة : ٢١٤] وقولهِ تعالى : { لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ }[الفتح : ٢٨]. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً } ؛ أي ما زادَهم ما رأوهُ إلاَّ إيْماناً وتصديقاً بوعدِ الله وتَسلِيماً لآخرهِ.

(٠/٠)

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ } ؛ أي مِن جُملة المؤمنينَ رجالٌ وَافوا ما

عاهدُوا اللهَ عليه بالثَّباتِ على الدِّين والعملِ بمُوجبهِ من الصَّبر على القتالِ وغيرِ ذلك ، { فَمِنْهُمْ مَّن قَضَى نَحْبَهُ } ؛ أي مَن وَفَّى بنذرِهِ ، ومنهم مَن أقامَ على ذلك العهدِ حتى قُتِلَ شَهيداً في سبيلِ الله. قِيْلَ : إنَّ المرادَ به حَمْزَةُ ابن عبدِ المطَّلب وأصحابهُ الذين قُتِلُوا يومَ أُحُدٍ.

والنَّحْبُ في اللُّغة : النَّذْرُ ، وَقِيْلَ : النَّحْبُ هو النَّفَسُ ، ومنه النَّحِيْبُ : وهو التَّنَفُّسُ الشديدُ والنَّشْجُ في البكاءِ. والمعنى على هذا القولِ : (مِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ) { وَمِنْهُمْ مَّن يَنتَظِرُ } ؛ الموتَ على ذلك العهدِ. وَقِيْلَ : معناهُ : (فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ) أي ماتَ أو قُتِلَ في سبيلِ الله فأدركَ ما تَمنَّى ، فذلك قضاءُ النَّحْب. وَقِيْلَ : فَرَغَ من عملهِ ، ورجعَ إلى اللهِ. وقال الحسنُ : (قَضَى أجَلَهُ عَلَى الْوَفَاءِ وَالصِّدْقِ) ، قال ابنُ قُتيبةَ : (قَضَى نَحْبَهُ : قُتِلَ).

وأصلُ النَّحْب : النَّذْرُ ، كان قومٌ نذرُوا أنَّهم إنْ لَقُوا العدوَّ قَاتَلُوا حتى يُقْتَلُوا أو يَفتحَ اللهُ تعالى فَقُتِلُوا. يقال : فلانٌ قَضَى نَحْبَهُ ، إذا قُتِلَ. وقال محمَّد بنُ اسحقٍ : (فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ، مَنِ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ بَدْرٍ وَأُحُدٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ مَا وَعَدَ اللهُ مِنْ نَصْرٍ أوْ شَهَادَةٍ عَلَى مَا مَضَى عَلَيْهِ أصْحَابُهُ).

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّها قالَتْ : " طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِاللهِ مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ ، ثَبَتَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى أُصِيْبَتْ يَدُهُ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " أوْجَبَ طَلْحَةُ الْجَنَّةَ " " وعن أبي نَجيحٍ : أنَّ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ عِنْدَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فِي الْجَبَلِ ، فَجَاءَ سَهْمٌ مُتَوَجِّهٌ إلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فَاتَّقَاهُ طَلْحَةُ بيَدِهِ فَأَصَاب خِنْصَرَهُ.

وعن عائشةَ : أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : " مَنْ سَرَّهُ أنْ يَنْظُرَ إلَى رَجُلٍ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ وَقَدْ قَضَى نَحْبَهُ ، فَلْيَنْظُرْ إلَى طَلْحَةَ " وَقالَ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ سَرَّهُ أنْ يَنْظُرَ إلَى شَهِيْدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِاللهِ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً } ؛ أي ما غيَّرُوا عهدَ اللهِ الذي عاهَدُوه عليهِ كما غَيَّرَهُ المنافقونَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ } ؛ أي صِدْقَ المؤمنونَ في عهدِهم ليجزِيَهم اللهُ بصدقِهم ، { وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ } ؛ بنقضِ العهدِ ، { إِن شَآءَ } ؛ قال السديُّ : (يُمِيْتُهُمُ اللهُ عَلَى نِفَاقِهِمْ إنْ شَاءَ فَيُوجِبُ لَهُمُ الْعَذابَ). فمعنى شَرْطِ المشيئةِ في عذاب المنافقين إمَاتَتُهُمْ على النفاق إنْ شاءَ ثُم يعذِّبُهم ، { أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ } ؛ فيغفرُ لَهم ، ليس أنه يجوزُ أن لا يُعذِّبَهم إذا مَاتُوا على النِّفاقِ ، { إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً } ؛ لِمَن تابَ { رَّحِيماً } ؛ بمن ماتَ على التَّوبةِ.

(٠/٠)

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً } ؛ معناهُ : وصَرَفَ اللهُ الكفَّارَ عن المؤمنينَ مُغتاظِين لَم يكن فيهم مَن شَفَا غَيْظَهُ ، ولَم ينالوا منهم مَالاً ولا غنيمةً ، ولَم يَرَوا سُروراً ، { وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ } ؛ بالرِّيحِ والملائكةِ التي أُرسِلَتْ عليهم ، { وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً } ؛ أي لَم يَزَلْ قوِيّاً في مُلكهِ ، { عَزِيزاً } ، في قدرته مَنِيعاً بالنِّقمةِ من أعدائهِ.

(٠/٠)

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ } ؛ معناهُ : وأنزلَ الذين عَاوَنُوا المشركينَ من أهلِ الكتاب وهم بنُو قريظةَ ، نقَضُوا العهدَ وأعَانُوا الأحزابَ على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فأنزَلَهم اللهُ من حُصونِهم مع شدَّةِ شوكَتِهم ، وألقَى في قلوبهم الرُّعبَ. " وذلك أنَّ بنِي قريظةَ كانوا فقد عاهَدُوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن لاَ ينصرُوا أعداءَهُ عليهِ ، فلما رَأوا الأحزابَ وكَثرَتَهم ظنُّوا أنَّهم يستأصِلُون المؤمنينَ ، فنَقَضُوا العهدَ ولَحقوا بهم.

فَلَمَّا هَزَمَ اللهُ الْمُشْرِكِيْنَ وَرَجَعَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى بَيْتِهِ ، أرَادَ أنْ يَنْزَعَ لاَمَتَهُ ، فَسَمِعَ هَسِيْساً ، فَنَظَرَ فإذا جِبْرِيْلُ عليه السلام فِي دِرْعِهِ وَسِلاَحِهِ ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيْلُ : أتَنْزَعُ لاَمَتَكَ يا رَسُولَ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةُ لَمْ يَنْزعُواْ حَتَّى يُقَاتِلُواْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَيُصَلِّى فِيهِمْ الْعَصْرُ؟! فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " وَكَيْفَ لِي بِقِتَالِهِمْ وَهُمْ فِي حُصُونِهِمْ؟! " فَقَالَ جِبْرِيْلُ : لأُلْهِمَنَّكَ ذلِكَ ، فَوَاللهِ لأَدُقَّنَّهُمُ الْيَوْمَ كَمَا يُدَقُّ الْبَيْضُ عَلَى الصَّفَا. فَنَادَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي الأَصْحَاب ، فَخَرَجُواْ إلَى حُصُونِ بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَأُلْقِي الرُّعْبُ فِي قُلُوب الْقَوْمِ حَتَّى طَلَبُواْ الصُّلْحَ ، وَأبَوْاْ إلاَّ أنْ يَنْزِلُواْ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ.

وَكَانَ سَعْدُ قَدْ أصَابَهُ سَهْمٌ فِي أكْحَلِهِ فِي حَرْب الْخَنْدَقِ ، فَسَأَلَ اللهَ أنْ يُؤْخِّرَهُ إلَى أنْ يَرَى قُرَّةَ عَيْنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ. فَلَمَّا طَلَبَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ النُّزُولَ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ ، رَضِيَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَحُمِلَ سَعْدٌ إلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَقَدِ احْتَبَسَ أكْحَلُهُ ، فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : " احْكُمْ فِيْهِمْ ". فَقَالَ : حَكَمْتُ فِيْهِمْ بأَنَّ يُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ وَيُسْبَى ذرَارِيَهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ وَأمْوَالُهُمْ. فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " حَكَمْتَ فِيْهِمْ مِثْلَ مَا حَكَمَ اللهُ فِيْهِمْ ".

فَلَمَّا قُتِلَتْ مُقَاتِلَتُهُمْ وَسُبِيَتْ نِسَاؤُهُمْ وَذرَارِيَهُمْ ، انْفَجَرَ أكْحَلُ سَعْدٍ فَمَاتَ رَحِمَهُ اللهُ ".

والصَّيَاصِيُّ : جمعُ صِيصَةٍ ، وصِيْصَةُ الثَّور قَرْنُهُ ، سُمِّي بذلكَ ؛ لأنَّ قَرْنَهُ حِصْنُهُ الَّذِي يَتَحَصَّنُ بهِ.

ورُوي : " أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا رَجَعَ مِنْ اللَّيْلَةِ الَّتِي انْصَرَفَ فِيهَا الأَحْزَابُ ، وَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَالْمُؤْمِنُونَ إلَى الْمَدِيْنَةِ ، وَوَضَعَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم السِّلاَحَ ، أتَى جِبْرِيْلُ عليه السلام إلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مُعْتَجِراً بعِمَامَةٍ مِنْ اسْتَبْرَقَ عَلَى بَغْلَةٍ عَلَيْهَا قَطِيْفَةٌ مِنْ دِيْبَاجٍ ، وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عِنْدَ زَيْنَبَ بنْتِ جحْشٍ يَغْسِلُ رَأسَهُ وَقَدْ مَشَّطَتْ عِقْصَتَهُ ، فَقَالَ جِبْرِيْلُ : قَدْ وَضَعْتَ السِّلاَحَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ : " نَعَمْ " قَالَ : عَفَا اللهُ عَنْكَ يَا رَسُولَ اللهِ! فَوَاللهِ مَا وَضَعَتِ الْمَلاَئِكَةُ السِّلاَحَ مُنْذُ أرْبَعِيْنَ لَيْلَةٍ ، إنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ بالسَّيْرِ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ.

وَكَانَ هَذا فِي وَقْتِ الظُّهْرِ ، فَأَمَرَ النَّبيُّ صلى الله صلى وسلم مُنَادِياً يُنَادِي : " مَنْ كَانَ سَامِعاً مُطِيْعاً فَلاَ يُصَلِّيَنَّ الْعَصْرَ إلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ ". وَقَدَّمَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عَلِيَّ بْنَ أبي طَالِبٍ برَايَتِهِ إلَيْهِمْ ، فَسَارَ إلَيْهِمْ عَلِيٌّ رضي الله عنه حَتَّى إذا دَنَا مِنَ الْحُصُونِ سَمِعَ مِنْهُمْ مَقَالَةً قَبِيْحَةً فِي رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَرَجَعَ عَلِيٌّ رضي الله عنه حَتَّى لَقِيَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بالطَّرِيْقِ. فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ لاَ عَلَيْكَ أنْ تَدْنُو مِنْ هَؤُلاَءِ الْخَبَائِثِ ، قَالَ : " أظُنُّكَ سَمِعْتَ مِنْهُمْ أذى ؟ " قَالَ : نَعَمْ. فَسَارَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم نَحْوَهُمْ حَتَّى دَنَا مِنْ حُصُونِهِمْ ، فَقَالَ لَهُمْ : " يَا إخْوَانَ الْقِرَدَةِ أخْزَاكُمُ اللهُ ، وَأنْزَلَ فِيْكُمْ نِقْمَتَهُ " قَالُواْ : يَا أبَا الْقَاسِمِ! مَا كُنْتَ جَهُولاً.

فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ خَمْساً وَعِشْرِيْنَ لَيْلَةً حَتَّى جَهَدَهُمُ الْحِصَارُ ، وَقَذفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ. فَلَمَّا أيْقَنُواْ أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم غَيْرُ رَاجِعٍ عَنْهُمْ ، قَالَ لَهُمْ كَعْبُ بْنُ أسَدٍ : يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ ؛ إنَّهُ قَدْ نَزَلَ بكُمْ مِنَ الأَمْرِ مَا تَرَوْنَ ، وَإنِّي سَأَعْرِضُ عَلَيْكُمْ ثَلاَثَ خِصَالٍ ، فَخُذُواْ بأَيِّهَا شِئْتُمْ. قَالُواْ : وَمَا هِيَ ؟

قَالَ : أمَّا الأُوْلَى فَنُبَايِعُ هَذا الرَّجُلَ وَنُصَدِّقُهُ فَوَاللهِ لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ أنَّهُ نَبيٌّ مُرْسَلٌ ، وَأنَّهُ الَّذِي تَجِدُونَهُ فِي كِتَابكُمْ ، فَتَأْمَنُواْ عَلَى دِمَائِكُمْ وَأمْوَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ. قَالُواْ : لاَ نُفَارِقُ دِيْنَنَا أبَداً ، وَلاَ نَسْتَبْدِلُ بهِ غَيْرَهُ.

قَالَ : فَإنْ أبَيْتُمْ هَذِهِ عَلَيَّ ، فَهَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ أبْنَاءَنَا وَنَسَاءَنَا ، ثُمَّ نَخْرُجَ إلَى مُحَمَّدٍ رجَالاً مُصَلِّتِينَ بالسُّيُوفِ ، وَلَمْ يَكُنْ وَرَاءَنَا ثِقْلٌ يَهُمُّنَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ. قَالُواْ : نَقْتُلُ هَؤُلاَءِ الْمَسَاكِيْن! فَلاَ خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَهُمْ.

قَالَ : فَإنَّ أبَيْتُمْ هَذِهِ ، فَاعْلَمُواْ أنَّ هَذِهِ لَيْلَةَ السَّبْتِ ، وَإنَّهُ عَسَى أنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ وَأصْحَابُهُ قَدْ أمِنُواْ فِيْهَا ، فَانْزِلُواْ لَعَلَّنَا نُصِيْبُ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأصْحَابهِ غِرَّةً. قَالُواْ : نُفْسِدُ سَبْتَنَا وَنُحْدِثُ فِيْهِ مَا لَمْ يَكُنْ أحْدَثَ فِيْهِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ، وَقَدْ عَلِمْتَ أنَّ الَّذِينَ أحْدَثُواْ فِيه الأحْدَاثَ مُسِخُواْ ، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ مَنْ هُمْ.

قَالَ : ثُمَّ إنَّهُمْ بَعَثُواْ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أن ابْعَثْ إلَيْنَا أبَا لُبَابَةَ أخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، وَكَانُواْ حُلَفَاءَ الأَوْسِ ، نَسْتَشِيْرُهُ فِي أمْرِنَا ، فَأَرْسَلَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلَيْهِمْ. فَسَأَلُوهُ إنْ نَنزِلَ عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَأشَارَ بيَدِهِ إلَى حَلْقِهِ : أنَّهُ الذبْحُ. قَالَ أبُو لُبَابَةَ : فَعَلِمْتُ أنِّي قَدْ خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ ، ثُمَّ انْطَلَقَ أبُو لُبَابَةَ عَلَى وَجْهِهِ ، وَلَمْ يَأْتِ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى ارْتَبَطَ فِي الْمَسْجِدِ إلَى عَمُودٍ مِنْ أعْمِدَتِهِ ، وَقَالَ : لاَ أبْرَحُ حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيَّ مِمَّا صَنَعْتُ ، وَعَاهَدَ اللهَ

تَعَالَى أنْ لاَ يَطَأَ أرْضَ بَنِي قُرَيْظَةَ أبَداً ، وَقَالَ : لاَ يَرَانِي اللهُ فِي بَلَدٍ خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيْهِ. فَلَمَّا عَلِمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قَدْ مَضَى عَلَى وَجْهِهِ وَلَمْ يَأْتِهِ قَالَ : " أمَا إنَّهُ لَوْ جَاءَنِي لاسْتَغْفَرْتُ لَهُ ، فَأَمَّا إذا فَعَلَ مَا فَعَلَ ، فَمَا أنَا بالَّذِي أُطْلِقُهُ حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ. ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعَالَى أنْزَلَ تَوْبَتَهُ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " تُبْتُ عَلَى أبي لُبَابَةَ " فَثَارَ النَّاسُ إلَى أبي لُبَابَةَ لِيُطْلِقُوهُ ، فَقَالَ : وَاللهِ لاَ حَتَّى يَكُونَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم هُوَ الَّذِي يُطْلِقُنِي بيَدِهِ. فَجَاءَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فَأَطْلَقَهُ.

قَالَ : فَلَمَّا أصْبَحَ بَنُو قُرَيْظَةَ نَزَلُواْ عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَتَوَاثَبَتِ الأَوْسُ وَقَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إنَّهُمْ مَوَالِيْنَا – أيْ حُلَفَاؤُنَا – دُونَ الْخَزْرَجِ ، وَقَدْ فَعَلْتَ فِي مَوَالِي الْخَزْرَجِ مَا قَدْ عَلِمْتَ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ بَنِي قُرَيْظَةَ حَاصَرَ بَنِي قَيْنُقَاعَ وَكَانُواْ حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ ، فَنَزَلُواْ عَلَى حُكْمِهِ ، فَسَأَلَهُمْ إيَّاهُ عَبْدُاللهِ بْنُ أبى سَلُولٍ فَوَهَبَهُمْ لَهُ. فَلَمَّا كَلَّمَهُ الأَوْسُ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " يَا مَعْشَرَ الأَوْسِ ؛ أمَا تَرْضَوْنَ أنْ أُحَكِّمَ فِيْهِمْ رَجُلاً مِنْكُمْ ؟ " قَالُواْ : بَلَى ، قَالَ : " فَذاكَ " إلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، وَكَانَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ قَدْ جَعَلَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي خَيْمَةِ امْرَأةٍ مِنَ أسْلَمَ يُقَالُ لَهَا رُفَيْدَةُ ، تُدَاوي الْجَرْحَى وَتَخْدِمُ الْمَرْضَى.

فَلَمَّا حَكَّمَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي بَنِي قُرَيْظَةَ ، أتَاهُ قَوْمٌ فَاحْتَمَلُوهُ عَلَى حِمَار ، وَقَدْ وَطَّأُواْ لَهُ وسَادَةً مِنْ أدْمٍ ، وَكَانَ رَجُلاً جَسِيْماً. ثُمَّ أقْبَلُواْ بِهِ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُمْ يَقُولُونَ : يَا أبَا عَمْرٍو! أحْسِنْ فِي مَوَالِيْكَ ، فَإنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم إنَّمَا وَلاَّكَ ذلِكَ لِتُحْسِنَ فِيْهِمْ. فَلَمَّا أكْثَرُواْ عَلَيْهِ ؛ قَالَ : لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أنْ لاَ تَأْخُذهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ. فَعَرَفُواْ أنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ مَقْتُولُونَ.

فَلَمَّا انْتَهَى سَعْدٌ إلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : " قُومُواْ إلَى سَيِّدِكُمْ ، فَأَنْزِلُوهُ " فَقَامُواْ إلَيْهِ ، فَقَالَ : يَا أبَا عَمْرٍو ؛ إنَّ رَسُولَ اللهِ قَدْ وَلاَّكَ مَوَالِيكَ لِتَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ، فَقَالَ سَعْدٌ : عَلَيْكُمْ عَهْدُ اللهِ وَمِيْثَاقُهُ أنَّ الْحُكْمَ فِيْهِمْ مَا حَكَمْتُ ؟ قَالُواْ : نَعَمْ. قَالَ : أحْكُمُ فِيْهِمْ أنْ يُقْتَلَ الرِّجَالُ وَتُقْسَمَ الأَمْوَالُ وَتُسْبَى الذرَارِي وَالنِّسَاءُ. فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " لَقَدْ حَكَمْتَ فِيْهِمْ يَا سَعْدُ بحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أرْقِعَةٍ ". ثُمَّ اسْتُنْزِلُواْ ، فَحَبَسَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي دَار " ابْنَةِ الْحَارِثِ " امْرَأةٍ مِنْ بَنِي النَّجَّار ، ثُمَّ بَعَثَ إلَيْهِمْ مَنْ يُخْرِجُهُمْ إلَيْهِ إرْسَالاً ، وَأمَرَ بضَرْب أعْنَاقِهِمْ.

وَكَانَ فِيْهِمْ يَوْمئِذٍ عَدُوُّ اللهِ حَيِيُّ بْنُ أخْطَبَ وَكَعْبُ بْنُ أسْدٍ رَأسُ الْقَوْمِ فِي سَبْعِمِائَةٍ. وَقِيْلَ : مِنْ ثَمَانِمِائَةٍ إلَى تِسْعِمِائَةٍ ، فَقَالُواْ لِكَعْبٍ وَهُوَ يَذْهَبُ بهِمْ إلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أرْسَالاً : يَا كَعْبُ مَا تَرَى مَا يُصْنَعُ بنَا ؟ قَالَ : مَا لَكُمْ لاَ تَعْقِلُونَ! ألاَ تَرَوْنَ مَنْ ذهَبَ مِنْكُمْ لاَ يَرْجِعُ ، هُوَ وَاللهِ الْقَتْلُ ، فَلَمْ يَزَلْ ذلِكَ دَأبُهُمْ حَتَّى فَرَغَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ثُمَّ أُتِيَ بحُيَيِّ بْنِ أخْطَبَ عَدُوِّ اللهِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ لَهُ فَقَّاحِيَّةٌ وَيَدَاهُ مَغْلُولَتَانِ إلَى عُنُقِهِ بحَبْلٍ ، ثُمَّ أُجْلِسَ فَضُرِبَ عُنُقُهُ ".

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً } ؛ قال المفسِّرون : "كان بعضُ أزواجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم سَأَلْنَهُ شيئاً من عَرَضِ الدُّنيا وآذينَهُ بزيادةِ النَّفقة ، فهَجَرَهُنَّ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وآلَى منهنَّ شهراً أنْ لا يقرَبَهن ولَم يخرج إلى أصحابهِ للصَّلوات.

فقالتِ الصحابةُ : مَا شَأْنُ رَسُولِ اللهِ ؟ فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : إنْ شِئْتُمْ ذَهَبْتُ إِلَيْهِ لأُعْلِمَكُمْ مَا شَأْنُهُ ؟ فَذَهَبَ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فَاسْتَأْذنَ فَأَذِنَ لَهُ. قَالَ عُمَرُ : فَجَعَلْتُ أقُولُ فِي نَفْسِي : أيُّ شَيْءٍ أكَلِّمُ بهِ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَعَلَّهُ يَنْبَسِطُ ؟ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ لَوْ رَأيْتَ فُلاَنَةَ وَهِيَ تَسْأَلُنِي النَّفَقَةَ فَصَكَكْتُهَا صَكَّةً ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " فَذلِكَ الَّذِي أجْلَسَنِي عَنْكُمْ ". فَأَتَى عُمَرُ حَفْصَةَ فَقَالَ لَهَا : لاَ تَسْأَلِي رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم شَيْئاً فَمَا كَانَ مِنْ حَاجَتِهِ لَكَ فَأَوْلَى.

ثُمَّ جَعَلَ يَتَتَبَّعُ نِسَاءَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يُكَلِّمُهُنَّ ، حَتَّى قَالَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : يَغُرُّكِ أَنَّكِ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ وَإِنَّ زَوْجَكِ يُحِبُّكِ لَتَنْتَهِيَنَّ أَوْ لَيُنْزِلَنَّ اللهُ فِيْكُنَّ الْقُرْآنِ. فَقَالَتْ أُمّ سَلَمَةَ : يَا ابْنَ الْخَطَّاب ؛ أوَمَا بَقِيَ لَكَ إلاَّ أنْ تَدْخُلَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ وَنِسَائِهِ! فَمَنْ تَسْأَلَ الْمَرْأةُ إلاَّ زَوْجَهَا ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ { يأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ } " إلى آخرها.

وكان يومئذٍ مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم تسعُ نِسوَةٍ ؛ خمسٌ من قُريش : عائشةُ بنت أبي بكر ، وحفصةُ بنت عُمر ، وأمُّ حبيبةَ بنت أبي سُفيان ، وسَوْدَةُ بنتُ زَمْعَةَ ، وأمُّ سَلَمَةَ بنت أبي أُميَّة ، فهؤلاءِ من قريشٍ. وصفيَّة بنتُ حَيِّ بن أخطب الخيبريَّة ، وميمونةُ بنت الحارثِ الهلالية ، وزينبُ بنت جحشٍ ، وجُوَيْرِيَّةُ بنت الحارثِ الْمُصْطَلِقِيَّةُ.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ : "كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم جَالِساً مَعَ حَفْصَةَ ، فَتَشَاجَرَا فِيْمَا بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ لَهَا : هَلْ لَكِ أنْ أجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَكِ رَجُلاً ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، قَالَ : فَأَبُوكِ إذاً ، فَأَرْسَلَ إلَى عُمَرَ رضي الله عنه ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا قَالَ : تَكَلَّمِي ، قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ تَكَلَّمْ وَلاَ تَقُلْ إلاَّ حَقّاً! فَرَفَعَ عُمَرُ يَدَهُ فَوَجَّى وَجْهَهَا ثُمَّ رَفَعَ فَوَجَّى وَجْهَهَا ، فَقَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : "كُفَّ ".

فَقَالَ عُمَرُ : يَا عَدُوَّةِ اللهِ! أوَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ إلاَّ حَقّاً ، وَالَّذِي بَعَثَهُ بالْحَقِّ لَوْلاَ مَجْلِسُهُ مَا رَفَعْتُ يَدِي حَتَّى تَمُوتِي. فَقَامَ صلى الله عليه وسلم فَصَعَدَ إلَى غُرْفَةٍ ، فَمَكَثَ فِيْهَا شَهْراً لاَ يَقْرَبُ شَيْئاً مِنْ نِسَائِهِ ، يَتَغَدَّى وَيَتَعَشَّى فِيْهَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : { يأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

وَزِينَتَهَا } الآيَةُ ، فَنَزَلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فَعَرَضَ ذلِكَ عَلَيْهِنَّ كُلُّهُنَّ ، فَلَمْ يَخْتَرْنَ إلاَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَكَانَ آخِرُ مَنْ عَرَضَ عَلَيْهَا حَفْصَةُ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إنِّي فِي مَكَانِ الْعَائِذة بكَ مِنَ النَّار ، وَاللهِ لاَ أعُودُ لِشَيْءٍ تَكْرَهُهُ أبَداً ، بَلْ أخْتَارُ اللهَ وَرَسُولَهُ ، فَرَضِيَ عَنْهَا ".

(٠/٠)

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يانِسَآءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ } ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (يَعْنِي النُّشُوزَ وَسُوءَ الْخُلُقِ) { يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ } ؛ أي يُجعَلُ عذابُ جُرمِها في الآخرةِ كعذاب جُرمَيْنِ. والمعنى : يزيدُ في عذابها ضِعْفاً ، كما زيدَ في ثوابها ضِعفاً في قولهِ{ نُؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ }[الأحزاب : ٣١].

وإنَّما ضُوعِفَ عذابُهن على الفاحشة لأنَّهن يُشَاهِدْنَ من الزَّواجرِ ما يَرْدَعُ عن مواقعةِ الذُّنوب ما لا يشاهدُ غيرُهن ، فإذا لَم يَمتَنِعْنَ اسْتَحْقَقْنَ تَضعيفَ العذاب. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً } ؛ أي وكان عذابُها على الله هيِّناً.

وقَوْلُهُ تَعَالَى { يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ } ، قرأ ابنُ كثيرٍ وابن عامر (نُضَعِّفُ) بالنون وكسرِ العين مشدَّدة من غير ألِف (العذابَ) بالنصب ، وقرأ أبو عمرٍو (يُضَعَّفُ) بالياءِ وفتحِ العين والتشديد ، ورفعِ (الْعَذابُ) ، قال أبو عمرٍو : (وَإنَّمَا قَرَأتُ هَكَذا مُشَدَّداً مِنْ غَيْرِ ألِفٍ لِقَوْلِهِ (ضَعْفَيْنِ) ، يُقَالُ : ضَعَّفْتُ الشَّيْءَ إذا جَعَلْتُهُ مِثْلَهُ وَضَاعَفْتُهُ إذا جَعَلْتُهُ أمْثَالَهُ). وقرأ الباقونَ (يُضَاعَفُ) بالألفِ ورفع (الْعَذابُ).

(٠/٠)

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ للَّهِ وَرَسُولِهِ } ؛ أي ومَن يُطِعْ منكن للهِ ورسولِهِ. وَقِيْلَ : ومَن تُقِمْ منكنَّ على طاعةِ الله وطاعة رسولهِ ، { وَتَعْمَلْ صَالِحاً } ؛ فيما بينَها وبين ربها ، { نُؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ } ؛ أي نُعطِيها مكانَ كلِّ حَسَنَةٍ عشرين حَسَنَةً ، { وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً } ؛ أي حَسَناً ؛ يعني الجنَّة. والرِّزقُ

الكريمُ : ما سَلِمَ من كلِّ آفةٍ ، ولا يكونُ ذلك إلاَّ في الجنَّة.
قرأ يعقوب (تَقْنُتْ) بالتاءِ ومثلهُ رُوي عن ابنِ عامر ، وقوله (وَتَعْمَلْ صَالِحاً) ، قرأ الأعمشُ وحمزة والكسائي وخلَف (وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُؤْتِهَا) بالياءِ فيهما. وقرأ غيرُهم (وَتَعْمَلْ) بالتاءِ (وَنُؤْتِهَا) بالنُّون. قال الفرَّاء : (وَإِنَّمَا قُرِئَ (يَقْنُتْ) بالياءِ لأن (مَنْ) أدَاةٌ تَقُومُ مَقَامَ الاسْمِ ، يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْوَاحِدِ وَالاثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ وَالْمُؤَنَّثِ وَالْمُذكَّرِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ }[يونس : ٤٣]{ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ }[يونس : ٤٢] ، { وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ للَّهِ }).

(٠/٠)

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يانِسَآءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَآءِ } ؛ معناهُ : ليس قَدْرُكُنَّ عندي مثل قَدْر غيرِكن من النِّساء الصالحات ، أنْتُنَّ أكرمُ عَلَيَّ ، وأنا بكُنَّ أرحمُ وثوابُكن أعظمُ ، { إِنِ اتَّقَيْتُنَّ } ؛ اللهِ. وشَرَطَ عليهنَّ التقوَى بياناً أنَّ فَضِيلَتَهُنَّ إنَّما تكون بالتَّقوى لا باتِّصالِهن بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم. وَقِيْلَ : معناهُ. ليست حالَتُكن كحالةِ النِّساء غيركن في الطاعةِ والمعصية والثواب والعقاب إنْ كنتن مُتَّقِيَاتٍ عن المعاصي مُطيعاتٍ لله تعالى.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ } ؛ أي فلا تُلِنَّ القولَ للرِّجال على وجهٍ يُورثُ ذلك الطمعَ فيكن ، فيطمعُ المنافقون في مواقعتِكُن ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ } ؛ يعني زنًى وفجُورٌ ونفاقٌ. والمرأةُ مَنْدُوبَةٌ إذا خاطبَتِ الأجانبَ إلى الْغِلْظَةِ في المقالةِ ؛ لأن ذلك أبعدُ مِن الطَّمعِ من الزِّينة.
وإنَّما قال { لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَآءِ } ولَم يقل كواحدةٍ ؛ لأن أحَداً عامٌّ يصلحُ للواحدِ والاثنين والجمع والمذكَّر والمؤنث ، قال تعالى : { لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ }[البقرة : ٢٨٥] وقال تعالى{ فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ }[الحاقة : ٤٧].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً } ؛ أي قُلْنَ قَولاً حَسَناً لا يؤدِّي إلى الزينةِ ، وَقِيْلَ : معناهُ : وقُلْنَ ما يوجبهُ الدِّين والإسلامُ بغيرِ خضوعٍ فيه ، بل بتصريحٍ وبيان. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ } ؛ أي إلْزَمْنَ بيوتَكُن ولا تخرُجْن إلاّ في ضَرورةٍ.
قرأ نافعُ وعاصم (وَقَرْنَ) بفتح القافِ ، وهو مِن قَرَرْتَ في المكانِ أقَرَّ ، وكان الأصلُ اقْرِرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ

، فحُذفت الرَّاء الأُولى التي هي عينُ الفعلِ لأجل نَقْلِ التَّضعيفِ ، وأُلقِيَتْ حركتُها إلى القافِ كقوله{ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ }[الواقعة : ٦٥] و{ ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً }[طه : ٩٧] ، والأصلُ ظَلَلْتَ وظَلَلْتُمْ. وقرأ الباقون (وَقِرْنَ) بكسرِ القاف مِن الوَقَار ؛ أي كنَّ أهلَ سَكينةٍ ووَقارٍ ، والأمرُ منه للرَّجُلِ قِرَّ ، وللمرأة قِرِّي ، والجماعة النساء قِرْنَ ، كما يقالُ من الوعدِ : عِدْنَ ، ومن الوَصْلِ : صِلْنَ.

وعن محمَّد بنِ سِيرين قال : (قِيْلَ لِسَوْدَةِ بنْتِ زَمْعَةَ : ألاَ تَحُجِّيْنَ ؛ ألاَ تَعْتَمِرِيْنَ كَمَا يَفْعَلُ أخَوَاتُكِ ؟ فَقَالَتْ : قَدْ حَجَجْتُ وَاعْتَمَرْتُ ، ثُمَّ أمَرَنِي اللهُ أنْ أقِرَّ فِي بَيْتِي ، فَوَاللهِ لاَ أخْرُجُ مِنْهُ حَتَّى أمُوتُ. فَوَاللهِ مَا أُخْرِجَتْ مِنْ بَاب بَيْتِهَا حَتَّى أخْرَجُواْ جَنَازَتَهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى } ؛ التَّبَرُّجُ : التَّبَخْتُرُ وَإظْهَارُ الزِّيْنَةِ ، وما يستدعِي به من شَهوَةِ الرِّجال وإبراز الْمَحاسِنِ للناسِ. والجاهليةُ الأُولَى : هي ما بينَ عِيسَى عليه السلام ومُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، كانتِ المرأةُ من أهلِ ذلك الزمان تَتَّخِذُ الدِّرْعَ من اللُّؤلُؤِ فتلبسهُ ثُم تَمشِي وسطَ الطريقِ ليس عليها غيرهُ ، وتعرِضُ نفسَها للرِّجالِ. وقال بعضُهم : الجاهليةُ الأُولَى ما بين آدمَ ونوحٍ ، كان نساؤُهم أقبحَ ما يكون من النِّساءِ ، ورجالُهم حِسَانٌ ، وكانت المرأةُ تُرَاوِدُ الرجُلَ عن نفسهِ. فنهَى اللهُ تعالى هؤلاءِ عن فِعْلِ أهلِ الجاهليَّة وأمَرَهُنَّ بإقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاة وطاعةِ الله ورسولهِ في باقِي الآيةِ.

(٠/٠)

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ } ؛ أي وَاحْفظْنَ ما يُقْرَأُ عليكُن في بُيوتِكن منَ القُرْآنِ والمواعظِ. وهذا حَثٌّ لَهن على حِفْظِ القُرْآنِ والأخبار ومذاكرتَهن بهما للإحاطةِ بحدودِ الشَّريعةِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً } ؛ أي لَطِيفاً بأوليائهِ ، خَبيراً بجميعِ خَلْقِهِ وبجميعِ مصالِحهم.

(٠/٠)

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } ؛ الآيةُ ، قال قتادةُ : (لَمَّا ذَكَرَ اللهُ أَزْوَاجَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ نِسَاءٌ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ عَلَيْهِنَّ ؛ فَقُلْنَ : ذُكِرْتُنَّ وَلَمْ نُذْكَرْ! فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

وقال مقاتلُ : " لَمَّا رَجَعَتْ أَسْمَاءُ بنْتُ عُمَيْسٍ مِنَ الْحَبَشَةِ مَعَ زَوْجِهَا جَعْفَرِ بْنِ أبي طَالِبٍ ، دَخَلَتْ عَلَى نِسَاءِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَقَالَتْ : هَلْ نَزَلَ فِيْنَا شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ ؟ قُلْنَ : لاَ. فَأَتَتْ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ النِّسَاءَ لَفِي خَيْبَةٍ وَخَسَارَةٍ! قَالَ : " وَمِمَّ ذلِكَ ؟ " قَالَتْ : لأَنَّهُنَّ لاَ يُذْكَرْنَ بخَيْرٍ كَمَا يُذْكَرُ الرِّجَالُ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيةِ ".

وقال مقاتلُ : (قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ بنْتُ أبي أُمَيَّةَ وَنُسَيْبَةُ بنْتُ كَعْبٍ الأَنْصَارِيَّةُ لِلنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : مَا بَالُ ربنَا يَذْكُرُ الرِّجَالَ وَلاَ يَذْكُرُ النِّسَاءَ فِي شَيْءٍ مِنْ كِتَابِهِ ، فَعَسَى أَنْ لاَ يَكُونَ فِيْهِنَّ خَيْرٌ ، وَلاَ للهِ فِيْهِنَّ حَاجَةٌ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

وَقِيْلَ : إنَّ أزواجَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قُلْنَ : (يَا رَسُولَ اللهِ! ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الرِّجَالَ فِي الْقُرْآنِ ، وَلَمْ يَذْكُرِ النِّسَاءَ بخَيْرٍ ، فَمَا فِيْنَا خَيْرٌ نُذْكَرُ بهِ ، إنَّا نَخَافُ أَنْ لاَ يَتَقَبَّلَ مِنَّا طَاعَةً). فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ.

وَاعْلَمْ : أنَّ الرجالَ والنساء يُجَازَوْنَ بأعمالِهم الصالحة مغفرةً لذِنوبهم وأجْراً عظيماً.

ومعنى الآيةِ : { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ } يعني الْمُخْلِصِيْنَ بالتَّوحيدِ والمخلِصاتِ { وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } أي المصدِّقِين بالتوحيدِ والْمُصَدِّقَاتِ. والإسلامُ في اللغةِ : هو الانْقِيَادُ وَالاسْتِسْلاَمُ. والإيْمَانُ في اللغة : هو التَّصْدِيْقُ ، غيرَ أنَّ معنى الإسلامِ والإيمان في هذه الآية واحدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ } ؛ أي الْمُطِيعِينَ للهَ في أوامرِهِ ونواهيه والْمُطِيْعَاتِ. والقَانِتُ : هو الْمُوَاظِبُ على الطاعةِ ، والقُنُوتُ : طُولُ القيامِ في الصَّلواتِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ } ؛ يعني الصَّادِقِينَ في إيْمانِهم والصَّادِقاتِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ } ؛ الصَّابرُ : هو الذي يَحْبسُ نفسَهُ عن جميعِ ما يجبُ الصَّبرُ عنهُ ، ويصبرُ على جميعِ ما يجبُ الصبر عليهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ } ؛ يعني بالْمُتَصَدِّقِيْنَ الذين يُؤَدُّونَ ما عليهم مِن الصَّدقة المفروضةِ. ويقالُ : أرادَ به جميعَ الصَّدقاتِ. وأما الخاشِعُ : فهو الْمُتَوَاضِعُ للهِ تعالى وللناسِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { والصَّائِمِينَ والصَّائِمَاتِ } ؛ يعني الصَّائمين صومَ الفرضِ بنيَّةٍ صادقةٍ ، ولكن فِطْرُهُمْ على حَلالٍ. قال ابنُ عبَّاس : (مَنْ صَامَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَثَلاَثَةَ أيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ الْغُرِّ الْبِيْضِ ، كَانَ مِنْ

أَهْلِ هَذِهِ الآيَةِ ، وَيُؤْتُوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بمَائِدَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ ، يَأْكُلُونَ مِنْهَا وَالنَّاسُ فِي شِدَّةٍ ، وَيُظِلُّهُمُ اللهُ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ وَالنَّاسُ فِي شِدَّةٍ ، وَيَنْفَحُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ رِيْحُ الْمِسْكِ).

وقوله تعالى : { وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ } ؛ أي عمَّا لا يحلُّ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ } ؛ قِيْلَ : أرادَ به الذِّكْرَ في الصَّلواتِ الخمسِ. وَقِيْلَ : أرادَ به الذِّكْرَ باللِّسانِ والقلب في جميعِ الأحوال. قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيْدُ فِي أدْبَار الصَّلَوَاتِ غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَفِي الْمَضَاجِعِ ، وَكُلَّمَا اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ ، وَكُلَّمَا غَدَا وَرَاحَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذكَرَ الله). وقال مجاهدُ : (لاَ يَكُونُ الرَّجُلُ مِنَ الذاكِرِيْنَ كَثِيْراً حَتَّى يَذْكُرَ اللهَ قَائِماً وَقَاعِداً وَمُضْطَجِعاً). وعن أبي هريرةَ ؛ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأيْقَظَ امْرَأتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ ، كُتِبَا مِنَ الذاكِرِيْنَ اللهَ كَثِيْراً وَالذاكِرَاتِ " وقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً } ؛ وهو الجنَّةُ.

(٠/٠)